AL-ITHNAINYA
الاثنينية
منتدى أدبي ثقافي أسس بجدة عام ١٤٠٣هـ - ١٩٨٢م

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عزيز ضياء

الجزء الثالث

بسم الله الرحمن الرحيم

كتاب الاثنينية
(٢٦)

الأعمال الكاملة

للأديب الأستاذ

عزيز ضياء

الجزء الثالث

الناشر
عبد المقصود محمد سعيد خوجه
جدة

ⓒ عبدالمقصود خوجه ، ١٤٢٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ضياء ، عزيز

الأعمال الكاملة للأديب الأستاذ عزيز ضياء ./ عزيز ضياء .- جدة ١٤٢٥هـ

٥ مج ٢٦٠٨ص (الجزء الثالث ٣٨٨ ص) ؛ ١٧×٢٤سم (كتاب الاثنينية ٢٦)

ردمك ٤-٦٢٦-٤٦-٩٩٦٠ (مجموعة)
٩-٦٢٩-٤٦-٩٩٦٠ (ج ٣)

١ - زاهد ، عزيز ضياء - المؤلفات الكاملة أ- العنوان .

ديوي ٨١٠,٨ ٥٦٦٠/ ١٤٢٥

رقم الإيداع : ٥٦٦٠/ ١٤٢٥

ردمك ٤-٦٢٦-٤٦-٩٩٦٠ (مجموعة)
٩-٦٢٩-٤٦-٩٩٦٠ (ج ٣)

الطبعة الأولى

١٤٢٦ هـ — ٢٠٠٥ م

صدرت هذه الأعمال بمناسبة "مكة المكرمة" عاصمة الثقافة الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة

الناشر

عبدالمقصود محمد سعيد خوجه

جدة

فهرس المحتويات

النشر ....

مع الحياة ومنها ....

المتغيرات في إدمان تعاطي المخدرات (١) ....

المتغيرات في إدمان تعاطي المخدرات (٢) ....

غرابيل الزيدان. . . وخروجه من شرنقة الرافعي ....

لهجة الحجاز ـ سيدة اللهجات العامّية ....

التجنيد سبيل ترسيخ الانتماء إلى الأرض ....

بوتقة الصهر ....

أي بنيّ ـ مقارنة بين ماضينا وحاضرنا (١) ....

أي بنيّ ـ مقارنة بين ماضينا وحاضرنا (٢) ....

اختيار هذا العنوان ....

حقيقة سياسة جورباتشوف ....

هوية الأدب، عند الدكتور منصور الحازمي ....

روائع الفن التشكيلي في عصر النهضة وما بعده ....

الكاتب. . . والجمهور ....

مارد الحرية. . . في مواجهة الماوية ....

مسافات بين العالم الثالث. . . وحضارة العصر ....

زلزال سان فرانسيسكو. . . وتنحية أريخ هونيكر ....

أبناؤنا والمدرّس الخصوصي ....
من جهنم البركان... إلى ظلال الحنان ....
لحن الذوق الشبابي... في أغنية (من غير ليه) ....
علي ابن حسن الشاعر... شاعر ....
فرائد الدكتور عبد العزيز شرف... والكاتبة انتصار العقيل ....
أن تكون موجوداً... لا يعني أنك موجود ....
الإعلام العربي وراء الأسوار ....
جورج أورويل... والعالم عام ....
الإيجاز... مطلب الإعلان ....
نموذج للفكر الإسلامي... والمفكر محمد صلاح الدين ....
مخارج... للإنقاذ والنجاة ....
حرب المخدرات... وبروتوكولات حكماء صهيون ....
الاستماع إلى الموسيقى... ومن غير ليه ....
النرجسية في توجهنا التراثي ....
برناردشو، وجائزة نوبل... والديناميت ....
دستور الحرية الشخصية في الإسلام ....
معرض المملكة بين الأمس واليوم ....
المملكة دولة متقدمة... في الطب والعلاج ....
وهيب بن زقر... والليدي تشاترلي ....
السيدة نوال السعداوي... والبيض الفاسد ....
أين يذهب... الذهب؟؟؟ ....
إنسان العالم العربي... ليس إنساناً ....
منتهى الهدوء ـ لشريفة الشعلان ....
مشكلة البشر... مع الغذاء ....
الرايخ الرابع ....

أوروبا جديدة. . . لا تحتاج أميركا ....
المجهول في محاضرة الغذامي. . . ظل مجهولا ....
علاقتي بالفضاء ....
فرق بين تحريك الصخور. . . وإثارة التراب ....
موقف العرب والمسلمين. . . من المتغيرات حولنا ....
نحن، والمتغيّرات من حولنا ....
صرخة الابنة ـ نوال سعد صالح السيف ....
مفهوم التفوق في التعليم؟؟؟ ....
الزيدان. . . لن يتقاعد ....
الموقف المفقود. . . في مواجهة تحديات العدو ....
الأستاذ عبد الغني قستي ....
كتب حكم لها الزمن ....
زمان الغير. . . ومفهوم التقاعد ....
أن تكون فلسطين أو لا تكون ....
في أجواء هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين (١) التلمود ....
حقيقة عن يهود الاتحاد السوفيتي ....
ورحل إحسان عبد القدوس ....
زرع التقنية في الإنسان السعودي ....
قرارات بصفة المبدع. . . إبداع ....
عروبة مضيق باب المندب ....
في أجواء هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين ....
في أجواء هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين بروتوكولات حكماء صهيون ......
أيام الجنادريّة (١) ....
أيام الجنادرية (٢) ....
أيام الجنادرية (٣) ....

الانتفاضة هي الحل ....
الفردوس الموعود. . . مفقود ....
مصير الانتفاضة على عواتق الدول العربية ....
تصريحات جورباتشوف ....
لعبة تزوير التاريخ ....
عن ذكريات ريتشارد نيكسن ....
موقف عربي موحّد لمساندة العراق ....
البحر الأحمر، بحيرة عربية ....
نظرة الفنّان أحياناً؟ !...
الزحام. . . وطريق إلى المجد ....
هوى النفس ....
العلاقة العضوية. . . بينهما ....
حسن الخط ـ والآلة الكاتبة ....
الاستجابة لمشاعر الحنين ....
القوة الأعظم. . . ومفهوم الحضارة ....
علّقها على شفتيك ....
ضوء في السبيل إلى الحضارة ....
مستقبلنا مع (زهرة الأرض) ....
وقفة مع العيد ....
حسابنا مع الحياة ....
الحرية في كلمة التوحيد ....
عندما يكون الثناء على (سين) ماسّا بجهود (صاد) ....
جهيّر المساعيد ـ ومعايشة هموم المرأة العاملة ....
بناء قواعد السلوك في تربية الأطفال ....
قمة بغداد. . . والمجزرة ....

الأطفال. . . ولغة الكاريكاتير ....
بين الموروث. . . والجديد ....
تكنولوجيا معايشة الراحلين ....
شامير. . . أمام المحاكم المصرية ....
وقفة مع سيد قطب. . . في كتابه معالم في الطريق ....
نُسخٌ أتاحتها الطفرة ....
الكفاءات المجمّدة ....
الاعتراف بالسلبيات، وشرح القصور ....
النخلة. . . أي بني (١) ....
النخلة. . . أي بني (٢) ....
النخلة. . . أي بني (٣) ....
الدكتور عبد الجليل طاشكندي. . . مركز معلومات ....
غياب الاستراتيجية العربية ....
ثالث الحرمين الشريفين ....
معنى الإرهاب عند أميركا ....
في أجواء العدوان ....
سنضربه كلنا ....
مقاومة إخماد الانتفاضة ....
ومرّ يوم عرفات العظيم ....
يوم عرفات ....
لا جمر في عظامنا. . . ولا رماد ....
ممارسة السلوكيات المرفوضة ....
فهرس المحتويات ....

النثـر

مع الحياة ومنها

«مقالات كُتِبت بين عامي ١٤٠٩ ـ ١٤١٠هـ»

المتغيرات في إدمان تعاطي المخدرات

(١)

مما قد يذهل قراء ما أكتبه اليوم، إن ما أخذ يظهر هذه الأيّام، وينمو فيبلغ حد هدير العاصفة، أو الزلازل والبراكين في مجتمعات العالم العربي بخاصة، والعالم بعامة عن تعاطي المخدرات بأنواعها (ومنها الكوكائين والهيروئين) ليس... ليس جديداً... وليس في مجتمعات اليوم فقط، وإنما في هذه المجتمعات على مستوى العالم تقريباً طوال قرون وقرون من تاريخ الإنسان على هذه الأرض.

الجديد ـ ربّما ـ هو شدة الإقبال على التعاطي، وانتشاره بين جميع طبقات المجتمع، غنيّها وفقيرِها... وجهائها وعامتها... مما أغرى الاتّجار بها والتماس سبل الثراء الفاحش في هذا الاتّجار، بدءاً من الاستيراد تهريباً فيه عنصر المخاطرة بالأرواح والمستقبل المظلم في زنزانات السجون، بل وحتى الإعدام، وانتهاء عند التوزيع يقوم به الصبية والأطفال في الأزقة ومنعطفاتها، إضافة إلى ما يسمّى (الغرزة) التي تطورت من مواقع منحطة ومشبوهة لا ترتادها إلاّ نوعيات ينطبق عليها وصف (قاع المجتمع) من البشر إلى الشقق والدارات أو حتى القصور، في أرقى

الأحياء يرتادها الأثرياء والوجهاء، ويديرها متخصّص خبير، تلتف حوله وتأتمر بتوجيهاته، عصابة قد تكون شبكةً واسعة النطاق، تهيمن على السوق، من استدراج الزبائن، إلى استشعار الأخطار عن بعد وفي الخفاء، يعجز عن الإطباق عليهم الأمن ورجال المكافحة والمقاومة، إلاّ بالكثير والدقيق من الخبرة والذكاء مع المواجهة المحفوفة بخطر الموت.

ولأذكر بهذه المناسبة ـ وقبل العودة إلى تاريخ علاقة الإنسان بهذه المخدرات ـ إني عشت في الهند ـ وفي عاصمتها دلهي الجديدة ـ فترة تقرب من عامين. وكان بعض زملائي في القسم العربي من إذاعات الهند، ممّن لا تطيب لهم الحياة أو العمل إلاّ بتدخين الحشيش و(استحلاب) الأفيون... فكانت سعادتهم بالغة، إلى حد أن بعضهم خطط للبقاء في الهند طول العمر، لأنها ـ على حد قوله ـ الجنة، التي لا يجد لها مثيلاً في البلد الذي استُقدم منه، ولا في أي بلد آخر... والسبب هو أن هذا الحشيش هناك يباع (علناً) وبثمن زهيد جداً، إذ لم تكن قيمة ما يقرب وزنه من الكيلو جرام أكثر من ستين روبية هندية... والأفيون لا تزيد قيمة (الأوقية) منه على ثلاثين روبية. وهو بهذا يعتبر أغلى من الحشيش، ولكن الذين يستعملونه يكتفون بقطعة صغيرة توضع في الفم و(تستحلب) وهي تكفي من يستعملها طوال ساعات العمل.

وأذكر أني ـ في الأيام الأولى من عملي مع هؤلاء الزملاء ـ أبديت شيئاً من الاشمئزاز أو الضيق، الذي يثير بينهم عاصفة من الضحك، ولذلك فقد نبّهني رئيس القسم وهو من مسيحيي العراق، إن أفضل ما نلجأ إليه، هو مغادرة الغرفة حين تنعقد سحب دخان الحشيش الذي يدخّنه الزملاء، وهو شخصياً لا يجد بدًّا من الخروج أيضاً، والسبب أن هذه

السحب من الدخان يمكن أن تستدرج إلى الرغبة في ممارسة التدخين. وكان الزملاء ـ سامحهم الله ـ يلاحقوننا بعاصفة الضحك، ولكنهم يحترمون موقفنا، فيفتحون النوافذ، ويقلّلون من التدخين (الجماعي).

ومفهوم بالطبع، أن الحشيش الذي يباع علناً وبهذا الثمن الزهيد، يمكن أن يستعمل علناً، في المكتب وفي الشارع، لأنه غير محرّم أو ممنوع. . .

تلك صورة لما شاهدته بنفسي في الهند قبل ما يقرب من أربعين سنة ولا أدري إن كانت لا تزال الحال على ما كان عليه حتى اليوم. ولكن من الحقائق بالنسبة للهند أنها البلد الذي عرف زراعة الحشيش وتداوله أو استعماله ومن ثم تصديره إلى العالم، منذ قرون وقرون. والحال نفسه معروف في إيران،إذ لم يكن فيها قانون يحرّم زراعة الحشيش الأفيون وقد كان يجاورنا في السكن في الهند عائلة إيرانية سمعنا منها أن تعاطي الحشيش والأفيون في إيران أمر طبيعي جداً لا يختلف عن الأكل والشرب. . . بحيث لا يكاد يوجد إيراني في الريف على الأخص ـ لا يتعاطى استحلاب الأفيون، أو تدخين الحشيش.

والحشيش هو الذي يحمل اسماً علمياً هو: (كنّابي سينديكا) وباللغة العربية (القنّب الهندي)، وقد عرفه الإنسان منذ أقدم العصور، واستعمله (للكيف) كما استعمله للعلاج. وأهم البلدان التي تزرع الحشيش وتصدره اليوم (للأغراض الطبية)، الاتحاد السوفييتي، وإيطاليا، وبولندة، وإيران، وتركيا وباكستان. . . وقد انتشرت زراعته وتصديره بكميات هائلة في بلدان أمريكا اللاتينية، والسوق الرائجة له تحت اسم (ماريوانا) هي الولايات المتحدة الأمريكية. . .

وفي التاريخ، أن الفاطميين، هم الذين روّجوا لاستعماله وانتشاره في مصر بخاصة وفي البلدان التي بسطوا عليها ظل حكمهم بعامة. . . ومن أعجب أحداث التاريخ أنهم حكموا المغرب العربي ومنه الجزائر وتونس وطرابلس وبرقة، ثم (صقلية)، وفي عهد المعز لدين الله تم لهم فتح مصر بقيادة (جوهر الصقلي)، ومنها استولوا على بلاد سورية وفلسطين وغيرهما من البلاد العربية، إلى حدود تركيا، ومعلوم أن الفاطميين كانوا يعتنقون المذهب الشيعي وإذا لم ننس أن منطلق المذاهب الشيعية على اختلافها كان من فارس، فمن منطق الأشياء أن تكون إيران، هي مصدر الترويج للحشيش في مصر وفي غيرها من البلدان التي أُخضعت للحكم الفاطمي الشيعي.

ومن طوائف الفاطميين الشيعة، تلك الطائفة التي عرفت في التاريخ باسم الحشاشين وكذلك باسم (الإسماعيلية). . . والحديث عنها يطول، ولكن أهم ما له علاقة بهذه الكلمة أنهم كانوا يدرّبون من يسمون (الفدائيين) منهم على أعمال الاغتيال. . . ويوهمون هؤلاء بأن مصيرهم إلى «جنّة» أقاموها هم في داخل حصن جبلي، يدخلون إليها من يُهيأ للفداء، بعد أن يُشبعوه من الحشيش تدخيناً أو أكلاً. . . وكان ما سمّوه «الجنة»، رياضاً غنّاء تفوق الوصف جمالاً. . . وفيها يجد هذا المخلوق فرصته في ممارسة كل ما تصبو إليه نفسه من الملاذ الجنسية أو الحسية. وكانت دعوتهم، إلى معتقد محفوف بالكثير من الأسرار، ولكنه من معتقدات (الشيعة الباطنية). والعجيب، أن هذا المذهب من مذاهب الشيعة الباطنية، لا يزال قائماً و(الأغاخان) الذي يوزن بالذهب والجوهر، كلّما بلغ مرحلة من العمر، هو زعيم الطائفة التي يتواجد أتباعها في إيران، وسورية، وتركيا، ومصر، والهند، وباكستان وهم لا يزالون يعتمدون على (الحشيش) في محاولة نشر معتقدهم حتى اليوم.

المتغيرات في إدمان تعاطي المخدرات

(٢)

وما يبدو لي طارئاً يستوقف، ويستلزم شيئاً من إمعان التفكير في الأسباب التي جعلت العالم يشن حرباً لا هوادة فيها على الحشيش، هو هذا الالتفات الحاد والمكثف إلى هذا (المخدّر) ـ وعلى مستوى دولي ـ ومقاومة تعاطيه والاتجار به إلى آخر ما لا يزال يتلاحق من قوانين التحريم، مع أنه ليس جديداً بأي مقياس... وإذا كان مباحاً في الهند منذ أربعين عاماً كما ذكرت في المقال السابق، فإنّه لم يكن مباحاً في مصر وغيرها من بلدان العالم العربي، ولكن لم تكن مقاومة استيراده، وتعاطيه والاتجار به بهذه الشّدة التي نتسامع بها ونقرأ أخبارها في هذه الأيام. بل قد أذهب إلى حد التذكير، بأن سهرات ليالي أم كلثوم في الأندية، والمقاهي ذات المستوى المرموق، في القاهرة، كانت لا تطيب للساهرين إلاّ بتدخين الحشيش،... وقد لا تخونني الذاكرة إذا زعمت أن بعض العلماء من الأزهر، قد أفتى بإباحته، لأنّه لا يختلف عن (الطباق) الذي تباع السجائر منه وتدخّن علناً دون أي حظر. بل أذكر ما هو أغرب من ذلك، إذ نشرت مجلة (تايم) أو (نيوزويك) تحقيقاً عن (المريوانا) التي

كان تعاطيها ينتشر على نطاق واسع في الولايات المتحدة، وكان من أغرب ما جاء في هذا التحقيق أن بعض أكابر العلماء الأكاديميين والأخصائيين قد دعا إلى إباحتها وكان من آرائهم، أنها أخف ضرراً وتأثيراً على (أجهزة معيّنة في جسم الإنسان كالكبد والمخ) من الخمر التي لا يُحرّم تعاطيها، والاتجار بها أي قانون في أمريكا. وقد أضاف أحد هؤلاء العلماء، أن المقاومة، والتحريم، وما يستتبعه من ملاحقة وعقوبات كثيراً ما يكون السبب المباشر في شدّة الإقبال على تدخينها، وعلى الأخص بين المراهقين... وهناك من علّل لشدة الإقبال وانتشار التعاطي، بين الشباب، بل وبين بعض الراشدين، تلك الضغوط النفسية التي يعانيها الناس نتيجة للمخاوف والرهبة من خطر الحرب الذرّية المحتملة إلى جانب ما يزدحم به المجتمع من متناقضات لها إفرازاتها على الأعصاب، ومنها (القلق) و(الاكتئاب) إلى غير ذلك من المعاناة التي تحتاج ـ في تقديرهم ـ إلى ما يخفف من تأثيرها، إضافة إلى أن الخمور المباحة دون قيد أو شرط، مادة تثير العنف والشاهد هو حوادث الشجار في الشوارع والحانات التي تصل أحياناً إلى حد ارتكاب جرائم القتل، وليس في تعاطي (الحشيش ـ أو الماريوانا) شيء من ذلك، لأن التأثير المباشر هو التخدير، وليس التنشيط أو الإثارة والانفعال، والغالب على الذين يتعاطونه الخوف البالغ والفزع حتى من أقل ضجة مفاجئة.

وبطبيعة الحال، لم تلتفت السلطات في أمريكا لأيٍ من هذه الآراء، وظلّت (المريوانا) تقاوم، ولكن المقاومة لم تكن تصل إلى حد العقوبات القاسية بالنسبة للمتعاطين وإذا صدق من حدّثني عن انتشار تدخين وتعاطي هذه المادة هذه الأيام، فإن نظرة السلطات إليها فيها نوع من الأغضاء، إلا، بالنسبة لاستيرادها والاتجار بها، فالمقاومة والعقوبات الصارمة لا

هوادة فيهما. . . ولعل هذا يفسّر، أن أخبار الحرب القائمة الآن، ليس بينها ما يذكر عن (المريوانا)، وأن المافيا الرهيبة التي ارتكبت جرائم اغتيال القضاة، والمسؤولين في أمريكا اللاتينية، والتي تملك أسطولاً ضخماً من الطائرات الخاصة، إلى جانب العناصر المسلّحة والمدرّبة على المواجهة بينها وبين السلطات، تمارس تهريب مادّتي الكوكائين والهيروئين بعد إنتاجهما في مصانعها على أوسع وأضخم نطاق. وهما في الواقع ما أصبح معروفاً كخطر يداهم البشر في العالم، وهما اللتان ينطبق عليهما اسم (السموم البيضاء).

ومن المتغيرات في إدمان تعاطي المخدرات، بعد الحشيش الذي أشعر أني قد أطلت على القارئ الكلام عنه، مادة الكوكائين التي قد يعجب القارئ حين يعلم أنها هي أيضاً ليست جديدة، وفي مصر بالذات، إذ نجد في خطاب وزير الداخلية في مصر الذي وجّهه إلى رئيس تحرير جريدة الأهرام، ونشر في ١٩٨٩/٨/٢٥م، أي منذ أيام فقط، ما كشف عن أن هذا الكوكائين. . . قد عرف في مصر منذ عام ١٩٢٤م. يقول وزير الداخلية في هذه الرسالة (أول نداء نبّه المصريين إلى خطر المخدرات نشرته الأهرام بتاريخ ١٥ سبتمبر عام ١٩٢٤م وجاء فيه على لسان حكمدار بوليس مدينة القاهرة آنذاك «إن الأمة المصرية سائرة إلى التهلكة من جراء تعاطي الكوكائين. . . من في القاهرة لا يعرف عشرات الشبان الذين قضى عليهم الكوكايين صحياً أو أدبياً»).

وقد يكون من الطريف أن نذكر أن الموسيقار الذي ترك تراثاً ضخماً من الأغاني من تلحينه وغنائه، وهو (سيد درويش) قد غنى كلمات تقول (شم الكوكايين. . . خلاني مسكين. . . ومناخيري تزن ودماغي طنين)

واذكر أن الأغنية وصلت إلى المدينة المنورة في أسطوانات تلك الأيام، من مصر، وقد يضحك القارئ إذا قلت له إني حفظت هذه الأغنية في أيام طفولتي اللاهية، وظللت عمراً، لا أدري ما هذا الكوكايين... إلى أن سمعت من زوج أمي، والرجل الذي ربّاني فأحسن تربيتي، وكان دكتوراً في الصيدلة... سمعت أنه مادة تستخرج من نبات اسمه (كوكا)... يزرع في أفريقيا وأن هذه المادة سم خطير حمد الله على أنه، لا وجود له في المدينة، ونصحني أن أتجنّبه طول العمر، وقد كان.

وتقول المراجع الموسوعية، إنه: (كلوريدرات أوراق الكوكا) يستعمل في الطب كمخدر موضعي، وأن استعماله بجرعات صغيرة يحدث تنبهاً وزيادة في النشاط الجسماني. ولكنه من المواد التي تحدث عادة الإدمان. واستمرار استعماله يؤدي إلى خمول في الجهاز العصبي يؤدي إلى الجنون. وقد حلت الآن محله مواد أخرى للتخدير الموضعي، وأصبح من المواد التي تطبّق عليها قوانين خاصة.

ولا أدري الآن، علاقة (الكوكا) وهي تلك الأوراق، التي يستخرج منها هذا السم الخطير، بالمشروب المرطّب الذي تنفق الولايات المتحدة على الإعلان عنه بلايين الدولارات وقد لا يوجد بلد في العالم، يخلو من (الكوكا كولا)، إلى أن بلغ الدولة أن الشركة التي تصدره، قد أقامت لها مصنعاً في إسرائيل، فصدر الأمر بمنع صنعه أو تعبئته عندنا، بمقتضى قرارات مقاطعة إسرائيل ومنتجاتها، فأخذت الشركة التي تعبّئه، تستمر في تعبئته، ولكن تحت اسم (كعكي كولا)... ولعله لا يزال يباع ويشرب، تحت هذا الاسم حتى اليوم.

أما الهيروئين، فهو من مشتقات الأفيون، ومن هذه المشتقات

المورفين وهو المخدر المعروف الذي لا يزال يعتمد عليه في التخدير لإجراء العمليات الجراحية، وكذلك لتسكين الآلام الرهيبة التي يعانيها المصابون بالسرطان، أو الفشل الكلوي، الخ. . . ومن العجيب، أن العلم لم يصل بعد إلى تفاعل هذه المخدرات مع الجملة العصبية والمخ.

ولكن ما هو الطارئ الجديد، الذي جعل جميع الدول في العالم تقاوم هذه السموم مع أنها كانت معروفة طوال قرون. . . إذ ليس من يجهل أن الأفيون على الأخص، يزرع في كثير من بلدان العالم، ومنها تلك التي سبق ذكرها. كالهند، وإيران وتركيا.

أعتقد أن السبب الظاهر والمباشر، هو شدة الإقبال على تعاطيها، بحيث بلغ عدد المدمنين على الهيروئين والكوكائين في الولايات المتحدة أكثر من عشرين مليوناً وتلك نسبة عالية ومخيفة بكل مقياس، ولا بد أن لا يقل عدد المصابين بالإدمان على هذه السموم في مختلف بلدان العالم عن ملايين أخرى في كل بلد. وشدة الإقبال بهذا المستوى تستتبع بطبيعة الحال وتضخّم أعداد عصابات أو «مافيا» الإتجار، وبكميات مذهلة تجاوزت مئات الأطنان، تتسرّب أو تهرّب، بمختلف الوسائل إلى مختلف بلدان العالم، وقد تطورت هذه الوسائل بحيث بلغت حد المواجهة المسلّحة بين السلطات، وعناصر هذه «المافيا» بل بلغت حد الاستهتار بالسلطة وقواتها، فتتكرر حوادث اغتيال القضاة، وكبار المسؤولين عن قوات الأمن والمقاومة، كما يحدث في كولومبيا، التي شهدنا على الشاشة ذلك الأسطول الضخم من الطائرات الخاصة التي تملكها عناصر المافيا، أو كما أصبحوا يسمّون: (ملوك تهريب المخدرات)، وإلى جانب الطائرات أنواع الأسلحة، في أيدي قوات مسلّحة تمارس الدفاع عن مواقعها ومعامل

الإنتاج، بالأطنان، وتلك الملايين أو عشرات الملايين من الدولارات، التي ضبطت، وكانت في طريقها إلى البنوك...

ومع أن جميع الدول، بل وحتى الأمم المتحدة، أصبحت كلها تتعاون على المقاومة ولا يدري أحد، إلى ماذا سوف ينتهي هذا الصراع الدموي بين الدول، والمهربين، بل متى يمكن أن يقف هذا الإقبال على التعاطي والإدمان، فإن ما أعتقد أنه المطلب الجوهري، في مواجهة الكارثة، هو معرفة الأسباب التي تدفع الناس إلى هذا الإقبال الرهيب على الإدمان.

علماء النفس، وعلماء الاجتماع، ورجال السياسة، والقيادات المسؤولة في كل بلد يعاني من هذه الكارثة، مطالبون بأن يكتشفوا هذه الأسباب، وأن يعملوا على علاجها، إلى جانب المقاومة المسلّحة، والعقوبات الصارمة.

إن الملايين من البشر، حين يتزايد إقبالها على المخدرات، ومن ثم إدمانها، لا بد أن تكون خاضعة لمعاناة أو ضغوط، هي التي تجعلهم يبحثون عمّا يتوهمون أنه يخفف من معاناتهم أو ثقل الضغوط التي تفترس نفوسهم وأعصابهم... فما هي هذه المعاناة وما هي هذه الضغوط... وما هي السبل التي يمكن أن نلجأ إليها، كبديل للمخدرات.

سؤال يظل مطروحاً، إلى جانب الاستمرار في المقاومة وشدة العقاب.

غرابيل الزيدان. . . وخروجه من شرنقة الرافعي

أما غرابيل الأستاذ الصديق، الذي أعفي نفسي، من إضافة أوصاف أستاذيته الضخمة مكتفياً بأنّه (الزيدان)، الذي استبعد أن يوجد قارئ في المملكة ـ مجرد قارئ ـ لا يضيف إلى اسمه، العديد والمتنوع من أوصاف هذه الأستاذية الموسوعية التي قد لا أسرف إذا قلت إنها تُشبه الموسوعات الكبرى، التي تقدم للقارئ، إضافة إلى المعلومات المُوَثَّقة في أكثر من عشرين مجلداً ضخماً، ملاحقَ سنوية عمّا جدَّ على معلومات سبق رصدها أو ما شحَّ به الفكر، خلال العام من عطاء لم يسبق أن عرف فَرُصد، في العلوم والفنون والآداب، بل وفي المتغيرات السياسية والاقتصادية التي لم تعد تتوقّف عند حد. . . وأنا موقن بأني لا أسرف في تقرير حقيقة هذه الأستاذية الموسوعية، لأن الأستاذ محمد حسين زيدان، قادر على إقناع قارئه، بأن ما تختزنه ذاكرته المشعّة، هو الجديد الذي ـ ربّما ـ لم يسبق للقارئ أن عرف شيئاً عنه، رغم سعة اطلاعه طوال عمره الثقافي، ولا أشك في أن ذاكرته، تضيف الكثير إلى مخزونها القديم، من جديد هذه الأيام، وليس عن المتغيرات الطارئة على الساحة الدولية فقط، وإنما أيضاً وبدقة مذهلة عن هذه الفتوح في الفلك، التي توافينا بها هذه المركبة الأسطورية التي أطلقت إلى الفضاء منذ اثنتي عشرة سنة، لم تتوقّف خلالها عن إرسال الألوف أو هي الملايين من مشاهداتها في هذا الفضاء

اللامتناهي، إلى الأرض... أعني إلى الذين أطلقوها وما زالوا يتابعون مسارها وسيرها ومشاهداتها... كلنا نسمع هذه الأخبار، أو نشاهدها على شاشة التلفزيون، ولكن الزيدان يتميّز عنا، بأنّه يحتفظ بالخلفية الموسّعة في علم الفلك، فما أكثر ما يدرك من الخبر، وما أدق ما يستنبطه منه، فإذا حدّثك عن «نبتون»، أو عن الأقمار التي اكتشفتها (فوييجر)، فإنّه يشبعك ـ إذا شئت ـ معلوماتٍ تجعلك تتساءل: (كيف...؟؟ ومتى أتيح للزيدان، أن يعرف كل هذا الذي لا يعرفه إلا أكابر المثقفين، ولا أقول (العلماء)، إذ ليس الزيدان من العلماء في الفلك، ولكنّه المثقف، الذي لا يرضى بالقطرة أو القطرات مما يقرأ ويسمع، بل يحرص على أن يتضلّع، ما دام السبيل متاحاً إلى المزيد من الارتواء.

في آخر ما قرأته من غرابيله، هذه الأبيات من الشعر التي نسبها إلى (الكاتب العربي الشاعر «أديب إسحاق»)... وقد وجدت نفسي أتساءل: كيف لم أسمع باسم أديب إسحاق هذا، مع أني أحفظ له البيتين، اللذين ربّما يحفظهما الكثيرون غيري وهما:

قَتلُ امرئ في غابةٍ ... جريمةٌ لا تغتفر

وقَتلُ شعبٍ آمنٍ ... مسألة فيها نظر

وأصارع القارئ أني كنت إلى اليوم الذي قرأت فيه غرابيل الزيدان في جريدة الرياض أحفظ البيتين، لنسيب عريضة، أو جبران خليل جبران، وهما من أوائل من قرأنا لهم في الفترة من أيام الصبا، التي اهتزت فيها نفوسنا لسحر الكلمة... أو هو سحر البيان.

والأستاذ الزيدان يتحفنا ببيتين ينسبهما إلى أديب إسحاق أيضاً، ويصنّفهما كترجمة لمقولة (فتش عن المرأة)، التي يفاجئنا الأستاذ، بأن

الذي قالها هو «نابوليون بونابرت»... وهذه عجيبة أخرى من عجائب ذاكرتي (المنفلتة). وذاكرة الزيدان التي تحفظ وتعي وتختزن ما لا يخطر على بال... إذ إن (فتش عن المرأة) هذه نرددها أو نسمعها عشرات المرات، ولم يحدث أن عنينا بأن نعرف قائلَها إلى أن جاءنا بها الزيدان «بنتَ شفة» الأمبراطور الذي دوّخ أوروبا، ثم انحدر إلى ذلة الأسر والسبب (جوزيفين) التي دوّخته فقال تلك الكلمة التي ترجمها أديب إسحاق في بيتين من الشعر:

إذا رأيتَ أموراً منها الفؤاد تَفَتّتْ

فتش عليها، تجدها من النساءِ تأتّتْ

أما عن خروج الزيدان من شرنقة الرافعي، فذلك ما قاله الأستاذ عبد الله عبد الجبار في تقديمه لكتاب الكاتبة الأستاذة (انتصار العقيل)، الذي منحته عنواناً فيه من رقة الإبداع بقدر ما فيه من القدرة على استيقاف ذهن القارئ، ليجد نفسه مبحراً في غياهب محيط، من الأحلام والرؤى والرغبات، يراها في الموانئ هنا وهناك، ولكنها (بلا أرصفة) فلا سبيل إلى الرسوّ وطي الشراع.

يقول الأستاذ عبد الله عبد الجبار، (حينما يُذكر الرافعي في بلادنا سرعان ما يثب إلى الأذهان «محمد حسين زيدان»، هذا الاسم المدوّى في الإذاعة والصحافة والتلفاز). ثم يقول عنه: (لقد عشق الرافعي وتأثر به... علّمه الرافعي أن يعشق الكلمة ويطرب لجَرْسها. ويستشهد الأستاذ عبد الله عبد الجبار، على تعشّق أو تأثر الزيدان بالرافعي بما قاله الأستاذ الزيدان نفسه من كتابه (خواطر مجنّحة). إذ قال: (إن الرافعي وأمثاله يُقرأون بالأُذُن، فالجرس هو عطاء التفهم لفهم الكلام). ثم يضيف الأستاذ

عبد الله: الجملة المموسقة أو العناية بالتنغيم ميزة واضحة في أدب الزيدان... لكنها ليست كل شيء، فهناك الأفكار المحلّقة والخواطر المجنحة... الفكر والخيال معاً في إيجاز.

ثم ينهي الأستاذ عبد الله وقفته القصيرة مع إبداع الزيدان فيما يكتب أو يذيع ليقول: (منذ عهد بعيد استطال الزيدان وأضحى ينشُر علينا «حريره» الأدبي الخاص، ولم يعد (دودة القز) التي خرجت من شرنقة الرافعي).

وعلاقة أدباء جيلنا بالرافعي رحمه الله، صاحبت غرامه بالآنسة (مي) الذي كنا نتسامع عنها وعنه، وقد نحاول أن نتتبع أخبارها، وأخبار الكثيرين غير الرافعي الذين قيل إنهم عشقوها، فكانوا يحرصون على أن يكونوا بين يديها في صالونها في القاهرة ـ ولعله أول صالون من نوعه حتى اليوم ـ وعندما صدر للرافعي كتابه (أوراق الورد) أذكر كيف تهافتنا على الحصول على نسخة منه... وعكفنا نقرأ... ونلمس الفرق الكبير بين الكثير مما ينشر من شعر شعراء «أبولو»، وبين هذا النثر للرافعي... أذكر أني ظللت أقول: (إنه مهندس الكلمة). في ذلك الكتاب، ثم في كتبه الأخرى التي عكفنا على دراستها.

ولكن حكاية أن الزيدان «قد خرج من شرنقة الرافعي»، مسألة فيها نظر... إذ أكاد لا أرى أثر الرافعي فيما أقرؤه للزيدان... ولعل ذلك، لأنه كما قال الأستاذ عبد الله ينشر علينا «حريره» الخاص... فلم يعد دودة القز التي خرجت من شرنقة الرافعي.

والكلمة الفصل الآن... للأستاذ محمد حسين زيدان.

لهجة الحجاز ـ سيدة اللهجات العامّية

وهذا ما وجدت نفسي أقرره كحقيقة يغفل عنها الذين تخطر لهم معالجة موضوع اختلاف اللهجات العامّية ـ أو هي الشعبية ـ في بلدان العالم العربي. والذي أثار عندي الرغبة في المشاركة في هذه المعالجة، هو الأستاذ علي خالد الغامدي الذي قرأت له في أعمدة الأيام السبعة في جريدة الرياض، تعليقاً على كلمة الأستاذ ضياء الدين بيبرس في مجلة الكواكب المصرية، الذي يقول الأستاذ علي خالد الغامدي إنه تناول فيه موضوع اللهجات المشرقية والمغربية والخليجية... واعتبر اللهجة المصرية (سيدة اللهجات) ونادى باعتمادها في ظل غموض و(ألغاز) اللهجات العربية الأخرى.

ومع رشاقة ولباقة تعليق الأستاذ علي خالد الغامدي، وما فيه من نكهة الدعابة، قد بد لي كأنه يذهب إلى ما يشبه التسليم أو الموافقة بغموض اللهجات على مقولة الأستاذ بيبرس، إلى جانب ما يكاد يكون موافقة أيضاً على أن اللهجة المصرية هي سيدة اللهجات.

وتخونني الذاكرة للأسف، فلا أستطيع أن أذكر متى وفي أي صحيفة كتبت منذ أكثر من خمسة عشر عاماً أن اللهجة الحجازية ـ وأعني لهجة حواضر الحجاز الكبرى، وهي مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وينبع

والطائف، هي سيدة اللهجات العربية على الإطلاق. وليس ذلك فقط لخلوّها من الغموض والألغاز التي يأخذها الأستاذ بيبرس على اللهجات المشرقية والمغربية والخليجية بل لأنها الوحيدة الخالية تماماً من سوءة تغيير مخارج الحروف هذا التغيير الذي تلتزمه اللهجة المصرية... وإني ليزحمني الضحك والسخرية حين أسمع (المثقفين) من إخواننا المصريين يبلغ بهم تغيير مخارج الحروف حد أن تسمعهم يقولون (الحئيئة) يريدون (الحقيقة) و(آرِب) يريدون (قارِب) و(الآضي) يريدون (القاضي) وهذا إلى جانب ما أسميه (الجيم المصرية) التي شد ما تضحكنا حين ينطقون (عبد الجواد) لنسمعها (عبد القواد)... ثم هذه (الشين) التي لا بد أن تدخل وتستعمر ما لا يحصى ولا يعد من الكلمات في كل حوار، بحيث نسمعها في قول أحدهم للآخر أو (الأخرى): (أنا ما شفتش حاجة) وليس أشهر من مسرحية عادل إمام (شاهد ما شفشي حاجة).

وتتميّز اللهجة الحجازية، بأنها خالية من سوءة تغيير مخارج الحروف باستثناء (القاف) التي تلفظ (جيماً مصرية) ولكنها تأتي مقبولة وأكثر قرباً من القاف في الفصحى، وكثيراً ما قلت، إن اللهجة في حواضر الحجاز، أقرب اللهجات العربية الدارجة إلى اللغة الفصحى، وبطبيعة الحال بدون الالتزام بقواعد النحو، «رفعاً ونصباً وجراً» الخ... إذ إن هذا الالتزام بالقواعد قد تلاشى، منذ قرون طويلة... وهناك قصص كثيرة أو أخبار تؤكد أن التحلُّلّ من التزامها قد بدأ في أوائل العصر العباسي.

وتتميّز اللهجة الحجازية، عن جميع اللهجات العربية بأنها خالية أيضاً مما أسمّيه (الإمالة) أو لعلّه (المد المائل) كاللهجة السورية ـ وعلى الأخص منها لهجة أهل دمشق ـ ومثلها اللهجة اللبنانية، وإلى حد، اللهجة

الفلسطينية والأردنية. كما قد ينبغي أن نذكر القارئ، بالرّقة التي تتميّز بها اللهجة الحجازية إذا ما قورنت بلهجات عربية، تغلب عليها الخشونة وما يقترب من معنى العنف، نتيجة لكثرة تردد حروف بعينها منها (القاف) أو (القاف) أيضاً التي تنقلب في لهجة إخواننا السودانيين (غينا).

ويتزايد اقتراب اللهجة الحجازية من الفصحى ـ باستثناء الالتزام بالقواعد ـ بعد أن كادت تمحي من اللهجة بعض الألفاظ التي خلّفها الحكم العثماني، إذ أصبح من النادر جداً أن تسمع (جي) التي تضاف على سبيل المثال ـ إلى كلمة (عربة) فيقال (عربجي) و(بوسطه) فيقال (بوسطه جي) و(بويه) فيقال (بويه جي)..

وكان ـ ولا يزال ـ لانتشار الصحف من جهة، وللإذاعة من جهة أخرى الفضل في تهذيب اللهجة الحجازية إلى حد يجعلك تتوهّم أحياناً أن الذين يتحاورون ـ وعلى الأخص من المثقفين يلتزمون الفصحى. إذ يندر أن تسمع إلا الألفاظ العربية المتداولة في المادة المقروءة.

وللتلفزيون تأثيره في تهذيب لغة الأطفال في سن الخامسة إلى السابعة، من الذين يلتزمون الصمت، حين يكون الوالد أو (الكبار) يشاهدون ويسمعون نشرات الأخبار أو أقوال الصحف، بحيث يدهشك أن تجد الصغيرة، تقول (أعتقد) و(أتوقّع) و(المنتظر) الخ...

وقد يستدرجنا الكلام عن اللهجة الحجازية، إلى أن نقف عند بعض المثقفين الذين يلقون حديثاً، أو (كلمة) في الإذاعة وفي التلفزيون... فهم يقرأونه من ورقة مكتوبة، ولكنهم يقعون في أخطاء رهيبة، ليس في التزام قواعد النحو فقط، وإنما في «نُطق» اللفظ العربي... ولكن خطر لي أن أنصح هؤلاء بأن يستغنوا عن قراءة النص المكتوب، وأن يلقوا الحديث

باللهجة الدارجة، ليجنّبوا أنفسهم الوقوع في تلك الأخطاء المخزية ولا نحتاج أن نذكر أن السبب في هذا الضعف الملحوظ على المثقفين في اللغة العربية هو ضعف وهزال مناهج اللغة العربية ـ ومنها القواعد ـ أو أنه ضعف المدرّس، أو كلاهما معاً، وإلا كيف يمكن أن نتقبّل خرّيجاً جامعياً يحمل مؤهّل الماجستير، يتعثّر في إلقاء كلمة. وفي «نطق» لفظٍ عربي، ويقع في أخطاء إملائية مخجلة إذا كتب رسالة قصيرة قد لا تزيد على أربعة سطور. . . وقد لا يكون مما يستسيغه قارئ هذه الكلمة، أن أدخل في تفاصيل رأي سبق أن طرحته، عن الطريقة المثلى للخلاص من هذه العاهة، ونحن أبناء الأرض التي نزل فيها الوحي، وفاحت من أرجائها عطور أئمة اللغة العربية، رواة أحاديث رسول الله صلوات الله عليه. قد يحسن أن أترك ذلك، لكلمة أخرى تستوعب تلك التفاصيل.

أمّا الأستاذ علي خالد الغامدي، الذي كان له الفضل في التنبيه إلى موضوع اللهجات، الشرقية والمغربية والخليجية، فأني أنتظر أن يدعو إلى اللهجة الحجازية وأن يؤكد للأستاذ بيبرس، أنها هي وحدها سيدة اللهجات.

التجنيد سبيل ترسيخ الانتماء إلى الأرض

قضية الانتماء إلى الأرض واحدة من أشد القضايا إلحاحاً، وأبعدها أثراً في حياة إنسان هذه المملكة. . . وأنا أقول الانتماء إلى (الأرض)، وأعني بالطبع كامل أرض المملكة العربية السعودية كما جمع أشتاتها، أو مناطقها أو أطرافها البعيدة والقريبة، وسكّانها جلالة المغفور له الملك عبد العزيز يرحمه الله.

والانتماء إلى (الأرض) بمفهومها العريض لا يتعارض أو يرفض الانتماء إلى مسقط الرأس في هذه الأرض، وليس في غيرها ـ إذ يحدث أن يكون مسقط رأس مواطن ما في غير أرض المملكة، نتيجة لظروف، منها أن تكون ولادته في بلد يعمل فيها الأب (السعودي) موظفاً أو سائحاً، أو متاجراً، مع زوجته التي تضع حملها في تلك الأرض ـ غير السعودية ـ فلا وجه هنا، لأن ينتمي هذا المواطن إلى الأرض التي كان فيها مسقط رأسه. قد يحدث أن يكون مسقط الرأس، في لندن مثلاً أو في روما أو في باريس، أو حتى في بانكوك، فلا وجه لانتماء المواطن، لهذه المدن أو غيرها. ومن هنا فإن اشتراط (المولد) اختياراً، بل كان اضطراراً يصل إلى معنى (القهر).

وحين أرى أن قضية الانتماء إلى (الأرض) من أشد القضايا إلحاحاً

وأبعدها أثراً في حياة إنسان هذه المملكة، فإني ألمح بكثير من الدهشة المتسائلة، ما لا يزال مقبولاً من انتساب الكثيرين من أبناء هذه الأرض إلى الأجناس، أو القبائل التي انحدّروا منها. إذ ما أكثر ما نسمع أو نقرأ، عن (فلان الكاشغري) أو (فلان الشنقيطي) إلى جانب (فلان الزهراني) أو (فلان المطيري). وقد أبيح لنفسي بهذه المناسبة، أن أذكر أني عرضت على جهات مسؤولة، في الدولة، اقتراحاً بمرسوم يقضي بأن تمتنع المدارس في جميع المراحل عن تسجيل أي (تلميذ) ينتسب إلى جنس من الأجناس أو قبيلة من القبائل. وأن يكتفي التسجيل بالاسم الرباعي فقط. وأعني (فلان ابن فلان ابن فلان الخ...) وتلك هي في تقديري إحدى الوسائل التي يمكن أن تنهي ظاهرة الانتماء إلى الجنس أو القبيلة... والسبب ـ بطبيعة الحال... هو أن هؤلاء جميعاً أبناء هذه الأرض، ولا يصح أن ينتسبوا أو ينتموا إلى أجزاء منها دون غيرها، أو إلى الأجناس أو الأصول التي انحدّروا منها.

وأعتقد أن ظاهرة انتساب المواطن إلى الجنس الذي انحدّر منه، أو إلى القبيلة أو العشيرة، ظاهرة قد لا نجدها إلاّ في بعض بلدان العالم العربي، وربما كانت من بقايا العهد العثماني، نظراً لتعدد أراضي الدولة وامتدادها من حدود أوروبا إلى مشارف المحيط الأطلنطي. وأكاد أرجّح أنها قد تلاشت في مصر، نتيجة لاعتماد قيد الموالين بالاسم الثلاثي فقط. أما في أميركا أو إنجلترا، أو غيرها من بلدان أوروبا فلا وجود لها، مع أن الأجناس التي يتكون منها الشعب الأمريكي تكاد لا تحصر أو تعد.

والتجنيد، في الدول التي تفرضه إجبارياً، حتى على خريجي الجامعات حين يُعد المواطن ويدرّبه على الدفاع عن الوطن، فإنّه طوال

المدة المقررة للجندية ـ ومنذ الصباح الباكر حتى ساعات النوم ـ لا يرى حوله إلا إخوانه، من الجنود، وليس في أذهانهم إلاّ أنهم مجندون للدفاع عن الوطن... والوطن هو كامل الأرض، بل هو كل ذرة من تراب هذه الأرض، فإذا أضفنا إلى ذلك، كلمات النشيد الوطني، والأناشيد الأخرى التي تعزفها موسيقى الجيش في الثكنة، وكلّها إشادة بأرض الوطن وتغَنٍ بواجب الدفاع عنه فإن كل ذلك وما يدخل في إطاره، يرسّخ الانتماء إلى الأرض، علاوة على أثره في شد بنية الفرد، وطرد كل نفايات الاسترخاء والكسل و(الدلع) عنه، ليخرج إلى الحياة بعد انتهاء المدة، مواطناً قادراً ومهيّأً، ومستعداً ليس فقط للدفاع عن الوطن، وإنما لخدمته والعمل على تقدّمه ونموّه، وإسعاده... إذ في ذلك إسعاد أبناء هذا الوطن على أوسع وأعم مفهوم.

بوتقة الصهر

ولا أظن أننا نحتاج إلى تعريف هذه البوتقة التي يستعين بها أصحاب مهنة معالجة المعادن لصهرها، بغرض تشكيلها أو مزج أنواعٍ منها بحيث يتاح لهم الحصول على تركيبة أو تراكيب معيّنة جديدة تحقق الأغراض الصناعية المتعددة.

ولكننا نحتاج إلى تعريف نوعٍ آخر مما يدخل في معنى (بوتقة الصهر)، وهو: (بوتقة صهر أبناء آدم وحواء، من جنسيات وأصول وأعراق مختلفة)... بحيث يكون حاصل عملية الصهر شعباً واحداً أو أمة واحدة تنتمي إلى دولة واحدة، بما لهذه الدولة من سيادة على الأرض، تدافع هذه الأمّة عن كل ذرّة رمل فيها، بل قد لا تتردد في الاشتراك في حروب، ضد دول بينها من انحدّر منها أولئك الذين عالجتهم بوتقة الصهر فأصبحوا أبناء تلك الدولة الواحدة.

والولايات المتحدة الأمريكية، تأتي في طليعة الدول التي استطاعت أن تصهر في كيانها الواحد عشرات الأجناس والأعراق، قد يكون الأوروبي في مقدّمتها، ولكن هناك غير الأوروبيين من أجناس الكرة الأرضية... وقد يذكر الذين عاشوا أيام الحرب العالمية الثانية، أن إيزينهاور، وهو ينحدر من جد ألماني، كان القائد المحارب الذي قاد قوات الحلفاء في

اقتحام أوروبا، إلى أن قضى على ألمانيا النازية بكل ما كان لها من قوة قاهرة وعنفوان كادت تسيطر على العالم، بما فيه إنجلترا، تلك الإمبراطورية التي لم تكن الشمس تغيب عن مستعمراتها.

وبهذه الذكرى في ذهني، حاورت أكثر من أمريكي، في العدد القليل من الولايات التي أتيح لي أن أتواجد فيها، ومنها جزر هاواي، «وهونولولو بالذات»، كيف يفسّر انتماءه إلى أميركا، وهو كما يبدو من أصل آسيوي، ومع من يقف أو يحارب، إذا حاربت أميركا الدولة التي انحدّر منها جدّه أو أبوه ـ مثلاً ـ وكان تفسيره العفوي الذي لا يتردد لحظة في الإفضاء به، أنه ينتمي إلى الدولة التي يرتفع على ساحلها المطل على المحيط الأطلنطي تمثالُ (الحرية). ثم يضيف، (أين في العالم، حرية كهذه التي تعيشها أميركا. . . ومن البديهي أنه يقف معها إذا حاربت الدولة التي جاء منها جدّه منذ أقل من مئة سنة. . . وهو يعلم أن جدّه إنما هاجر إلى أميركا أو لجأ إليها هرباً من الظلم والطغيان، والقهر والقمع والإرهاب).

ولم يكن تفسير سيدة ألمانية، لا تزال تتكلم اللغة الألمانية إلى جانب لغتها الإنجليزية بالطبع، بعيداً عن التفسير الذي سمعته من ذلك الآسيوي، وكانت (الحرية) بمفهومها الذي رسّخته عملية الصهر الدقيقة، هي الكلمة التي تتردد في حديثها الطويل الذي ظلت تقارن فيه بين مفهوم الحرية في أميركا، ومفهومها، في ألمانيا التي هاجر منها جدُّها وجدّتها ـ وهي على فكرة ليست يهودية ـ قالت: (كان في ألمانيا دستور، وقانون يقرر بعض حقوق الإنسان، ولكن كان هناك ـ في أيام الإمبراطورية الألمانية ـ ذلك الإقطاع الذي تتمتع به طائفة منه الملاّك، ينحني لها ويُسخّر لخدمتها

الجميع، تقريباً، وأضافت: (وكان اليهود في تلك الأيام هم الذين يسيطرون على سوق المال والتجارة، ولا يختلفون عن ملاّك الأرض من الإقطاعيين الكبار... وهذا هو الذي جعل النازيةَ في أيام هتلر تنقم عليهم، وتعاملهم بما يُذْكر من قسوةٍ وحشية وإرهاب ربما لم يسبق له مثل).

أما الاتحاد السوفييتي، وهو الذي يجمع في كيانه الضخم، عدداً كبيراً من الشعوب لكل منها لغته، وتراثه، حاول لينين ثم بعده، ستالين أن يصهرها في بوتقة (روسيا) وبعد انقضاء أكثر من ستين عاماً على حكم الحزب الشيوعي الواحد، بكل ما عرف به من ممارسة فنون القمع والإرهاب، والقتل بمئات الألوف، وتهجير قوميات من أرضها إلى أراضي قوميات أخرى، بغرض الصهر والوصول إلى (روسيا واحدة) فها نحن نسمع في عهد جورباتشوف، كيف انكشفت عمليات القمع والإرهاب، وكيف أخذت شعوب آسيا الوسطى بل والشعوب الأوروبية أيضاً تثبت للعالم، أن بوتقة الصهر الروسية التي اعتمدت على القمع والإرهاب واغتيال الحريات بجميع مفاهيمها، وفرض قانونها أو قوانينها في إلغاء أو محو حق الفرد، في الكسب، من عرق جبينه الذي يُهدَر، لتتملكه الدولة وتتصرف فيه بوسائلها، تحت شعار (ديكتاتورية البروليتاريا) أي «طبقة العمّال»، والدعوى الخائبة، القائلة: (من كلٍ حسب قدرته، ولكل حسب حاجته)... إن بوتقة الصهر الروسية، لم تحقق الصهر المنشود، ولم تستطع أن تمحو من ضمائر شعوبها، انتماءها إلى أعراقها، ودمائها وتقاليدها، ولا حاجة إلى شرح الأسباب، فهي أشد وضوحاً من أن تُشرح... إنها (الحرية)، التي هاجر إليها أولئك الذين عانوا في بلدانهم، فنوناً من القمع، والإرهاب، ووجدوا في أميركا، أنهم (أحرار) فعلاً...

وحسبهم أن الواحد منهم، يستطيع، أن يمتلك ما يستطيع أن يكسبه بعمله، وأن يرشح نفسه إذا شاء لرياسة الولايات المتحدة بأسرها. . . وذلك حق كفله له الدستور أو القانون أو الحقوق. . . وليس بعيداً عن الأذهان «جيسي جاكسون»، الذي لا يزال يؤمن بأنه سوف ينجح في انتخابات الرياسة القادمة، بل أمامنا، هذا الأسود الذي اختير، قائداً عاماً للقوات المسلّحة الأميركية، لأوّل مرة في تاريخ الولايات المتحدة. . . ولا ننسى أن هذا الأسود، منحدّر من ذلك الجد الذي جاؤوا به من أفريقيا، «عبداً رقيقاً»، لخدمة السيد الأوروبي أيام زمان. . .

ونتساءل، هل يأتي يوم في مستقبل الأمة العربية، تستطيع فيه بوتقة صهر، كالبوتقة الأمريكية، أن تصهر شعوب الدول العربية، فتنسيها كل انتماء، إلا الانتماء إلى الأرض العربية من الخليج إلى المحيط؟؟؟

أي بنيّ ـ مقارنة بين ماضينا وحاضرنا

(١)

ويقول الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، في كتابه الذي يوجّهه إلى ابنه ـ قبل أن يكون له ابن في يوم ١٣ رمضان عام ١٣٨٨ ـ ومعه (هذا الجيل الراكض اللاهث ليقف ويلتفت خلفه ويرى ما كان عليه أبوه بمحيطه وآلاته ومعداته وأدواته ومساكنه وعاداته). ويستوقفني هنا، أنه يذكّر القارئ بمهرجان (الجنادرية) الذي يقيمه الحرس الوطني كل عام، كما قد يذكّره أيضاً، بما يعرض في (معرض المملكة بين الأمس واليوم). واستبعد تماماً أن ما يعرض في الجنادرية، أو في (معرض المملكة بين الأمس واليوم) مستوحىً من كتاب الدكتور، الذي بدأ تأليفه في عام ١٣٨٨ أي منذ ما يقرب من عشرين عاماً... ولكني لا أستبعد أن يكون الفنّان «صالح النقيدان» قد استوحى الكثير من رسومه التراثية الجميلة بريشته الناعمة وألوانه الهادئة ـ بل الناعسة أحياناً ـ مما عرضه مهرجان الجنادرية، وليس في ذلك مأخذ عليه، إذ يبدو لي أنه شاب، لم يسبق له أن عايش هذا التراث أو رآه إلا فيما عني مهرجان الجنادرية بعرضه.

وأقف من الدكتور وقفة قصيرة أشعر أنه يشاركني الإحساس بأهميتها،

وهي ما ظل يتوارد ويتناثر في طرائفه وقصصه، من ألفاظ لا بد أن أسميها (شعبية) متداولة ومعروفة في نجد ولكنها بالنسبة لقارئ مثلي (من أبناء الحجاز) ومعي قراء أقطار عربية أخرى، لا تستغني عن شرح ـ في الهامش ـ يوضّح معناها. وبعد وقوفي حائراً عند (السَّعْلُوَّة) في الصفحة العاشرة، أخذت أعنى بإحصاء ما أقع عليه من هذه الألفاظ ولا أذكر الآن ما أتيح لي أن أحصي ولكنه كثير منه على سبيل المثال (المحرف) و(المنحات) و(اللزّا) وخف البعير الذي يستخدم أحياناً دوّاسةً (لصاير) الباب. . . إني أفهم الجملة، ولكني أقف عند (صاير) الباب، هذا فلا أدري ما هو، وعلّلت نفسي بأن أجده في صفحة الرسوم ـ من أدوات الماضي ـ فلم أجد شيئاً عنه. ومع أنه لا يبخل أحياناً بشرح بعض الألفاظ كنوع من التعريف بها لأبناء الجيل الذين يريد أن يعرفوا الماضي، مثل كلمة (التبرقة) في الصفحة ١٦٤، فإنه يمضي شحيحاً بشيء كهذا في كلمات كثيرة أخرى مثل (خمطها) في الصفحة ١٥٧ و(الرّاج) و(الكافّ) في الصفحة ١٥٠ و(الرائس) في الصفحة ١٥١ و(مشّاك) البئر في الصفحة ١٥٥. وقد توقّفت مبتسماً عند كلمة (المشقاص) في الصفحة ١٥٥، فهو الاسم الذي أطلقه على نفسه الفنان التمثيلي (حسن دردير). . . ومع الابتسامة قلت لنفسي إنصافاً للدكتور: قد أكون أنا القارئ الوحيد الذي تعمى عليه معاني هذه الألفاظ، وقد يكون السبب أن طفولتي، وأيام صباي وشبابي قد خلت إلى حد، من البيئات الشعبية وهي عندنا في الحجاز (الحارة) التي أُبعدتُ عن ملاعبها قبل أن أبلغ العاشرة من عمري. ولكني أظل حريصاً مع قراءتي لهذه الفصول من الكتاب، أن أرجو الدكتور، أن يعنى بوضع معجم ليس فقط للألفاظ التي وردت في كتابه مثل (الزرنوق ص ١٤٩ ـ والدامغة ص ١٤٩ ـ والمرامة ص ١٠٧ والدشية ص ٧٧

و«حسو» ص ٧٧) بل لكثير جداً من الألفاظ التي أمر بها في قصائد الشعر الشعبي، فلا أفهم منها شيئاً إلا بكثيرٍ من الجَهد أبذلُه في تفهم بعضها، حين أرى أن هناك معنى جميلاً يلتهمه اللفظ الشعبي الغريب... ولا أدري فقد يكون هناك معجم وضعه المنافحون عن الشعر الشعبي أو المغرمون به، وعلى رأس القائمة منهم الأستاذ عبد الله بن خميس، والأستاذ ابن إدريس.

يبقى أن أقول إن في الكتاب الكثير من الأخبار والطرائف، التي وجدت فيها عنصر الترفيه والتسلية، ولا عجب، فالدكتور الخويطر يذكُرُ لنا، أو ينبّهنا إلى أنه قرر أن يسير فيما يكتبه (في هذا الكتاب) على طريقة (حديث المجالس)... وما أكثر ما نجد في حديث مجالسنا من الطرائف والنكات (الساخنة) أحياناً كتلك التي يمتعنا بها في ليالي (الثلوثية) الأستاذ حسين العسكري، رغم التزامه الصمت والوقار في معظم وقت الجلسة.

فهناك على سبيل المثال أيضاً حكاية (أياس بن معاوية) الذي نظر إلى نسوة فزعن من بعير فسرعان ما أشار لمن معه إليهن وهو يقول: (هذه بكر... وهذه حامل... وهذه مرضع) ويعقب المؤلّف على الحكاية قائلاً: (هذه قصة طريفة كما ترى، ولكنك لا تملك نفسك من أن تعدها مصنوعة) ثم يضيف: (لو حككت جلد هذه القصة، لوجدت تحته ما يبتسم سخرية بمن يصدقها ويذكر أن أمثالها في التراث كثير وهي سجل لزمنها بفكره وأدبه، وتريك أحياناً كيف يتسلّى الناس).

وفي الكتاب بعد ذلك، نبذة عن (الجمل) وأن فائدته لا تقتصر على الحَمْل وإنما له فوائد أخرى يمتاز فيها عن منافسته الطائرة أو السيارة... ويذكر الدكتور هذه الفوائد، ومنها أن جلده يصلح (للحوض) وهو الإناء

الذي يجمع فيه الماء الممتوح من البئر لتشرب منه الإبل ويستشهد على ذلك بمثَلٍ من العامية يقول (كم فاطر شربتْ بجلدِ حُوارها).

وبمناسبة ذكر الجمل، فإن الذي أعرفه أن الجمل لا يزال يلقى الكثير من العناية والرعاية، والشاهد على ذلك (سباق الهجن) الذي يعقد في الجنادرية كل عام. ولعلّ مما يؤكّد هذه العناية والاهتمام أن الأستاذ (محمد علي الحبرتي ـ بالحاء وليس بالجيم) قد ألّف كتاباً يقع في ١٣٨ صفحة تناول فيه الإبل عبر مراحل التاريخ، وصفاتها وطبائعها، والإبل في الشعر العربي الخ. . .) وعلى حد علمي المتواضع فهو أول كتاب في موضوعه.

وأخيراً فالكتاب الذي أتحفني به معالي الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، وزير المعارف، ووزير التعليم العالي بالنيابة، وإن كان قد كتبه على طريقة (حديث المجالس) فإنه حافل بالكثير الذي أتمنّى أن يقرأه أبناؤنا. . . ولأقل أبناء الدكتور من طلاب مراحل التعليم المختلفة. . . إذ فيه هذا الأسلوب الجميل، والعربية الفصحى النقية. . . ثم فيه أيضاً ما ذكرني بالكثير من حكايا أيام طفولتي وصباي وشبابي. . . مما سيفيدني وأنا أكتب قصة حياتي (مع الجوع والحب والحرب). التي لا بد أن تحفل بالكثير مما لا يعرف عنه أبناؤنا شيئاً في هذه الأيام.

أي بنيّ ـ مقارنة بين ماضينا وحاضرنا

(٢)

ورغم أن هذا العنوان لكتاب، مؤلّفه هو من أوائل حملة مؤهِّل الدكتوراه ومن إنجلترا ـ إذا لم تخن الذاكرة ـ، وفي تاريخه أنه كان أول مدير لجامعة الملك سعود، وقد سجّل له بعض المرموقين من المثقفين في إدارته للجامعة، في تلك الأيّام، أنه انتهج سياسة استهدفت تجنّب التساهل أو السخاء في تقدير الدرجات في جميع الكليات، وفي جميع مراحل هذه الكليات، إلى مرحلة التخرج بمؤهل البكالوريوس، بحيث كانت نسبة النجاح تبدو ضئيلة وأقل ممّا كانت تتوقّعه، أو تنتظره حاجة الدولة إلى الجامعيين يملأون الوظائف الشاغرة، وما أكثرها في تلك الفترة، التي كانت في الواقع مرحلة من مراحل التأسيس بالنسبة لجميع مرافق الدولة. . . وكانت فلسفة الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، تنبع من حرصه على تحقيق هدفين، لكل منهما أهميته وقيمته في تقديره:

الأول: أن يكون المؤهّل الأكاديمي، في مستوى مثيله في الجامعات المرموقة عالمياً وأن يخرج حامله إلى الحياة، بقدرات، تملأ الفراغ، الذي كانت تملأه كفاءات استقدمها الاضطرار، من الخارج ـ والخارج هنا غير محصور في بلد بذاته ـ.

والثاني: أن تكون لهذه الجامعة «الفتية»، مكانة وسمعة تحترمها جامعات، لعلها كانت تشك في احتمال قدرة خريجيها، على الدراسات العليا. ولعل الدكتور الخويطر، كان يدرك أبعاد المشكلة، التي لن يتاح تجاوزها إلاّ بأن يتخرّج من جامعة الملك سعود ـ في تلك الأيام ـ من يُثبت للجامعة التي يتقدم للدراسات العليا فيها أنّه جدير بالقبول أو حتى بالترحيب... ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بتجنّب التساهل والسخاء في تقدير الدرجات.

ولا بد أن نقول إن الدكتور الخويطر قد نجح في الوصول إلى الهدفين معاً، ولكن ذلك لم يكن ممّا يساعد على ملء الوظائف الشاغرة الكثيرة، ويقلّل من نسبة الكفاءات المستقدمة من الخارج.

فإذا لم ننس، أن مؤلّف هذا الكتاب، هو وزير المعارف، ووزير التعليم العالي بالنيابة فإن لنا، أن نسجّل له أيضاً، اكتفاءَه بأن يذكر اسمه مجرّداً من لقب (الدكتور) ومبتعداً عن التذكير بأنه «الوزير». فإذا قيل: (من الذي يجهل شيئاً من ذلك؟) ويريد أن يقول إن التصرف ليس تواضعاً، وإنما هو اكتفاء بشهرته، المقررة عند ألوف الطلاب، في مختلف مراحل التعليم ولكنني لا أتقبّل، ما أعتبره غمزاً مستوراً، لأني عبر سنوات طويلة، منذ كان مديراً للجامعة، أسمع عن خلقه الرضي، وسجاياه النبيلة، ـ مع ما طبع عليه من الحزم والدقة في إدارته لعمله والتزامه بأداء مسؤولياته ـ ما يؤكد استغناءه عن المظاهر وزهده فيما يسوّغه منصبه الكبير.

أمّا الكتاب فقد حرصت على قراءة بضعة من فصوله، لا تزال تغريني بأن أفرغ لقراءة بقية الفصول. لأن فيه الكثير، مما لا أشك في أن الجيل

المعاصر، فضلاً عن الأجيال القادمة، لا يستغني عن تأمّله واستمداد العظة والعبرة، بهذه المقارنة بين (ماضينا وحاضرنا). وهو يقول في السطور الأولى من المقدمة، إنها كلمات وجّهها يوم ١٣ رمضان عام ١٣٨٨هـ. في عمود، في جريدة الجزيرة، ثم وضعها فيما بعد في كتاب ـ لم أقرأه أو أسمع عنه ـ بعنوان: (من حطب الليل) عام ١٣٩٨هـ قبل أن يكون له ابن... وقد وجّه هذه الكلمات بهذه الصورة قاصداً أبناء هذا الجيل الذي نشأ (بعد جيلنا) ـ ثم يضيف: ـ (وكانت هذه الكلمة «أي بُني» نشرت على رأس كلمة مختصرة، وقد قرأها ـ معالي الأخ الدكتور غازي القصيبي ـ، وأحسن الظن بها، واقترح أن أتوسّع فيها، ووعدت بأن أنفّذ هذا الاقتراح... وحاولت بهذا الكتاب أن أفيَ بما وعدت به قبل سنوات).

ويقع الكتاب في ثلاثمئة وأربع وسبعين صفحة من القطع المتوسط، وقد طبع طباعة ابتعدتْ عن أن تسمّى (مُترفة)، ولكنها مع ذلك أنيقة ورقاً وغلافاً، ورسوماً ملونة ومعبّرة للفنان «صالح النقيدان». وهذا العدد من صفحات الكتاب، استوعب أكثر من سبعة عشر فصلاً، ولكل فصل تفرعاته أو هي فروعه، يجدها القارئ في الفهرس، ويرى في هذه الفروع ما يعتبر بكل مقياس (طرائف) قد يندر أن يقع على مثلها في كثير مما يكتب عن الماضي الذي يقارن المؤلّف بينه وبين الحاضر.

ويقول الدكتور الخويطر: وقررتُ أن أسير فيما أكتبه على طريقة حديث «المجالس» ويمضي في التنويه بما يكون في حديث «المجالس» ووصْفِ ما يتنامى فيها من طُرف، وما يتداول من أخبار، إلى أن يقول: (وقد يتحمل الناس في المجالس بعض القول الثقيل أو الشيء المكرر (لأن

بعده وليمة)، التفكير فيها يزيلُ الضيقَ ويبعدُ الضجر. . .) وتجد نفسك تبتسم عند هذه الالتفاتة إلى (الوليمة) التي يزيل التفكير فيها الضيق ويبعد الضجر.

واكتشفت من جانبي أن الدكتور الخويطر يملك (أسلوبه الخاص) فيما يكتب. وامتلاك أسلوب يتميز به الكاتب، ويمكن أن يعرف به حتى وإن لم يوقّع ما كتب، يدل على مستوى من التمكن في إبداع العبارة، التي يصل بها إلى وعي القارئ، وبكثير من العفوية، وتجنّب الصنعة، مع الالتزام الدقيق بالفصحى الصحيحة، لا تذكرك بكاتب معيّن ممن قرأت لهم وهذا في حد ذاته مؤشّر قوي للأصالة، والاستقلال، والقدرة على التخلّص من تأثير من قرأ لهم في التراث، أو في الأدب الحديث.

ولقد استوقفني الكتاب، ووجدت نفسي أقف عند الكثير من نواميه وأزهاره، وبراريه وقفاره. . . ولذلك حديث لاحق يستحقه القارئ، الذي لا أدري إن كان قد أضاف الكتاب إلى مكتبته. . . وما أقل ما نضيفه من الكتب إلى مكتباتنا في هذه الأيام.

اختيار هذا العنوان

اختيار هذا العنوان، للعمود الذي يصافح القارئ يوماً بعد يوم، استغرق وقتاً طويلاً، كما فتح باباً للحوار بيني، وبين ابنتي (دلال عزيز ضياء) من جهة... ثم بيني وبين نفسي من جهة أخرى.

وكان ما فاجأتني به دلال، أنها ترفض فكرة أن أتفرغ لكتابة عمود في أي صحيفة. ومن رأيها أنه قد آن الأوان ـ بل هو قد آن منذ زمن طويل ـ لأن أتفرغ لأعمال فيها (إبداع)، كالقصة القصيرة مثلاً، أو استكمال ما بقي من قصة (حياتي مع الجوع والحب والحرب). ولأنّ (كل فتاة بأبيها معجبة)، فإنها مؤمنة ـ في ضوء ما قرأت لي من القصص القصيرة، ومن فصول (حياتي) تلك، بل ومن قصة (عناقيد الحقد) التي توقّفت عن كتابتها ونشرها في مجلة (اقرأ) أيام كان يرأس تحريرها الدكتور الأستاذ عبد الله منّاع، لأسباب وافقتُ المنّاع على أنها تسبب له انزلاقاً مع من تلامحتْ شخصيتُه في القصة وهو انزلاق من نوعٍ يزيد من المشاكل التي كانت تواجه المنّاع، أو كان هو يواجهها، وهذا رغم أني كنت أكتب فصول القصة، وليس في ذهني هذه الشخصية أو غيرها وإنما هي قصة يحتمل أن تكون فيها مشابه لشخصياتٍ كثيرة، كانت تعايشنا، أو كنا نحن نعايشها منذ أكثر من أربعين أو خمسين عاماً.

واللافت للنظر ـ أو هكذا توهّمت ـ أن قراء (عناقيد الحقد) كانوا أكثر استمتاعاً أو استيعاباً لأحداثها، وقد تأكد هذا الوهم، عندما اتصل بي أكثر من صديق من مكة وجدة، يستعجلني أن أكتب بقية الفصول... وأثار انتباهي أن الذين يتصلون ويستعجلون الكتابة، كانوا يبدأون حواراتهم، ويختمونها بضحكات عاصفة صاخبة... وكان هذا دعماً قوياً للاقتناع بالتوقف عن الكتابة كما التمس ذلك الصديق الدكتور عبد الله منّاع.

يرى القارئ أني قد استطردت، وابتعدت عن موضوع اختيار هذا العنوان رغم أن ابنتي ذكرتْني بأني كتبت تحت عناوين أرشق وأمتع، ومنها (نثار)... و(من القلب)... و(من يوم ليوم) ثم (نشر وطي) الخ...، وأضافت: (إننا لا ننسى أن أكابر كتاب (الأعمدة) في صحف مصر على الأخص، التزموا عنواناً لم يغيّروه طوال سنين، وفي الطليعة منهم بل (رائدهم) الأستاذ أحمد الصاوي محمد رحمه الله، فقد ظل يكتب عموده القصير في الأهرام بالذات، بعنوان (ما قل ودل)، طوال ما يقرب من ستين عاما...) فما الذي يجعلك تستطيبُ اختيارَ عنوانٍ جديدٍ وطويل هو: (مع الحياة ومنها)...

ومع أني كثيراً ما يعجبني أن تحاورني ابنتي، وأن يطول هذا الحوار أحياناً لساعات، إلاّ أني فضّلت أن أحاول إغلاق الباب بإجابات حرصت على أن تكون حاسمة، منها مثلاً: أن القصص القصيرة تملأ جميع صحفنا ومجلاتنا، وكُتَّابُها يُعدون بالعشرات، بين فتيان وفتيات فأين أذهب أنا مع هذا الزحام... وأضفتُ: (حتى الدكتور منصور الحازمي الذي يتصدى أحياناً لنقد ما يتاح له أن يقرأ من القصص يبدو لي أنه لم يعد يجد الوقت أو لن يجده لقراءة كل هذا العطاء المتلاحق). فإذا انتقلنا إلى الروايتين

(حياتي مع الجوع والحب والحرب) و(عناقيد الحقد)، فإني أتساءل أين هي المجلة ـ بعد (إقرأ) التي تنشر الفصول الباقية من العملين؟؟؟ ثم قلت (لا تنسيْ يا بنيتي أني لا أنشر بدون طلب. وبعد ابتعاد الدكتور مناع عن (إقرأ) لم يطلب مني رئيس تحرير مجلة أن أنشر في مجلته بقية الفصول).

ثم: . . . (ما الذي لا يعجبك في العنوان الجديد؟؟؟ إني أشعر أنه رحب رحابة الحياة نفسها. . . وحافل حفولها بما لا حصر له من الشؤون والشجون. . . «وكلمة» ـ: (ومنها) تعني أننا نأخذ من هذه الشؤون والشجون، بل ومن الكثير من عطائها المتجدد يوماً بعد يوم، أو لحظة بعد لحظة. . . وفي ذلك ثراء وإثراء).

ومع ذلك فإنني حريص على أن أرضي (إعجابَكِ بي). . . إذ أنوي أن أنشر ـ ولا أدري أين؟؟ بقية فصول (حياتي. . .) (وعناقيد الحقد). . . في المجلة التي يقع عليها الاختيار من جهة، وتشعرني بالرغبة من جهة أخرى. بل قد أفاجئك إذا قلت إني سأنشر بعض المخزون من أعمالي، ومنه (صفحات من أدب الاعتراف) و(قصة علي بابا الأصفهاني) وغيرهما وهو كثير ينام في الأدراج.

أما أول ما سأوافي به هذه الجريدة بعد غد إنشاء الله، فوقفة مع معالي الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر (وزير المعارف)، في كتابه الذي تفضّل بإهدائه إليّ منذ أكثر من شهرين. . . وهو: (أي بنيّ ـ مقارنة بين ماضينا وحاضرنا). . . ولا أبدأ به مجاملة أو تزلفاً لمقامه الجليل، وإنما لأن في الكتاب الكثير مما لعله كان يظل متناثراً، مرشحاً للضياع، لو لم يجد الدكتور وقتاً للإحاطة به واستيعابه وتقديمه وجبات شهيةً للجيل.

حقيقة سياسة جورباتشوف

بعض الذين يتابعون، أخبار زعيم الاتحاد السوفيتي ميكائيل جورباتشوف منذ تسنم الذروة في الهرم المهيمن على مقدرات جماهير الاتحاد على اختلافها أعراقاً وأجناساً، ولغات، يذهبون إلى أنه بما رفعه من شعارات (الحلازنوت) تسلل إلى معمار الشيوعية نفسها ـ بمعاول هدم فيها الكثير من الذكاء والكثير أيضاً من اللقاء مع الجماهير في منتصف الطريق.

وقد أسفر الظاهر والمعلن من سياسته عن ظهور الاضطرابات العرقية، أو الطائفية أو حتى الجنسية في أكثر من موقع، كما أسفر عن الأهم والأبعد أثراً وهو أن ينتهي حكم الحزب الشيوعي الواحد في بولندا لأول مرة منذ أربعين عاماً.

ولكن هل صحيح، أو معقول، أن يفكر جورباتشوف في هدم معمار الشيوعية من أساسه في الاتحاد السوفيتي كما يتفاءل الذين يراهنون على ذلك.

لقد استطاع في الواقع أن يقتلع ما يقرب من ربع عدد زملائه في «اليوليتبورو» وهم الذين يعرف أكثر من غيره تشددهم في صيانة المعمار العريق من عوادي أحلام التطور والإصلاح.

وكانت الحركة بصورتها التي رأتها أو أحس بها الغرب من جهة، وشعوب الاتحاد السوفيتي من جهة أخرى، كأنها بشرى لبداية النهاية في الحكم الشيوعي الذي رزحت تحت ثقله ليس فقط شعوب الاتحاد، بل شعوب أخرى في أوروبا الشرقية.

ولكن الحقيقة التي فات الكثيرين إدراكها أن ميخائيل جورباتشوف إنما يعمل في الواقع في اتجاه دعم الشيوعية وصيانة معمارها من الانهيار الذي أوشك أن يقع نتيجة لسياسة أولئك المتشردين، ومنها كتم الأنفاس وتحريم حرية التعبير، أو حق الاحتجاج أو الإضراب تحت طائلة أقسى العقوبات، وأخفها النفي إلى سيبيريا، أو الإبعاد عن حياة عاملة مرموقة.

ما فعله جورباتشوف، حتى مع الذين اقتلعهم من مناصبهم في اليوليتبورو، هو إنذارهم بانهيار الشيوعية إذا استمر الحكم على ما هو عليه. وأن السبيل إلى تدارك الخطر هو السياسة التي ينادي بها...

ولكنه، في مواجهة، ظهور الاضطرابات العرقية أو الطائفية، أو الجنسية... كشر عن أنيابه... وأنذر أنه سيلجأ إلى الإجراءات... التي تضع حداً لهذه الاضطرابات والتي تخضعها للنظام...

ومن هنا، يدرك المتفائلون في الغرب والشرق على السواء، حتى في بولندا أن الشيوعية بدباباتها التي لا تنسى في بلغاريا وتشيكوسلوفاكيا... سوف تظل هناك إلى يوم في مستقبل غير منظور.

هوية الأدب، عند الدكتور منصور الحازمي

ليس من جديد أن أقول لقراء هذه الكلمة، إن الدكتور منصور الحازمي قد اقتعد إحدى أهم القمم الثقافية في المملكة. ولو كانت لنا وسائلنا في محاولة الظهور في الساحات الأدبية في الوطن العربي، ـ والشقيقة مصر في مقدمتها، لكان موقع الدكتور منصور الحازمي بين رعيل الأعلام الكبار... ولكن، مما لا بد أن ندركه بغُصة خانقة، هو أن وسائلنا لا تزال قاصرة رغم ما يُبذل من جهود بعض دور النشر، التي قد تُهم بأن توجّه إليها لوماً فإذا بطفحٍ من الأعذار يتدفق من المسؤولين، فلا تملك إلا أن تلتزم الصمت.

ومناسبة الحديث عن الدكتور منصور الحازمي اليوم، هو ما قرأته له ـ ولا أدري أين ومتى؟ عن (هوية الأدب)، واستوقفني طويلاً... وبباعث حميمية العلاقة بيني وبينه قلت ـ في شبه إحساس بالتسليم والاستسلام ـ لا بد أن لديه من مرتكزات الرأي ما يجعله يقول: (الأدب إنما تتأكد هويته بلغته، لا بمضمونه، أو بمنحاه الأيديولوجي) ولكن بعد لحظات من التأمل أخذت أتراجع، مع نبض خفيف من التوتّر المتسائل لأقول: (كيف؟؟) ثم بدا لي أن ألتمس سبيلاً إلى تحميل المطبعة ما اعتبرتُه خطأ، استبعدت أن يقع فيه الحازمي وهو من أرى أنه لا يحرم قراءه، ـ وبطبيعة الحال طلاَّبه في الجامعة ـ من دراساته وتأملاته العميقة وكذلك من

مشاركاته فيما يدور من حوار في الكثير المتعدد من الندوات التي كثيراً ما تكون له إدارة أو رياسة حوارها.

كيف يمكن أن يفهم أي قارئ، إن الأدب إنما تتأكد (هويّته) بلغته لا بمضمونه أو بمنحاه الأيديولوجي؟؟؟ وباختصار شديد جداً... كيف يمكن أن تكون هناك لغة بلا مضمون؟؟؟ أو كيف يمكن أن يكون هناك مضمون بلا لغة... ثم هذه (الهوية) التي لا توكدها إلا اللغة... لا بد أن لهذه (الهوية) في ذهن الدكتور «مفهوماً» يصعب أن نستوعبه إلا بأن يخرجه هو إلى النور بالنسبة لمثلي، ممّن لا يجهل الدكتور، ما أعانيه من (تخلّف). في فهم المصطلحات الجديدة في معطيات مدارس النقد التي طلع بها علينا الدكتور عبد الله الغذامى، والدكتور السريحي ومن يستظلون بالرايات التي يحملانها من ناشئة الحداثة وشُداتها، وما أكثَرهم، بل وما أقدرهم على أن يصولوا ويجولوا، وأن لا يساورهم أي شك في أنهم يضيفون إلى مسيرة النقد، والإبداع ما يدخلهم في زمرة الحداثيين، ليس في المملكة فحسب، وإنما في الساحة العربية كلها. وتلك ظاهرة صحية بكل معيار... إذ ليس أحب إلينا من أن يشعر العالم العربي بنبضنا الفكري مهما كانت درجة الإحساس به هناك.

والسؤال الذي أوجّهه إلى الدكتور الحازمي، هو كيف يمكن تصور تأكيد هوية الأدب باللغة دون المضمون؟؟؟ ما أفهمه أنا، هو أن آداب الدنيا، بمختلف صور الإبداع فيها ـ من شعر، وقصة ورواية، ونقد ـ ليست إلاّ مضموناً أو مضامين... قصيدة الشعر على سبيل المثال، التي نقرؤها لشاعر معاصر، أو شاعر قديم تقدِّم لنا (مضموناً)، بغض النظر عن موضوعها ومنحاها... وهذا المضمون، قدمته (لغة)... فلو كانت اللغة

هي (الأدب) أو (هويته) كما يريد الدكتور منصور لنا أن نفهم، فما هو سبيلنا إلى المضمون؟؟؟

ولنحاول ـ (بروح ممازحة) أن «نرصف» مفردات من اللغة متتالية فنقول: (زهرة... أريج شمس غاربة... أنامل فتاة... أوراق شجرة... رياح الخريف)... كل هذه المفردات لغة دون شك وقد رصفناها هكذا، رصفاً عشوائياً أو عفوياً، ويمكن أن نقول إن في ذهننا ونحن نرصف هذه المفردات مضموناً أو مضامين، منها أن فتاتنا تلك، في حديقة، في فصل الخريف الذي تهب فيه رياح الشمال، فتتساقط الأوراق... وأن هناك وردة أو هي زهرة ذات أريج طمعت الفتاة في أن تقتطفها... الخ...)... فهل يتسع صدر الدكتور منصور، ليقول لنا، كيف يمكن أن تقدم هذه المفردات، مضموناً أدبياً أو إبداعاً من أي نوع؟؟؟.

في حديث هاتفي مع الأستاذ عبد الفتاح (أبو مدين) قلت له نص كلام الدكتور منصور الحازمي، وحاولت أن أشاركه أو يشاركني في حوار... فاختصر عليّ الطريق وقال: (ربّما كان كلام الدكتور، من نوع ذلك الكلام الذي كان يصيبك بالدوار)... وقد عنى ندوات الحوار الذي كان يدور بين الدكتور الغذامي... والدكتور السريحي وآخرين... وكنت أعلق عليه بأن ما سمعته، وسمعه الحضور، كلام يصيبني بالدوار...

استبعد هذا على الحازمي... ولكني أنتظر أن أفهم. وله الشكر.

روائع الفن التشكيلي في عصر النهضة وما بعده

في الواقع ظللت أضن بهذا الموضوع، على هذا الحيّز المحدود للمواضيع التي أعالجها تحت عنوان (مع الحياة ومنها)... لأنّه الموضوع الذي يستحق أن يجد مجاله الرحب، وليس في صحيفة سيارة، أو مجلة، وإنما في كتاب قد يستغرق ما لا يقل عن مئتي صفحة. ولكن مما استقر في ذهني، منذ دهر طويل أيام كنت أتابع دراسات موسّعة نوعاً عن الفن التشكيلي، وربما على التحديد، أيام كان ابني (ضياء) يدرس الفن التشكيلي في (أكاديمية الفنون الجميلة) في روما ملاحظة، أجدها اليوم تستحق أن أسجلها، لإظهار ما يتميز به الفن التشكيلي الإسلامي الذي ابتعد عن رسم كل ذي روح... ورغم ذلك فقد استطاع أن يقدم روائع أكدت عبقرية الفنان المسلم وقدرته على الإبداع... ولم يتح لي أن أرى قصور الأندلس التي أسمع عما فيها من روائع، ولكني كلّما أتيح لي شرف زيارة المسجد النبوي الشريف، لا أملك إلاّ أن أتأمل الإبداع في القباب، بما أبدعه الفنان المسلم فيها من رسم أزهار تستوقفك فيها الألوان من جهة والقدرة على الحركة في انعطافها هنا وهناك، انعطافات فيها رهَفُ الحس، وتعمُّق المعنى الذي تعرب عنه هذه الانعطافة في الكثير الكثير من الأزهار التي كانت دون شك نامية متأرّجة في تصور الفنان.

والذين دخلوا كنيسة الفاتيكان الكبرى، يجدون فيها، وفي المتاحف

الكبرى، في باريس ولندن، وإسبانيا، ما يبهر الأبصار ويستوقف الأذهان من روائع الفن التشكيلي الذي ازدهر بعد عصر النهضة، سواء في الرسم، أو في النحت، هو أن المؤمنين بالإنجيل والتوراة رغم ما فيها من تحريف وتخريف، لا تزال في نفوسهم وفي أعماق وجدانهم بقايا أو حتى أصول الوثنية التي ورثوها عن أسلافهم القدامى... وفي الوثنية محاولة دائمة (للتجسيد) نراها ظاهرة، في أعمال النحت، حتى في معتقدات الهند والعين، ومعظم شعوب جنوب شرقي آسيا التي لا تستطيع أن تمارس طقساً تعبُّدياً من طقوسها إلا أمام تمثال يبلغ من إيمانهم به أن يقدموا له الهدايا والقرابين... ونفس التجسيد، الذي يؤكد هذه الوثنية، نجده في تمثال السيد المسيح، والعذراء، وما يدور حولهما من قصص فيها قطيع الحملان، الصغيرة تحوم حول الصورة وهي مما جاءت به القصص التي نسجها خيال الذين حرّفوا الإنجيل والتوراة، وغمروا فصولهما بأنواع من القصص، التي يريدون بها استعطاف الجمهور وشدّه إلى تقديس السيد المسيح والعذراء إلى حد عبادتهما...

ومن هنا يمكن القول إن الوثنية، أو عبادة الأوثان لا تزال هي التي تعنكب في عقول مئات الملايين من البشر من مختلف المعتقدات.

ونحمد الله سبحانه، على أن عقيدة التوحيد، خلّصت المسلمين من هذه الوثنية، وبالتالي من (التجسيد). ولذلك تجرد الفن الإسلامي في الأندلس واستمبول وحتى في مساجد المسلمين في الهند، من أي أثر لصورة مخلوق حي... وذلك لعمري هو الصفاء في العقيدة السمحة التي خاطبت العقل، فأخرجته من الخرافة بجميع أشكالها في جميع المعتقدات الأخرى.

بقي، مع هذه الحقيقة الساطعة كالشمس في عقيدة التوحيد، ما يقترفه

الدجّالون والمشعوذون، من أعمال اعتبرها تخريباً خطيراً ينتشر للأسف بين كثير من العوام، وليس فقط في بلد بذاته في العالم العربي، وإنما في الكثير من بلدانه، مما يستدعي أن تتصدى له الدولة بالتحريم، وأن يتعدى له الدعاة والوعاظ بالتنوير من منطق الرفض، لكل ما يمس عقيدتنا السمحة الصافية، من تخريف... وتخريب.

الكاتب. . . والجمهور

وكلمة الكاتب تحتوي، الكاتب الصحفي، الذي يلتزم، أو تلزمه علاقته بالجريدة، أن يكتب عموده، في كل يوم، وفي ظن الجريدة أولاً، ثم في وهمه ثانياً أنه يواجه جمهوراً من القراء، يتوخّى أن يزوّدهم برأيه في واحد من المواضيع التي تشغل أذهان معظمهم، أو يقدم لهم ما يمتعهم، من متابعة أو تعليق على أحداث، مضت، ويجد أن لها ما يشبهها، من أحداث طارئة الخ. . .

وحين تحتوي كلمة (الكاتب)، هذا الكاتب الصحفي الملتزم، فإنها تشمل أيضاً الكاتب، الذي نسميه (المؤلّف) الذي يعكف على دراسة موضوع، يعتقد أنه سيجد بين المثقفين ـ أو القراء بعامة ـ من يعنى بقراءته والاستفادة من المادة التي قدّمها وعالج بها فكرة قد لا تكون جديدة، ولكنّها شبه منسية.

ويكاد لا يخرج عن إطار مفهوم الكلمة، حتى الشاعر أو القاص أو الروائي والناقد فيما يُنشر من إبداعهم إما في الصحف، وإما في الكتب، أو في المحاضرات التي يلقونها على من يدعى للحضور، في الأندية الأدبية أو في الندوات على اختلافها.

كل هؤلاء، يضعون في تقديرهم أن هناك جمهوراً يعنى بقراءة هذا الذي جادت به قرائحهم. . . يضعون في تقديرهم وجود هذا الجمهور،

وإليه يتجهون، ومن أجله يحرصون على صياغة الكلمة بالكثير من الدقة، والرغبة في الوصول إلى وجدان أو عقل هذا الجمهور.

ولكن السؤال الذي أستلهمه من محاضرة الدكتور الغذامي في الملتقى الثقافي في أبها هو: هل هذا الجمهور موجود فعلاً،؟؟؟ وإذا كان موجوداً، فهل يتفاعل، أو حتى يتذكر بعد قراءة الموضوع أو الاستماع إليه، الغرض الذي استهدفه الكاتب... وإذا كان الإبداع قصيدة لا شك أن الشاعر قد سهر عليها، وسكب فيها الكثير من رحيق مشاعره، وحريق وجدانه فكم من المئات، ـ ولا أقول الألوف أو الملايين ـ استوعب معنى واحداً، أو نصّاً بعينه من ذلك الإبداع؟؟

لا شك أن هناك من يرى أن الكاتب، لا يتوخّى وجود هذا الجمهور، عند كل من يقرأ الصحف أو المجلات أو حتى الكتب، بل يتوخى أو يكاد يوقن أن يكون جمهوره موجوداً بين من نسمّيهم (المثقفين). ولا بد أن ينطبق لفظ (المثقف) على الجامعيين، المؤهلين، أو من هم في طريقهم إلى المؤهّل المنشود.

من جانبي، أرجو، أن يكون هذا الجمهور، موجوداً بين هؤلاء، ولكني ـ في نفس الوقت أتساءل، عن درجة أو مدى تفاعل هؤلاء مع ما يطرح في الساحة من عطاء حملة الأقلام، الذي تتسابق على نشره الصحف والمجلات؟ وإذا كان هناك تفاعل، فما الدليل على وجوده؟؟

أخشى أن أظلم هؤلاء المثقفين إذا قلت إنهم يشبهون ما أسميه (السطوح الراكدة) والتي لا أدري السبب في ركودها، مع أن ما يلقى، لتحريكها كثير بكل مقياس.

هل أجرؤ على أن أقول إن هناك حالة (بيات)، يعانيها المثقفون،؟؟؟

وإذا كان الأمر كذلك فما السبب؟؟؟

خلوت إلى نفسي ساعة من الوقت قبل أن أجلس لكتابة هذه الكلمة وحاولت أن أجد طرف الحبل الذي يقودني إلى سبب هذا الركود، أو (البيات) بين المثقفين عندنا، فإذا بي أمام كتل كبيرة من الصخر تطوّق حياة هذا المثقف، كما تطوق قدرته الفكرية الكامنة على الحركة... حاولت أن أتبيّن نوعية هذا الصخر، وأعترف أني عجزت... غير أني أيقنت أنه هو الذي يرغم مثقفينا، على اختلاف مؤهلاتهم، على هذا البيات أو الجمود، أو عدم القدرة على التفاعل، ليس فقط مع الكاتب، أو المبدع، وإنما مع الكثير من بواعث الحركة والنشاط.

لا بد أن أنتهي، وينتهي معي القراء أيضاً، إلى أن مناهج التعليم عندنا مسؤولة عن الجانب الأعظم، من هذا الواقع، إذ ليس فيها غير «التلقين»، والتوجيه الخالي من حوافز الابتكار... مناهج تعطي ما يشبه الأوامر العسكرية، التي تفرض تنفيذ ما ترى أنه هو المطلوب لا أكثر ولا أقل... وليس هذا ما نتطلبه من حركة التعليم في جميع مراحله. التعليم ليس التلقين وإنما هو الإعداد للحركة الهادفة إلى المزيد من التطور بمعناه المشهود في الدول المتقدمة التي تذهلنا بما تحقق من نجاح، في ابتكار الكثير الذي نجده جاهزاً بين أيدينا، ولكننا نعجز حتى عن التعامل معه، ما لم نقع في أخطاء تؤدي إلى إصابته بالخلل الذي يستلزم الصيانة، التي يقوم بها متخصصون، ليسوا من المواطنين للأسف الشديد.

فإذا كان هذا هو واقع من نسميهم (مثقفين)... وإذا كان هذا هو الجمهور الذي يتجه إليه الكاتب، فإن مقولة، عدم وجود جمهور، أو مقولة (أدب بلا جمهور) تبدو صحيحة بكل معيار.

مارد الحرية. . . في مواجهة الماوية

في مجلة دورية تصدر كل ثلاثة شهور من (تايبيه)، التي اصطلحنا على أن نسميها (الصين الوطنية)، لأن الصين الكبرى هي الصين (الشعبية). . . في هذه المجلة التي تُهدى إليّ كلّما صدرت أعمال إبداعية منقولة إلى اللغة الإنجليزية من اللغة الصينية بينها الشعر، والقصة القصيرة والأخبار الأدبية في الصين الكبرى، وهي أخبار منتقاة طبعاً، تحاول المجلة أن تقول بها، إن في الصين اليوم أدباً لا يقل حيوية وقدرة على الإبداع، عن الأدب الصيني القديم الأصيل، الذي كثيراً ما نقل إلى اللغات الفرنسية والإنجليزية والروسية، وكان له قراؤه المعجبون به بين المثقفين في هذه اللغات.

في آخر عدد من هذه المجلة مجموعة من الأعمال الإبداعية التي اشتعلت بها قرائح شعراء وكتاب بعد أعمال القمع التي صدرت أوامر السلطة، بأن يقوم رجال الشرطة، وجنود الجيش بممارستها على الطلبة، والأدباء، والصحفيين، ورجال الفكر، الذين كانوا يملأون ما يسمى (ميدان السلام السماوي) في بكين، مطالبين بالحرية والديموقراطية، ولكن دون أن يحملوا أسلحة، أو حتى هراوات، بل وبدون نداءات تدعو إلى الوصول إلى مطلبهم بأي عمل من أعمال العنف. . . بل وأكثر من ذلك، إنهم قد ملأوا ذلك الميدان، جالسين على أرضه أو واقفين، كأنهم ينتظرون

استجابة السلطة، بوعد أو ببشرى تحقيق أمل طال انتظاره، منذ ارتفعت في الصين شعارات الشيوعية، كما فهمها وعمل على ترسيخها بالقوة والقهر وإراقة دماء مئات الألوف، «ماوتسي تونج»، و«شوئن ليه»، ومع تلك الشعارات الحمراء، مبادئ (الثورة الثقافية) التي أعلنها «ماو»، أو كما سمّوه (الشمس التي لا تغيب عن العيون) في عام ١٩٦٦م. وكانت أغرب ثورة في التاريخ، إذ استهدفت تصفية العناصر البورجوازية والرجعية والمنحرفة، وتحت مظلة هذا الهدف، تمت تصفية المئات من أكابر المثقفين والعلماء. وأطلقت للغوغائية الجماهيرية حرية العمل، لاجتثاث كل ما ترى أنه رجعي بورجوازي، بما في ذلك إغلاق المعاهد والجامعات، بل واعتداء الطلبة على مدير جامعة بيكين ومساعديه وأعلام الأساتذة والمدرّسين... وبلغ ما يسمى (الحرس الأحمر) المسؤول عن «حماية حمى الثورة» ومبادئها أغرب تصرفاته، بإغلاق الجامعات والمدارس لتطهيرها من رواسب البورجوازية والرجعية لمدة عام كامل.

كان تجمّع عشرات الألوف أخيراً، ومطالبتهم بالحرية والديموقراطية، الدليل على أن كل ما عاناه الشعب الصيني من الاضطهاد والطغيان، بمخالب وأنياب الشيوعية الحمراء بالغرض المجنون لترسيخها في حياته، لم ينجح في سحق تطلع الشعب إلى الحرية والديموقراطية.

ورغم أن السلطة قد استطاعت، أن تفرق تلك الجموع الضخمة من الطلاب والنخبة من المثقفين، وأن تصل عمليات القمع، إلى قتل مئات، واعتقال ألوف، والحكم بإعدام عدد آخر من الذين اتهمتهم بإثارة الشغب أو مقاومة رجال الجيش والشرطة، فإن الأعمال الإبداعية، التي فاض بها وجدان الشعراء، تؤكد أن مارد الحرية، قد انطلق من أغلاله، في (ميدان

السلام السماوي)... وأن النصر الذي حققته قوات الشرطة والجيش، في هذا الميدان على الطلاب والمثقفين، لن يعيد ذلك المارد إلى أغلاله، وأن الحرية والديموقراطية آتيتان، رغم كل ما سوف تواجهانه من العسف والجبروت والطغيان.

ولا يتسع مجال هذه الكلمة، لنقل نماذج من هذه الأعمال إلى العربية ولكن مما استوقفني ببلاغته العفوية البسيطة، التي تهامس أعماق الوجدان، قصيدة بقلم (سو شاولين) بعنوان: (قلب الديموقراطية) منها:

في ميدان السلام السماوي قلبُ
وقلب الديموقراطية
دماؤه، دماء الشعب... كل الشعب
يتدفَّق عبر الشريان الضخم في النهر الأصغر
يتدفَّق عبر الشريان الدقيق عبر نهر تامسوي
تدفَّق... تدفّق... عبر الباب الرئيسي لهذا القلب
تدفّق... ليظل هذا القلب دائم الخفقان

* * *

ولكن... لمَ تُصوب البنادق إلى هذا القلب؟؟؟
لماذا تغمد الخناجر في هذا القلب؟؟؟

* * *

طوال سبعين عاماً، كان للصين قلبها
قلب الديموقراطية... في قلب كل صيني

الشعب الصيني في الصين، يقدّم دماءه

والصيني فيما وراء البحار... يقدم هذا الدم

فحافظوا على هذه الدماء... حافظوا عليها

لأن الباب الكبير لهذا القلب... لن يغلق أبداً... والديموقراطية لن تكف عن الخفقان.

مسافات بين العالم الثالث. . . وحضارة العصر

حين أضع هذا العنوان لكلمة اليوم، أسأل نفسي أولاً: ما هو الذي يمكن أن يوصف أو يسمَّى بأنه «حضارة العصر»؟؟ وحين تتردد على ذهني مقولة: إن بين العالم الثالث، وبين هذه الحضارة مسافات، تضع هذا العالم في إطار مفهوم (التخلف) أتساءل: (هل هي مقولة صحيحة؟؟؟ هل صحيح أن العالم الثالث عالم بلا حضارة. . . غير متحضر. . . مما يستتبع أن يوصف بأنه «متخلف». . . ويعيش التخلف بمستوى أو بآخر بالنسبة لحضارة العصر؟؟)

ولا أخفي أني أشعر بالتورط في عقد إشكالية، أسلّم بأنه لا يكفي أن يتناولها مثلي منفرداً، ولذلك أجد من حق هذه الإشكالية، أن تطرح على بساط البحث وعلى أوسع نطاق ليس فقط في هذا العالم الثالث الموصوم بالتخلف، وإنما أيضاً، في العالم المتقدم، الذي تمثله في المفهوم الدارج شعوب ودول أوروبا، والولايات المتحدة واليابان. وأذهب مع رغبتي في اكتشاف ما تنطوي عليه هذه الإشكالية إلى حد التطلع إلى أن تلتفت إليها المؤسسات الأكاديمية في الجامعات، ومراكز البحوث في العالم الثالث، والعالم المتقدم على السواء.

وقد يحسن بي أن أعترف بأني أرفض التسليم بأن العالم الثالث بلا حضارة، أو غير متحضّر، لأنني أعلم، كما يعلم كل مثقف، أنه العالم

الذي استقبل الأديان السماوية الثلاثة الكبرى. وفي تاريخه الذي عرف أعرق الحضارات، ومنها حضارة مصر منذ سبعة آلاف سنة، وحضارة الصين، ولا تتخلف عنهما حضارة الهند، ولا نتجاهل حضارة الآشوريين والبابليين والفرس، فكيف يصح أن هذا العالم بأنه بلا حضارة، أو غير متحضر، أو متخلّف؟؟

هذا يعود بنا إلى السؤال الذي طرحته ابتداء، وهو ما الذي يمكن أن يوصف أو يسمّى (حضارة العصر)؟ وأنه الذي تقوم بينه وبين العالم الثالث هذه المسافات)؟؟ ويتزايد تعقيد الإشكالية، حين نتساءل في نفس الوقت، ما هي الحضارة؟؟

أمام هذا السؤال، تعود بي الذاكرة، إلى مؤلفات العالم الفرنسي (جوستاف لابون) التي نقلت إلى اللغة العربية في أوائل هذا القرن، وقد لا تخونني الذاكرة حين يتبادر إلى ذهني اسم كل من (فتحي زغلول) و(عبد الرحمن الشهبندر)، كما أجد أن تعريف (الحضارة) ظل متغيّراً لا يكاد يستقر، وإن كان هناك من رجّح أن اختراع الكتابة والتعامل مع المعادن، والوصول إلى وحدات للوزن، وأخرى للمقاييس، أو الرياضيات بوجه عام، ثم الاهتداء إلى الفوائد التي تحققها (العجلة) ومنها (العربات) التي تجرها الخيول أو الثيرة وصولاً إلى قطارات السكك الحديدية في عصر البخار الخ... مما يعني أن المجتمع البشري الذي بلغ هذا المستوى من المعرفة ـ منذ ألوف السنين ـ يمكن أن يوصف بأنه مجتمع متحضر... فالحضارة على هذا الأساس، هي (المعرفة). والمعرفة كلمة شاملة، تكاد تحيط بكل ما يحتاجه البشر للتعامل مع الحياة، في أوسع مجالاتها، وأبعد أهدافها.

وعند هذه النقطة، يمكن أن نفهم من (حضارة العصر) أنها «المعرفة» التي تميّزت بها الدول المتقدمة، ومنها بطبيعة الحال هذه «التكنولوجيا»،

التي يستوردها العالم الثالث، ويستفيد منها في حياته ولكنّه لا يزال عاجزاً عن صنعها... فعلى سبيل المثال: أنا أكتب هذه السطور على آلة كاتبة كهربائية، أي إني أتعامل مع منتج صنعته حضارة العصر، أعتمد على التعامل مع (المادة) على اختلاف أنواعها، ثم مع الكهرباء التي تمدنا بها التجهيزات الضخمة، التي نستحي أن نقول إننا قد استوردناها أيضاً من الدول المتقدمة... لقد استطعنا أن ننتج الكهرباء، وأن نمد بها مجتمعاتنا، ولكننا لم نضع التوربينات الضخمة أو حتى الصغيرة التي تدار فتعطينا هذه الطاقة الأسطورية التي تكاد تجمّد كل مصادر الرفاه والرغد التي نعيشها إذا توقفت لأي سبب من الأسباب.

هنا نواجه سؤالاً فيه ما يحز في نفوسنا ويرمضها ويوجعها، وهو ما قيمة كل موروثنا من الحضارة، رغم كل ما هو ثابت من عراقتها، ما دامت حياتنا كلها يمكن أن تصاب بالجمود والإحباط إذا حرمنا من هذه المنتجات، التي نستوردها من حضارة العصر؟؟ بالنسبة لي شخصياً أستطيع أن أكتب بالقلم، وأن أملأ عشرات الصفحات، مستغنياً عن الآلة الكاتبة... ولكني أصاب بالذهول حين يفاجئني هذا القلم الذي أمسكه بيدي، قائلاً إنه هو أيضاً منتج استوردناه من حضارة العصر... وحتى هذا الورق المصقول الأبيض... لم نصنعه... ولا نزال نلتمس لأنفسنا الأعذار والمبررات التي أعجزتنا عن صناعته... ومنها غابات الأخشاب، التي لا نجدها في بلداننا، مع أن بلدان جنوب شرق آسيا، تعتبر من أغنى بلدان العالم بالأخشاب التي يصنع منها هذا الورق.

المسافات بين العالم الثالث... وبين حضارة العصر تكاد تتجاوز طول محيط الكرة الأرضية فمتى يظن القارئ أننا نستطيع قطعها؟؟؟ بعد كم من مئات السنين؟؟

زلزال سان فرانسيسكو. . . وتنحية أريخ هونيكر

للقارئ الكريم، أن يتساءل عن العلاقة بين الزلزال الذي ضرب سان فرنسيسكو، في ولاية كاليفورنيا، وبين تنحية أريخ هونيكر من جميع مناصبه القيادية المهيمنة على ألمانيا الشرقية، بقوة طاغية جعلت الكثيرين، يستبعدون تنحيته أو يعتبرونها أمراً بعيد الاحتمال حتى وهو يرى ـ ومعه العالم ـ هجرة أو هروب ألوف الألمان من موطنهم الذي سجنوا فيه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وراء سور برلين وقبله سور الإرادة الحديدية التي طوّقت حياة الألمان في هذا الجزء من ألمانيا بطوق من التصميم على أن يظل تحت مظلة الحكم الشيوعي (الإستاليني العتيد) إلى الأبد.

بالنسبة لزلزال فرانسيسكو، فهو كارثة أكاد أزعم أنها ظلت متوقعة منذ ذلك الزلزال الذي ضرب نفس المنطقة في عام ١٩٠٦م. وأذكر أني حين قضيت في تلك المدينة التي طاب لي أن أسميها مدينة (التلال) و(البحر)، وكان في ذهني ذلك الزلزال الفاجع، لم أكن أستبعد، بين كل لحظة وأخرى، أن يتكرر، بصورة ما، على أساس ما قرأت عن حركة تباعدٍ بين شقين أو (فلقين) يمتد مئات الكيلومترات أو ألوفها من أرض القارة والمحيط الهادي. . . وفي ذلك المساء الذي اصطحبت فيه (أم ضياء) في رحلة قصيرة لرؤية ذلك الجسر الأسطورة الذي سمّوه (البوابة الذهبية)، لم يبتعد عن ذهني سؤال سخيف هو (ماذا لو حدث الزلزال المتوقّع ونحن

نمشي على هذا الجسر الأسطورة؟؟) ووجدت نفسي أُلجم لساني فلا أتحدث بهواجسي، إلى العزيزة بجانبي، لأن النتيجة ستكون الإسراع بالحجز في الطائرة إلى لوس أنجلوس أو إلى جدة، في نفس المساء. وعلى أم راسي شحنة ثقيلة من اللوم والتأنيب على أن أجيء بها إلى مكان كهذا تحف به أو تهدِّده الأخطار.

ومع هذا الزلزال الذي ضرب المنطقة أخيراً يوم الثلاثاء ١٧/١٠/١٩٨٩م جال بذهني جسر (البوابة الذهبية)، ولعلي توقعت أن ينفلق، أو يهوي في مياه الخليج، بكل جماله وهندسته الرائعة، فإذا به يصمد ولا يصاب من الزلزال بأي صدع أو شرخ... مما لا بد أن يجعل الذين أقاموه من مهندسين وتقنيين وعمال، يتمنون أن يرفعوا رؤوسهم من التراب الذي ابتلعهم منذ عشرات السنين، ليقولوا (نحن هنا)؟؟؟.

ولم أتردد، وأم ضياء تسمع وتشهد معي على الشاشة الصغيرة أخبار فاجعة الزلزال الأخير، في أن أقص عليها هواجسي في ذلك المساء منذ سنين... فالتفتت إليّ، ولم تزد على أن قالت: (كل شيء بقضاء الله وقدره)...

والحمد لله على أننا في رحاب رب البيت الذي أطعمنا من جوع وآمننا من خوف.

أما عن تنحية أريخ هونيكر، من جميع مناصبه القيادية، وهو ذلك العجوز الذي ظل ينتهج نهج (ستالين) مع أولئك الذين ضرب عليهم ذلك الطاغية طوقاً من إرادة حديدية صمّمت، على أن تقتطع من ألمانيا هذا الجزء الذي سمي (ألمانيا الشرقية) نسبة إلى دورانها في فلك الشيوعية الحمراء التي نهشت بين براثنها كل ما يسمى (أوروبا الشرقية) فإني ـ

شخصياً اعتبره حدثاً أضخم عشرات المرات من الزلزال الذي ضرب سان فرانسيسكو، أو أي زلزال يضرب أي بقعة في الأرض. وذلك لسبب بسيط جداً هو، أن أي زلزال في أي منطقة مهما كان فاجعاً رهيباً مدمراً، لا بد أن يظل محصوراً في المنطقة التي ضربها... طبيعي جداً أن نحزن، وقد تدمع عيوننا ونحن نرى أو نسمع عن مئات الضحايا، وبينهم الأطفال والنساء، ولكن يظل الحادث في نطاق المنطقة التي وقع فيها...

أما تنحية هونيكر، ذلك العجوز العنيد (بقية ستالين) عن قيادة ألمانيا الشرقية بملايينها العشرين، فإنه حدث، يزلزل ثوابت الفكر السياسي ليس فقط في المعسكر الشرقي الذي عاش يلتزم هذه الثوابت طوال الفترة منذ الحرب العالمية الثانية، وإنما في العالم الذي سمّوه: (العالم الحر)، أو المعسكر الغربي الرأسمالي والدول التي تدور في فلكه ومنه العدد الكبير من دول العالم الثالث...

زلزال سان فرانسيسكو، فاجعة، تهز حياة أميركا والأمريكيين، وتثير مشاعر الحزن الراثي عند كل إنسان بطبيعة الحال. ولكنه يظل حادثاً عابراً كمئات الحوادث المماثلة، ومنها الأعاصير والبراكين، وانهيار المباني الضخمة، وحرائق الغابات الخ... أما حادث تنحية «هونيكر»، في نفس الفترة التي ينتهي فيه حكم الحزب الشيوعي الواحد في بولندة، وخلع كل الذي حفرته ورسخته دبابات الزحف الروسي في المجر، في عام ١٩٥٩، وفتح الحدود إلى بودابست أمام الهاربين أو المهاجرين من ألمانيا الشرقية إلى ألمانيا الغربية وبالألوف... كل ذلك زلزال سياسي لا ينتهي تأثيره، بمرور الحدث أو وقوعه، بل سيظل يتفاعل، وتتناثر منه الشظايا في العالم كله، وسوف يستتبع أخطر وأهم المتغيرات، في العلاقات الدولية في

الغرب وفي الشرق على السواء كما قد يعني أن عالم ما بعد الحرب الثانية قد بدأ يختفي.

وهنا سؤال يفرض نفسه... وهو: هل كان شيء من هذا يمكن أن يحدث، لولا ظهور (جورباتشوف) بشعاري (الجلازنوت) و(البريسترويكا) في الكريملين. ورغم الأنياب الزرقاء في (البوليتبورو)... ذلك ما سوف يجيب عنه الكريملين نفسه في المستقبل القريب.

أبناؤنا والمدرّس الخصوصي

قال صديق، لا يزال ابنه في السنة الثالثة أو الرابعة الابتدائية، إنه يبحث ـ ولم يجد ـ عن مدرس خصوصي، لابنه، الذي يدرس في مدرسة تعتبر متميّزة، ولكنها ليست من المدارس الخاصة. ثم أضاف: أنا لا أستطيع أن أجلس لتدريسه، ليس لأني من الذين يهجرون البيت أغلب أيام الأسبوع ليقضوا الوقت مع الأصدقاء، ولكن لأني لا أفهم لغة الكتب التي بين يدي ابني... كل كلمة تقريباً تحتاج إلى مراجعة المنجد أو أي كتاب من كتب اللغة... وولدي يقول إن كل المطلوب منه أن (يحفظ) الدَّرس... ويبدو أن الحفظ هنا يعني (عن ظهر قلب)... والصغير يحاول، ويظل يحاول إلى أن يغلبه النوم... وكثيراً ما أجد أمّه تذرف دموعها إشفاقاً عليه، لأن المسكين، لا يستطيع أن يحفظ عن ظهر قلب أو (بالغيب) كما يسمى هذا النوع من الحفظ، ولذلك ترجوني أن أجد له مدرّساً (يحفظه) ـ بتشديد الفاء المكسورة ـ ما دامت هي ولا أنا، نستطيع أن نقوم بهذه المهمة، نظراً لجهلنا بالمفردات اللغوية من جهة، فلا نعرف كيف تلفظ، ولأننا نستكثر أن يضيع جانب من الوقت في عمل نعلم سلفاً أننا لا نتقنه ولا نفهمه، ولن يستفيد منه الصغير من جهة أخرى.

وقال صديق آخر ـ حدث أنه كان معنا ـ ولكن ما الذي تفعله المدرسة، أو المدرّس إذا كان يتعذّر على التلميذ الصغير، أن يستوعب ما

يلقى عليه أو يُلقَّنه، في المدرسة؟ فإذا بجليس آخر، يفرقع ضحكة عالية، وهو يقول: قبل أن تتساءل عن المدرسة والمدرّسين اذهب مرة لترى كم في الفصل الواحد من المدرسة، من التلاميذ الصغار أو الكبار... ثم أضاف: يا أستاذ لا يقل عدد تلاميذ الفصل الواحد عن أربعين إلى خمسين تلميذاً. فأين هو المدرّس العبقري الذي يستطيع أن يعلّم هذا العدد الكبير، في حصة واحدة، مدتها لا تتجاوز خمساً وأربعين دقيقة... بل أين هو التلميذ العبقري، الذي نطلب منه أن يستوعب وأن يفهم أو أن (يحفظ) درساً مكتوباً أصلاً بلغة تحتاج إلى خلفية لغوية واسعة، ربما يفتقر إليها، حتى التلميذ في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية... ولذلك فالحل الوحيد أمام هذا التلميذ المسكين هو أن يحفظ (بالغيب)... ليسمّع ما حفظ أو ليكتبه إذا استطاع في الامتحان الشهري، أو الأسبوعي، الذي تتقرر في ضوئه درجات النجاح أو الفشل.

من جانبي، استنكرت أمرين:

أولهما، أن تكون لغة الكتب المتواجدة في أيدي التلاميذ في هذه السن الغضة مكتوبة بالمفردات المتقعرة، أو البعيدة عن مستوى فهم التلاميذ في هذه السن بحيث يعجز عن فهمها الأب إلا بالرجوع إلى القاموس.

ثانيهما، أن يبلغ عدد التلاميذ في الفصل الواحد من ٤٥ إلى ٥٠ تلميذاً، في أي مدرسة من مدارس وزارة المعارف. وحين أقول (وزارة المعارف) فإني أعني معالي الوزير الدكتور عبد العزيز الخويطر، الذي نعلم أنه خريج جامعة كامبريدج في إنجلترا، مما يعني أنه شاهد خلال الفترة التي قضاها في إنجلترا، للحصول على مؤهل الدكتوراه... شاهد

فصول التعليم الابتدائي على الأخص، التي لا يسمح نظام التعليم هناك بأن يزيد عدد تلاميذ الفصل على ٢٠ إلى ٢٢ تلميذاً... وهذا إلى جانب أن معاليه يعرف أكثر من غيره، من رجاله ومن مئات أو ألوف المدرّسين والتربويين، أن (الحفظ عن ظهر قلب) لم يعد مطلوباً أو مرغوباً فيه، باستثناء الجزء المحدود من سور القرآن الكريم.

ثم ـ ومع الاعتذار لمعالي الوزير ـ ما الذي يضطر وزارة المعارف ـ بالنسبة للذكور ـ والرياسة العامة لتعليم البنات، ـ بالنسبة للأناث ـ إلى حشد ما يزيد على أربعين تلميذاً أو تلميذة في فصل واحد؟؟؟ وهنا أجد نفسي أتساءل عن ميزانية التعليم في المراحل التأسيسية وهي (الابتدائي، والإعدادي، والثانوي ـ كم نسبتها إلى التعليم العالي من جهة، وهل بلغ من ضآلتها أن تتعثر أو تعجز عن تأمين فصول تتناسب مع العدد المعقول أو المقبول لكل فصل... كيف يمكن أن أتصور أنا أو غيري، أن هذا هو الواقع، في المملكة العربية السعودية، التي تعد واحدة من أكثر بلدان العالم ثراء، واستمتاعاً بمستوى من الرغد والرخاء يقل نظيره في العالم؟؟

أمّا لغة الكتب التي تتواجد بين أيدي التلاميذ والتلميذات، فإني لا أستطيع أن أتحدث عنها، لأني لا أجدها اليوم... ولكن سأحاول أن أجدها وأتأملها، والكتابة عنها في مقال قادم إنشاء الله.

من جهنم البركان . . . إلى ظلال الحنان

أما البركان وجحيمه، قصفاً مدمّراً لا يبقي ولا يذر، طوالَ خمسة عشر عاماً عاشها لبنان ولا شغل لإنسانه، إلاّ دفن قتلاه، أطفالاً، وصبايا، ونساءً حبالى، وشيوخاً يبكيهم الأحفادُ وقد فقدوا بغيابهم حكاياهم في ليالي الرعب، وأحضانهم في لحظات رعدِ القصفِ الوحشي، وانهيار الأسقف والجدران تنقض عليها قذائف الصواريخ.

وأما ظلال الحنان، فهي التي لم يكن يخطر على بال ذلك الإنسان، طوال سنين هدير البركان، أنّه يمكن أن يلوذ بها في يومٍ من الأيام. . . لو قلت إن هذه الظلال من الحنان لم تستطع قط أن تجدَ لها مجردَ ثغرةٍ، تتسلّل منها، إلى حلمٍ تعصف به أعاصير الكوابيس، وقد ظلّت وحدها القادرة على أن تمارسَ رقصها المتواصل على ساحة الدماء والأشلاء، والضحايا والشهداء.

كان كلُّ يوم يمر على هذا الإنسان، أينما يكون من أقطار الدنيا التي قذفت به إليها حمم البركان، تزيده يقيناً، بأن العثور على ملاذٍ فيه نبضٌ لبشرى حلمٍ بالخلاص من كماشة كوابيس الرعب والموت، كان معجزةً لا سبيلَ إلى تحقيقها، في ظروف هربتْ من حولها حتى المعجزات.

ولكن المعجزةَ تحققت، وظلالُ الحنان امتدتْ وارفةً حنونة، تحت

غمامة مشت من الجزائر والمغرب، لتستقرَّ في الطائف من المملكة العربية السعودية... غمامةٍ رقيقة سطع من خلالها قلبُ خادم الحرمين الشريفين، عاهلِ المملكة، فهد بن عبد العزيز، بكل المعهود فيه من مشاعر الحب ونفحات السلام، فإذا بإنسان لبنان ممثلاً في أعضاء نواب برلمانه، يجد في رحاب هذا القلب الكبير، ملاذَه الآمن، وحُلمَه المرجو، وأمله الضائع... ويظل هذا القلب، يخفق بالإيمان الذي أكده حفظه الله بأن إنسان لبنان، رغم كل ما واجهه من صعاب، وما عانى من يأس، وما طوّق مسيرتَه من معوقات، هو إنسان الحضارة الذي عرفه العالم، عملاقاً قادراً على أن يتعاملَ مع السلام، وأن يعي رسالة الحب، حين تُرسلها قلوب من المشرق والمغرب، في الساحة العربية كلها... قادراً على أن يستوعب ضرورة الخروج من جحيم البركان أداءً لواجب إنقاذ الإنسان، واجبه نحو الإنسان، واستجابة لنداء أولئك الذين أرتوت الأرض من دمائهم من الأطفال، والنساء... الأطفال اليتامى والنساء الأرامل، وكلهم أبرياء لا ذنب لهم، إلاّ أنهم (إنسان لبنان).

تحققت المعجزة، في الطائف من المملكة العربية السعودية، فكانت الحدث التاريخي الذي لن ينساه إنسان لبنان... بل لن تنساه الإنسانية كلّها، التي شهدت النموذج الفريد لما يستطيع أن يصنعه ويحققه، ملك، عربي، لإنقاذ بلدٍ من طاحونة حرب واقتتال وتخريب ودمار... بما بذل من جهد، وما سهر عليه من هموم بلد، أكد في حديثه إلى البرلمانيين أنه لم يفعل أكثر من واجب، والواجب في منطقه يستغني، عن الشكر والثناء، رغم كل ما لهجت به ألسنة الحضور من اعتراف بالفضل، وتقدير للجهد، مع وعد وعهد بأن يبذلوا كل ما يسعهم من الجهد، لتحقيق الاتفاق التاريخي الكبير.

تحققت المعجزة التي لم يكن يحلم بتحقيقها، حتى الذين كانوا يتابعون الأحداث بل حتى الذين، كانوا، في أجواء الطائف من الصحفيين وقادة الرأي من لبنانيين وأجانب.

وتلك منّة من الله بها على هذه الأرض... فالحمد لله.

لحن الذوق الشبابي... في أغنية (من غير ليه)

لا تزال الأغنية التي غناها الأستاذ محمد عبد الوهاب بعد توقفه عن الغناء أكثر من ثلاثين عاماً... لا تزال تستعمر أسواق الكاسيت، والتلهف على سماعها في مصر، وربما في غيرها من العالم العربي، يتزايد يوماً بعد يوم. ولعل مما رفع درجة الإقبال عليها، القضية التي أقامها ضده من وجد فيها تجاوزاً للثوابت في العقيدة الإسلامية، وطالب بسحبها ومصادرة أشرطتها من الأسواق،... ومع أني قد سمعت الأغنية، وأعجبت بصوت الأستاذ وهو في هذه المرحلة من العمر، ولكن كان ما أحسست به أن تلحينها قد تخلف عن بعض المعاني التي جاءت في كلمات شاعرها الراحل مرسي جميل عزيز، كما أن توزيعها الأوركسترالي ذهب إلى محاورة مسايرة الذوق الشبابي الدارج، وهو ما يبدو لي أن الأستاذ قد فشل في تحقيقه.

وبعض القراء قد يرفضون أن أتحدث أو أكتب عن الموسيقى إذ يرون أن للسن العالية التي بلغتها إطاراً من اللياقة يستصعبون أن أخرج عنه، أو أن أتجاوز حدوده... وفي مثل هذه النظرة يكمن إحساس كونته الرواسب التقليدية التي تضع الموسيقى ومعها الكثير من الفنون في قائمة المكروه أو المعيب أو حتى المحظور الممنوع. ومع أني أفضل أن ألتزم بالحدود فلا أتجاوزها، وبالقيود فلا أحاول كسرها، فإني كثيراً ما أتساءل: كيف يا ترى

استطاعت الموسيقى خاصة أن تفرض وجودها على الإنسان؟؟ بل ماذا نسمي تغريد الطير، وشقشقة العصفور، وحفيف الأشجار، وخرير المياه في الأودية، وبين الجداول والغدران، وزفيف الرياح، وحتى نقيق الضفادع، وصرير الجنادب في هدأة الليل؟؟ إنها كلها موسيقى الكون، وفي تناسقها وتوافقها وانسجامها مع مشاعر السامع مَوْسقة للحياة فيها من الإبداع بقدر ما فيها من عفوية الأداء. ثم هذه الأوزان في الشعر العربي، وغير العربي، بل هذا الجرْس (الخفي المبين) في روائع النثر في أي لغة من لغات العالم، وتلك الغنة الناعمة الهائمة في حديث عذراء رعبوب، أو مناغاة طفل محبوب، أو في هديل قمرية تستقبل تباشير الفجر. . . ماذا كل ذلك، إن لم يكن العناصر التي فرضت الموسيقى على الإنسان؟

ما علينا إذن، أن يرفض بعض القراء هذا الحديث يخوض فيه من طوى الأيام والسنين وتجاوز قمة السبعين، فإن ما بدا لي أن أعالجه اليوم، هو ما تعبّر عنه الموسيقى بعد الخمسينات تقريباً من هذا القرن. وأنا أعني هذه الموسيقى التي يتهافت عليها، ويكاد لا يطيق أن يسمع سواها، الشباب والنشء في كل بلد من بلدان العالم. ولا أعرف ماذا أسميها، وإن كان ابن السابعة اليوم يعرف لها الأسماء والأنواع، ويحس بما يزعمون لها من الروعة والإبداع.

فلماذا يا ترى يتهافت الشباب والنشء ـ ومنذ بداية الخمسينات من هذا القرن ـ على هذا النوع من الموسيقى؟؟ وإذا لم ننس أن مواليد الخمسينات قد بلغوا الأربعين من العمر، ولا يزالون يتهافتون على نفس النوع، فالأرجح أنهم سيظلون معها حتى ولو بلغوا الثمانين والدليل على ذلك لحن هذه الأغنية التي سمعناها من الأستاذ محمد عبد الوهاب.

عندي لذلك تعليل قد يكون عفوياً بسيطاً، ولكن لا أستبعد أن يوافقني عليه العلماء الأكاديميون... وهو أن العالم، في أعقاب الحرب العالمية الثانية، يعيش الرعب والفزع وتترسب في أغوار نفسه مخاوفه الدائمة من تلك الحرب الذرية التي إذا نشبت فلن تبقى ولن تذر... وكما كان سكان الكهوف والمغاور يعيشون الخوف والرعب من الليل، ومن كل ما ظل يهددهم بالفناء من الأخطار، فإن سكان الدارات والقصور اليوم يعيشون الرعب الكامن في كل لحظة من العمر، وفي كل خلجة من خلجات النفس... وهذه الموسيقى هي الأقدر بضجيجها وصخبها على التعبير عن هذا الرعب والفزع... فهي رد الفعل للانهيار النفسي الذي يعانيه الإنسان، وهي الانعكاس العفوي للزلزال العنيف الذي لا يجد متنفسه إلا في الصخب والضجيج. ولعل مما يؤسف له أن (من غير ليه) لم تحقق ما يتلهف عليه الشباب.

علي ابن حسن الشاعر . . . شاعر

عرفناه رجلاً عسكرياً تدرّج حتى وصل إلى رتبة الفريق، ثم سفيراً للمملكة في جمهورية لبنان طوال سنين، ومن هذه السنين الفترة التي بدأ فيها ما كان يسمى (الحوادث) التي أخذت تتطور لتصبح تلك الحرب الطاحنة، بمختلف أسبابها، ومختلف الأيدي التي تحرّك نعرات الطائفية بين طوائفها. ثم عرفناه وزيراً للإعلام في مرحلة من مسيرة هذا الإعلام أعقبت مرحلة الطفرة، وقد أخذت تتراجع إلى مرحلة لا بد أن نسميها (مرحلة الترشيد). وهي مرحلة لم تخل من حاجة الإعلام إلى الشخصية التي تتوافر لها وفيها الخبرة بتطورات الأحداث وردود أفعالها، في العالم العربي. وكان معالي الأستاذ علي ابن حسن الشاعر، هذه الشخصية التي تتمتع بهذه الخبرة، وقد اكتسبها بوعيه وذكائه الحاد، في موقعه الديبلوماسي المرموق في لبنان. وقد لا نذهب بعيداً إذا قلنا إن لبنان كان ـ ولا يزال ـ طوال سنين حقلاً ظلت تتنامى فيه وتنعكس في مجتمعه جميع المتغيرات العربية والدولية بما يكمن في هذه المتغيرات من نوابض تحريك الراكد من سطوحها وإدارة دفة السفينة في اتجاه تهيمن عليه مختلف القوى الدولية الكبرى من الغرب والشرق معاً، وفي وقت واحد، إلى جانب قوى عربية تدور في هذا الفلك أو ذاك، بطبيعة واقعها وموقعها من الفلكين الكبيرين. وهذا لا يعني بالنسبة لشخصية الديبلوماسي بخلفيته

العسكرية الضخمة، أقل من اكتناز المعلومات التي يتيحها هذا الحقل الخصب، ثم تحليلها وحساب نتائجها وانعكاساتها على الواقع ثم، أسلوب التصرف في ضوئها عند اللزوم.

ومن هنا، فإن مسؤوليته عن وزارة الإعلام في المملكة وقد أسندها إليه خادم الحرمين الشريفين، الملك فهد بن عبد العزيز، حفظه الله، هي المسؤولية القادرة بخبرتها وبتوجيه العاهل العظيم، على مواجهة متطلبات الإعلام في الساحة، عربياً ودولياً، بكفاءة مرموقة ومشهودة يصح معها أن نقول إنه الرجل المناسب، في الموقع المناسب.

أما أن (علي بن حسن الشاعر) شاعرٌ، فذلك ما اكتشفته وأحسست به وأنا أراه وأسمعه يلقي كلمته في أعقاب لقاء البرلمانيين اللبنانيين، بخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، بعد وصولهم إلى ذلك الاتفاق التاريخي، الذي استغرق ثلاثة وعشرين يوماً، في مدينة الطائف، كان كل يوم من هذه الأيام، حافلاً بالحوار الذي تفتّحت معه القلوب، واتسعت الصدور، لطرح ما لعله لم يسبق أن طرح من القضايا والهموم، وكان فيه الاقتراب، من صميم المشكل اللبناني، الذي انتهى إلى ذلك الاتفاق.

كانت كلمة معالي الأستاذ علي بن حسن الشاعر، إبداعاً رائعاً تساءلت وأنا أصغي إليه، يفتتح حديثه، بوقفات عند مرائي الجمال التي عاشها، وأحسّ أثرها، وتناغم مع تغريد عصافيرها، وأريج زهورها، وعبق أشجار الصنوبر في جبالها وبراريها... تساءلت: ترى هل وجد، في زحام مشاغله ومسؤولياته الدبلوماسية، الوقت الذي يسمح له بأن يكتب شعراً؟؟... كلا... لم يكن الحديث الذي ألقاه «قصيدة شعر»، ولكنه ـ

مع ذلك كان في كل جملة، يؤكد أنه ينهل من ينبوع نثر، يتدفّق إبداعاً، هو الشعر وإن لم يكن قصيدة ذات أوزان وقواف.

وبعد... فإنني أعلم، كيف يتلقى الذين يقرأون هذه الكلمة، رأيي في حديث الوزير، وقد يذهب بعضهم، إلى أنه أسلوب في الاسترضاء والتحبب، مما يدخل في مفهوم (النفاق). لأنّه الوزير!!! ولا أجد بدًّا من أن أقول إن علاقتي به، لم تتجاوز قط حد التحية العابرة، ولم يحدث ـ ولن يحدث ـ أن طلبت مساعدته، في أي مطلب، إذْ ندر، أن كان لي نشاط، من أي نوع طوال السنين التي مرّت، باستثناء النادر من الاستجابة لمقابلة يعقدها بعض المذيعين في التلفزيون.

ثم ـ وهو الأهم ـ ما الذي يمكن أن تضيفه هذه الكلمة، إلى ما يتمتع به من مكانة، أقل المعروف منها أنّه المتحدّث عمّا يتم في جلسات مجلس الوزراء، التي تنعقد برياسة عاهلنا الحبيب... ممّا يغنيه عن الثناء والإطراء... ولا يغني مثلي عن أن يعبّر عن إعجابه بالكلمة الشاعرة، ومن لها غير أمثالي من الكاتبين.

فرائد الدكتور عبد العزيز شرف. . . والكاتبة انتصار العقيل

قد يكون ممّا يُسعِد الكاتبة «انتصار العقيل»، أو يطمئنها على الأقل ـ أني سمعت من أحد الناشرين عندنا، أن درجة رواج كتابها ـ أو كتبها ـ تتقدم بنسبة عالية على درجة رواج الكثير من الكتب التي تصدرها مختلف دور النشر في المملكة، أو في دول مجلس التعاون الخليجي. ولعلّي أخشى أن تبادرني الكاتبة، بأني لم آت بجديد يبلغ حد إسعادها أو طمأنتها، لأنها تعلم أن هذا الرواج كان من نصيب كتابها الأول بعنوان (فيروس الحب). . . وقد علّل الناشر لهذا الرواج، أن القراء لم يعودوا يقبلون على اقتناء الكثير مما يصدر أو يتواجد في المكتبات، لأنهم ـ أو أغلبهم ـ يعايشون مشاعر وانفعالات الوجدان، ويعلق الناشر: (وهم معذورون. . . لأنهم حين يغادرون بوابات الجامعات بالمؤهّل الذي حملوه، يكونون في حالة تشبُّع أو تخمة من المواد التي ظلوا سنوات من زهرة العمر، يطالبون باستيعابها، ركضاً وراء الدرجة التي لو هبطت، هبط معها المصير، ليرتفع عدد السنين التي تنقضي من هذا العمر وراء الأبواب. فمن طبيعة الأشياء، أن يقبلوا على ما يُهامسهم، من توهّج الوجدان ورفيفه، وعلى الأخص حين تصدر المُهامَسة من قلم (كاتبة) قرأوا لها (فيروس الحب)، الذي أهدته بأرق عبارة وأرشق أسلوب، إلى «نفسها». . . أو كما قالت: (إلى هذه النفس التي ما اعتادت أن يهديها أحد

شيئاً، ولذلك فهي تجمع أفراحها القليلة ـ جداً ـ وأحزانها الكثيرة ـ جداً ـ فتهدي كل حرف حب، وكل حرف حنان إليها... إلى نفسها... ولعلّ هؤلاء القرّاء لم ينسوا بعد أنها التي قالت بجرأة مشحونة بالتحدي، على صفحة الغلاف الأخيرة من (فيروس الحب): ـ (لا يهمني أن يقول الناس عني إني نسيت أبجدية اللغة... كل ما يهمني أن يدرك حبيبي أن «عيني» تنظم الشعر فيه بمليون لغة ولغة)... وكأنها تستدرك حين تضيف ـ (لا يهمني أن يحكم الناس أن حروفي ناقصة... ليست مثل حروف باقي البشر... حسبي أن حروف اسم حبيبي الأربعة هي لغة «الضاد» في عالمي أنا...) كما لم ينسوا ـ ولا ينبغي لهم أن ينسوا ـ (امرأة هشة) ـ «ص ١٠٩» ـ إذ ماذا يمكن أن يهامس وجدانهم ومشاعرهم أكثر من أن (الكاتبة) تقول: (أنا ما قدّمت له جسداً... إنما قدمت له روحاً، فإن ذهبت اليوم إليه... هل يعقل أن أسترجع روحاً هي من أجله قد خلقت).

أما كتابها الأخير (موانىء بلا أرصفة) الذي كدت لا أصدّق أنه قد طبع بمطابع دار البلاد... إذ بدا لي كأن الطباعة في هذه المطابع، قد تجاوزت المألوف من الإتقان بلمسات الفن... وأجدني مع الإعجاب بهذا المستوى من الإتقان في الإخراج، أقول: إن ما استوقفني لحظات، ليس صورة هذا الوجه على صفحة الغلاف الأولى، بل هذا «الشَّعر» الذي أبدع المخرج، في السماح له بأن يطل على الصفحة الأخيرة من الغلاف... إذ يحملك على أن تطلق لخيالك حقّه في أن يرى لهذا «الشَّعر» عشرات الوجوه لحسناوات اختزنتها الذاكرة أو تمنّت أن تراها... وما أكثر ما تتمنّى... وما أكثر ما تعصف رياح الواقع بالتّمنيات والأمنيات.

وأتجاوز اليوم، إهداءها الرقيق، الذي قالت: (كم يسعدني أن تتخذ في موانئ بلا أرصفة، أيكة يستريح فيها فكرُك... ما بين الحين والحين)

كما أتجاوز مقدمة الأستاذ عبد الله عبد الجبار التي تستحق وحدها أكثر من وقفة. . . لأقف عند ما يُطلَق عليه في جريدة الأهرام، (شوارد) الدكتور عبد العزيز شرف. . . ولا يتّسع مجال هذه الكلمة لتحديد معنى الشاردة أو الشوارد، إذْ كتب الدكتور في الأهرام مقالاً بعنوان: (أدب نسائي، وأدب غضب سيبويه). . . وما كان ليلفت النظر إلى أنه يكتب عن «موانئ بلا أرصفة»، لولا صورة غلاف هذا الكتاب. . . وليغفر لي الدكتور، أن أقول إنه قد ضايقني، بهذا الاستعراض الواسع الطويل والعريض للكثير من التفاتاته «الموسوعية» التي انتهت ببضعة أسطر عن «الأديبة انتصار العقيل». ولا أجد في المقال معنى الشاردة أو الشوارد. . . باستثناء هذا الاستعراض الموسع. . .

ولكن الأهرام، قدّمت في عددها ١٩٨٩/١٠/٢٩، قصيدة للدكتور شرف بعنوان (هاتف) أسرعت أقرؤها، قبل غيرها من مواد هذا العدد، وفي ذهني مقاله ذلك، ومرة أخرى استميح الدكتور عذراً في أن أقول، إنه يحرج صدر أي ناقد، بمثل هذا الشعر الذي كدت أستبعد أن يكون كاتبه هذا الأستاذ الكبير. الذي علمت في القاهرة إنه المسؤول عن الصفحة الأدبية في الأهرام.

ومرة أخرى. . . لا أجد ما يمنع أن أقول، إن هذه القصيدة لا تعد في الشوارد، بل يصعب أن نرتضيها منسوبةً إلى الدكتور الكبير بل حتى لواحد من تلاميذه.

أما نص القصيدة، فلا يتسع له مجال هذه الكلمة، ولذلك فقد يُحسنُ المسؤول عن (ثقافة اليوم) في هذه الجريدة إذا حاول نشره في متابعاته، ولمتذوقي الشعر عندنا أن يقولوا: أين الإبداع في هذا الخواء؟!

أن تكون موجوداً. . . لا يعني أنك موجود

بين ما يسمّى (المسوَّدة) من أوراقي القديمة، التي اختزنتها الأضابير طوال أكثر من عشر سنوات، وجدت كلمة بالعنوان الذي يُروِّسُ كلمة اليوم. . . ولا أدري إن كانت هذه الكلمة قد نشرت في أي جريدة، من جرائد تلك الأيام، أم أنها ظلّت (معوّدة)، فلم (تُبيَّض) ولم تر النور ـ إذا كان النور هو النشر في الصحف أو بين دفتي كتاب. . . وأعترف أني، أعجبت بالكلمة، وبدا لي أني كنت ـ أيامها ـ أقدر على ما أسميه (إبداعاً) وإن لم يكن شعراً موزوناً مقفّى أو حُراً. . . وتقول الكلمة:

أن تكون موجوداً على ظهر الأرض لا يعني بالضرورة أنك موجود فعلاً. . . وحتى لو كنت تتمتّع بكل ما تحب أن تتمتَّع به من صحة ونشاط، وحركة واضطراب، وأخذ ورد، وانسياح يمتد ألوف الكيلومترات طولاً وعرضاً، وفي جميع الاتجاهات. . . بل حتى لو كنت تعيش مستوى من الرغد والرفاه، والتدليل والبلهنية. . . وفي متناول يدك أن تتصل بمن تشاء في هذا العالم من أقصاه إلى أقصاه. . . حتى لو كان كل ذلك يتم، دون أي نقص ممّا ألفت أن يتاح لك، فإن ذلك لا يعني أنك موجود فعلاً.

ذلك لأن وجودك الفعلي لا يتم إلا إذا غمرك إحساس باتصال

الوشائج بينك وبين (مَنْ) تحب، وما تحب... بينك وبين هذا العصفور الذي ألفتَ أن تراه يتنقل بين موقع وآخر، ولا يبخل أن يسمعك جملةً من موسيقاه... أو بينك وبين هذه القطة، التي لا تكاد تراك حتى تستيقظ من تهويمها الطويل، فتنهض لتتمطّى وتتثاءب، وكأنها الغادة الحسناء تستقبل فارسها بدفقة من الدلع والدلال... بينك وبين المقعد العتيق الذي ظل يمتص وعْثاءَك وشحنةَ متاعبك أعواماً مديدة من العمر، بحيث أصبح وحده المتخصّص في معرفة ما عانيت في يومك، وما أنت محتاج إليه من استرخاء وتهويم... ثم بينك وبين هذه الآلة الكاتبة، التي طالما سهرت معك، وتحت أناملك تسجّل ما يزدحم به ذهنُك من أفكار، لا يعنيها في شيء أن تكون ذات وزن، وقدرة على الحياة، أو أن تكون مجرد هذْر وهراء... بينك وبين هذا المصباح الذي يحتويك ومعك خيط الدخان يرتفع من السيجارة التي تكاد لا تنطفئ إلا لتشعل أختها، فإذا تنفس الفجر في نهاية ليلة لا تدري كيف التهمها الزمن، ونهضت عن مكانك، وجدت ذلك الخيط الرفيع من الدخان قد ملأ فضاء الغرفة رغم كل ما يمتصه جهاز التكييف... وشحن رئتيك إلى حد يكاد يكتم أنفاسك... ولعلك لم تنس قط ما ينذرك به الطب والأطباء من علاقة هذا الدخان بمرض السرطان... ولكنك لا تنسى أيضاً إحساسك باتصال الوشيجة بينك وبينه طوال ما يزيد على نصف قرن من الزمان فتسقط ببلاهة وغباء ـ أو ببراعة وذكاء ـ حساب كل خطر... فتمد يدك إلى «الولاعة» تشعل بها سيجارة تظل بين شفتيك، حتى وأنت تتوضأ للصلاة.

أما (مَنْ) تحب فإنك لا تشعر بنضوب الحياة وجفافها، بل بوحشة كل فراديسها ومرابع أنسها إلا إذا فارقت من تحب... وحتى معنى الجمال أو أروع صوره وأكثرها سحراً وفتنة وعصفاً باللب، تفقد عنصر الحياة فيها

حين (تغيب هي) أو يغيب عنك من تحب. وقد ينبغي أن تبدّد انفعالك أو دهشتك، وأنت تسمع عن (زوج) غادةٍ من ربّات الحسن، تشع فتنة وتسطع سحراً، وتموج دلاً وتيهاً... فلا يربط هذا (الزوج) بهذا الكنز من الجمال سوى التزامات (العقد الشرعي) ـ وقد لا يفي بها، ويلتمس السبل للتحلّ منها، لأنه (يحب)... والتي يحبها أقرب إلى القبح، ولكنه يحبها بمنطقه الخاص... ومعاييره الخاصة، فهو الشقي إذا غابت عنه، وهو الضائع إذا لم يشعر بوجودها حوله... وهو الحزين متفطر القلب، ممزّق الأعصاب، إذا ألَمَّ بها عارض من وعكة أو طارئ من الأحداث.

وبعد،

فإني لأتساءل عن باعثٍ لهذا الكلام، ولا أجد إلاّ أنها تهويمات هذه المرحلة من العمر التي تميل فيها النفس إلى الاستقرار والاسترخاء... ويستبد بها الشغف بما و(مَنْ) أحبّت وألفت إلى الحد الذي يجعلني لا أشعر بالوجود، إلا إذا تحقق لي هذا الذي خبطت فيه من مشاعر الوجود.

الإعلام العربي وراء الأسوار

لقد سمع الدكتور فهد العرابي الحارثي في الندوة التي ترأسها في مؤتمر التنظيمات الأهلية في القاهرة، الذي دعا إليه صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبد العزيز في القاهرة وكانت عن الإعلام... لقد سمع الكثير الصريح من آراء الحضور ليس عن إقليمية الإعلام العربي فحسب. وإنما عن علله وقصوره والمسؤوليات التي عجز عن تحقيقها ولا تزال ملقاة على عاتقه حتى اليوم.

ولقد سمعت معه والتزمت الصمت الذي لاحظه «الرئيس» وسألني عن سببه... واذكر أني قلت له. إن الكثير مما قيل كان يتحسب ويحذر رغم شحنات النقد فيه... وبقي في نفسي أن أقول اليوم كلمتي عن هذا الإعلام وراء الأسوار.

وليس من المجازفة أن يقال إن ما تواجهه قضايانا المصيرية من تحد وما تعانيه من غموض يستتبع بطبيعته التجاهل والإهمال على الصعيد الجماهيري الواسع وعلى الأخص بين شعوب الدول المتقدمة الكبرى ـ كان ولا يزال نتيجة لكساح الإعلام العربي وعجزه عن اقتحام أسوار الإقليمية إلى ما وراءها من آفاق العالم.

ومحنة العالم العربي بإعلامه المحلي أو الإقليمي كانت ـ ولعلها

ستظل ـ نتيجة تسخير أجهزة الإعلام لترسيخ أهداف أنظمة معينة. وبغض النظر عن صلاح هذه الأنظمة أو فسادها، وعن الصدق في مضامين هذه الأهداف، أو تزييفها وتضليلها، بالنسبة لما تردده وتدعو إليه، فإن الواقع المحكوم بمخططات هذه الأنظمة وأغراضها، يجعل من الإعلام العربي مجرد وسيلة تعطيل قدرة الجماهير على التطلع إلى الأفضل والأصدق، والأكثر وفاء لمطالبها وتحقيقاً لمصالحها.

ولا بد لنا أن نعترف بأن أجهزة الإعلام في كل بلد عربي قد نجحت في الوصول إلى الأهداف المنشودة، إذ استطاعت أن ترسخ في وعي الجماهير حالة الرضى والقبول، بل وحتى الترحيب بكل شعار ترفعه ـ وما أكثر ما رفع من شعارات، بحيث قدمت لنا تجارب ما يقرب من أربعة عقود من السنين الواقع الذي نعيشه اليوم، بكل ما فيه من تهتك، وبكل ما جر إليه من خذلان وضياع، أقرب الشواهد عليه ـ إن كان يحتاج إلى شاهد ـ هو موقف المراوحة أو حتى الجمود في وجه تحديات العدو واستهتاره على كامل الأرض التي اغتصبها، دون أن نحاول تحرير ذرة من ترابها، بينما تواصل أجهزة الإعلام النفخ في الأبواق، والضرب على الطبول، والاستمرار في لعب نفس الأدوار، التي ظلت تلعبها، منذ كانت مسرحية رفع هذه الشعارات هي السبيل إلى ضمان الاستقرار.

وإذا كان الإعلام العربي قد أثبت نجاحه الكاسح إقليمياً، فإنه قد أعطانا المؤشر القوي على فعاليته وقدرته الفائقة على ما يرسم له ويخطط من أهداف... وليس في هذا من جديد يستحق الذكر في الواقع، إذ ليس من يجهل أن الإعلام واحد من أخطر الأسلحة وأقدرها على تحقيق الأهداف المتوخاة، إذا توافرت لتوجيهه وإدارة أجهزته عناصر الخبرة

والذكاء وما يسمى (النفس الطويل)، ونجاح الإعلام الإقليمي قد يتيح لنا أن نقول إننا لا نفتقر إلى الخبرة ولا إلى الذكاء والدهاء، ولكن الفرق بيننا، وبين العدو، أننا التزمنا الإقليمية الضيقة، وكرسنا كل جهدنا لإقناع جماهير المواطنين بشعاراتنا، وبالتالي، صرفها عن مطلب تحرير الأرض المغتصبة، بينما ظل العدو يمارس على أهلها أعمال القتل والاعتقال والتشريد والإذلال.

والغريب في واقعنا الإعلامي، أننا لم نجهل قط، أن اللوبي الصهيوني في أميركا ـ على سبيل المثال ـ واحد من أجهزة إعلام العدو، وأن هذا اللوبي قد استطاع دائماً أن يهزم كل محاولة يشعر أن الولايات المتحدة الأمريكية يمكن أن تقوم بها لصالح قضايانا ولا نجهل أيضاً أن الأساس الذي يبني عليه هذا اللوبي زحفه الكاسح، إلى جانب الخبرة والدهاء والمكر، هو (المال)، يتسلل إلى كل وسيلة من وسائل الإعلام في كل ما له علاقة بسياسة أميركا في الشرق الأوسط.

فإذا قلنا (المال)، فإننا نواجه على الفور مسؤوليتنا التي قد لا نبالغ إذا قلنا إننا لم نكن قط قادرين على تحقيقها كما نقدر اليوم، لأن المال لم يعد مشكلة بالنسبة للعالم العربي ليس لأن كل دولة تتمتع بالثراء الذي يتمتع به بعضها، وإنما لأن هذا البعض لا يبخل أبداً بالعطاء أداء للواجب وتطلعاً إلى دعم كل جهد يستهدف تحرير الأرض.

فليس هناك إذن ما يمنع أن يخفف الإعلام العربي من إقليميته، وأن ينطلق إلى الآفاق العالمية، . . . وليست الدول وحدها مسؤولة عن تحقيق مثل هذه الخطوات الحاسمة، . . . ففي عالمنا العربي اليوم، من الأثرياء من اشترى بنوكاً بكامل ما لها وما عليها. فمن المفروغ منه أن أي واحد

من هؤلاء يستطيع أن يشتري ألوف الأسهم التي تمول شركات الإذاعة والصحافة والتلفزيون ليس في الولايات المتحدة وحدها وإنما في أي عاصمة من عواصم الدول الصناعية الكبرى التي تتحكم في كل قضية من قضايانا المصيرية وأعظمها اليوم وغداً، انتفاضة الشعب الفلسطيني الذي تسلح بحجارة الأرض المحتلة يرجم بها هذا العدو الذي يقتنص بالرصاص أرواح المئات، ويعتقل بقواته الغاشمة عشرات الألوف، حتى من الصبية والنساء والأطفال.

أتساءل، مع الذين يتساءلون عن غياب الإعلام العربي عالمياً متى يتخطى هذا الإعلام حواجز الإقليمية أو أسوارها، ليقتحم الآفاق العالمية، وليعلم الأمريكي الذي لا يعرف عن الشرق الأوسط إلا إسرائيل (المتحضرة والمتقدمة) وسط شعوب بدائية متوحشة مطلبها الأعظم والأهم القضاء عليها... ليعلم هذا الأميركي أن البدائية المتوحشة الوالغة في دماء الأبرياء هي إسرائيل، وأن الشعوب العربية من حولها لا تطلب سوى حق الشعب الفلسطيني في أرضه لا أكثر... ولا أقل.

أتساءل... ولا أدري من يمكن أن يجيب.

جورج أورويل. . . والعالم عام ١٩٨٤

كثير ممّا ينشر في صحفنا ومجلاتنا ويتاح لي أحياناً أن أطّلع عليه، من عطاء شبابنا يستوقفني، إعجاباً، ويذكرني في نفس الوقت بأيام مضت، كانت تطفر بي الفرحة استبشاراً بمن سوف تستقبله ساحة الأدب من أبنائنا الذين كنت ألمح فيما ينشر لهم بين الحين والحين من مقالات فيها مع نبض الفكر ـ وهو الأهم ـ تبرعُم النّوْر وبُشرى تفتحه وازدهاره. . . ومن هذا الكثير من عطاء الشباب ما لا يتاح لي الاطّلاع عليه، ليس زهداً فيه أو قلة احتفال بقيمته، وإنما لكثرته التي لم تعد تتناسب مع المتاح من الوقت بالنسبة لي.

ويوم عدت من القاهرة منذ أسبوع، هالني ما وجدته على مكتبي، من قصاصات الصحف يُعدها في العادة من يساعدني، ويدرك أنها قد يكون فيها ما ينبغي أن أطّلع عليه. . . ولا أخفي أني عدت من رحلة الأسبوع الذي قضيته في القاهرة مرهقاً نتيجة لما كنت عاكفاً على قراءته من البحوث التي تقدم بها المتحدثون في المؤتمر الضخم الذي دعا إلى انعقاده صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبد العزيز في القاهرة حول: (التنظيمات الأهلية العربية).

والحديث عن هذا المؤتمر الكبير بكل معيار يطول، وقد لا تكون

كلمةُ اليوم مجالَه خصوصاً وإني قد ارتبطت بموضوع (جورج اورويل. . . والعالم كما رآه في عام ١٩٨٤). وهو الذي وجدت بين قصاصات الصحف اليوم صفحة بكاملها من ملحق الأربعاء من جريدة المدينة المنوّرة، مُروَّسةً بمانشيت جانبي، وبكلمات بخط عريض تقول: (الأب عزيز والعالم عام ١٩٨٤) وتحت المانشيت صورتي مكبّرة، تغطي فراغ ثلث الصفحة. ووجدت نفسي أتساءل قبل قراءة الموضوع: ترى هل هو الاهتمام بجورج أورويل صاحب كتاب (العالم عام ١٩٨٤؟؟. . . أم هي حفاوة الأربعاء بكاتب المقال، وهو الأستاذ خالد علي المطرفي؟، أم بما هو أهم، وهو الموضوع الذي عالجه هذا الكاتب، من أبنائنا الذين ألمح فيما يكتبون نبض الفكر، وتبرعم النوْر وبشرى، تفتحه وازدهاره؟؟؟ وإذ توّج الكاتبُ الصفحة بصورة لغلافين للكتاب: أحدهما لترجمتي التي نشرتها (تهامة)، في عام ١٩٨٤م، والأخرى لترجمة قام بها كاتبان مصريان هما: (شفيق أسعد فريد. . . وعبد الحميد محبوب) وراجعها (عبد الرحيم رشوان) فقد وجدت أني لست محتاجاً بعد ذلك إلى فهم ما أراد الكاتب أن يقوله. . . لأنه موضوع سبقه إليه، ومنذ صدور ترجمتي للكتاب، قارئ من قراء أو من كتاب جريدة الندوة الغراء، اتصل بي هاتفياً، وأخبرني أن الكتاب قد سبق أن تُرجم في مصر ومنذ أكثر من عشرين عاماً ولعلّه استأذنني في أن ينشر ذلك، فرحّبت بأن يَنْشر، ورجوته في نفس الوقت أن يتكرم بتزويدي بنسخة من الكتاب للاطلاع عليها وإعادتها. . . وقد فعل مشكوراً، وهي نفس النسخة التي نشر الأستاذ المطرفي صورة غلافها في مقاله. . . والأعجب من ذلك، وقبل مضي عشرة أيام تقريباً من حديث محرر الندوة اتصل بي ـ كما أذكر الآن ـ الدكتور عبد الجليل طاشكندي وأخبرني أن الكتاب سبق أن نقله إلى العربية كاتب ذكر اسمه من لبنان،

ومنذ سنين. . . وتفضل الدكتور فأرسل إليّ نسخة أرجّح أنها (مصورة).

من هنا قد يرى الأستاذ المطرفي أن الموضوع ليس فيه ما يستحق أن يوضع في هذا الإطار من التلميع، أو أن يجد فيه اكتشافاً يبذل في عرضه كل هذا الجهد ليشد انتباه القرّاء إليه. . . ومع ذلك فقد اعتبرُها فرصة لأذكر أن علاقتي بالكتاب بدأت يوم أهداه إليَّ صديق عاد من لندن، وهو منفعل بما قرأه من أحداث ومن صور الإرهاب ووقائعه، وعكفت على قراءته، وخطر لي أن أنقله إلى العربية لأننا كنا نقترب من عام ١٩٨٤م. . . وتفرغت للترجمة طوال ما يقرب من سنتين، ثم دفعته إلى تهامة لتقوم بإصداره ونشره. . . ولكن، نظراً لأن النسخة، التي أهداها إليّ الصديق كانت طبعة شعبية مما يسمى (Paper Back) فقد حرصت على أن أحصل على (الأعمال الكاملة) لجورج أورويل لأطمئن إلى أن النسخة التي ترجمتها ليست ناقصة أو مختصرة. . . وقد سعدت بالأعمال الكاملة لهذا الكاتب، إذ وجدت فيها مقدمة موسَّعة عن حياة جورج أورويل استفدت منها في كتابة المقدمة الطويلة التي صدّرت بها الكتاب.

ولقد كان الخطأ الذي يُحسب عليّ فعلاً هو أني زعمت أنها المرة الأولى التي ينقل فيها الكتاب إلى اللغة العربية. . . والسبب هو أني لم أكن أعلم أنه ترجم قبل ثمان وعشرين سنة في مصر وفي لبنان. وقد كان مما ساعد على هذا الخطأ، أن أي دار من دور النشر في مصر، ومنها مكتبة الأنجلو، التي نشرت الترجمة أصلاً، لم تهتم بعام ١٩٨٤، أو بجورج أورويل، مع أن جميع صحف العالم وإذاعاته وتلفزيوناته قد ظلّت تتحدث عن جورج أورويل هذا، وعن كتابه (العالم في عام ١٩٨٤) طوال فترة لا تقل عن ستة أسابيع. . . بل الأعجب حقاً، أن كل الذي قرأته عن

الكتاب، وعن جورج أورويل في مجلة أكتوبر كان سطوراً في أقل من نصف عمود. . . لقد كانت فرصة لإعادة طباعة الكتاب وإصداره والترويج له فيحقق دخلاً معقولاً، لا تستغني عنه أي دار من دور النشر في ذلك العام.

بقي أن الابن الأستاذ خالد علي المطرفي أراد أن يقول شيئاً آخر، خلاصته، إني (لم أترجم الكتاب)، وإنما أعدت صياغة ما ترجمه منذ ثمان وعشرين سنة الكاتبان المصريان، بأسلوبي وإنه قام بالاتصال (ببعض نقادنا وأدبائنا الذين يتوسم فيهم أنهم على اطلاع للترجمتين لعقد مقارنة بين الترجمتين و(البرهنة) على أن ترجمتي (صياغة أدبية إبداعية للترجمة العربية السابقة للكتاب).

ومع ترحيبي بالفكرة. . . أضيف إليها أن أضع النص الإنجليزي للكتاب، بين أيدي هؤلاء الأدباء والنقاد ليقوموا بمراجعة الترجمة عسى أن أستفيد من هذه المراجعة في الطبعة الثانية، وأعدهم بأني سأذكر أسماءهم، مع خالص الشكر والتقدير.

ثم. . . يسرني أن يزورني الابن الأستاذ المطرفي، ليرى في مكتبتي أعمالاً لكتاب روس وفرنسيين وألمان، قام بترجمة العمل الواحد منها أكثر من مترجم إلى اللغة الإنجليزية ومن هؤلاء دوستويفسكي. . . وتولوستوي. . . وجوجول، ثم فيكتور هوجو. . . وجان جاك روسّو وفولتير. . . وعن الألمانية لبريخت، وستيفان زفايج وجوته وشيلر الخ. . .

وفي انتظار تشريفه أتمنّى له المزيد من القدرة على الاكتشاف، والمزيد من التوفيق.

الإيجاز. . . مطلب الإعلان

تخونني الذاكرة الآن، ويختفي الكتاب، الذي أشك في أن يكون قد استُعير ولم يُعَد، لأنه من الكتب التي يزهد في قراءتها جيل هذه الأيام. . . ولكني لا أشك في أن مؤلّفه هو ابن قتيبة. . . تخونني الذاكرة في اسم الكتاب، هل هو: (أدب الكاتب) أم (أدب الكُتَّاب)؟؟ على أية حال ليس هذا هو الموضوع، وإنما الموضوع هو (الإيجاز) الذي أقول إنه مطلب الإعلان.

في إحدى كنّاشاتي تعريف للإيجاز، لابْن قتيبة، يقول: (اجمع الكثير مما تريد، في القليل مما تقول)، وفي الكناشة تعليق لي، وموجز كل الإيجاز أيضاً، قلت فيه: (إنه الإعجاز. . . والمطلب الذي يصعب أن يصل إليه الكاتب مهما كان متمكناً من فنّه).

واليوم أجد أن هناك علاقة شبه عضوية، بين (الإيجاز) وبين (الإعلان). ولقد اكتشفت هذه العلاقة، في هذا الذي أكتبه يوماً بعد يوم، وآخره المقال الذي نشرته هذه الجريدة بعنوان: (التجنيد هو الحل). . . فقد حرص المخرج، أن ينشر المقال، ولكن ببنط يصعب أن يُقرأ دون الاستعانة بعدسة مكبّرة أو ربما (بمايكروسكوب). . . وهذا بالنسبة لأمثالي في هذه المرحلة من العمر. ولا تسألني عن العلاقة بين المقال، والبنط

الصغير جداً، والإعلان... يكفي أن تلقي نظرة على الصفحة لترى هذا الإعلان الذي تمطَّى واستراح على نصف مساحة الصفحة طولاً وعرضاً. فلم يكن أمام المخرج ـ عفى الله عنه ـ إلاَّ أن يوفّق بين حرصه على نشر المقال، وبين التزامه بنشر الإعلان على هذه المساحة، إلاّ أن يضغط البنط. وكأني به قد واجه احتجاج القرّاء بكلمة موجزة جداً وهي: (ليست مشكلتي) وعليهم أن يجد العدسات المكبّرة وأمرهم إلى الله.

وبعد أن ألقيت العدسة المكبّرة من يدي، وتنفّست الصعداء، وراجعت نفسي، وتساءلت: هل كانت الفكرة في هذا المقال تستلزم هذا التطويل؟ ألم يكن في وسعي أن أوجز فأتيح للمخرج أن يأخذ راحته في نشر الإعلان، دون أن يلجأ ـ من جانبه ـ إلى ضغط البنط؟؟ وتذكرت تعريف ابن قتيبة رحمه الله، للإيجاز، أن أجمع الكثير مما أريد، في القليل مما أقول... وقلت على الفور: هذا ما يجب فعلاً فيما يكتب للصحف خاصة، لأنّها ملتزمة بالإعلان أمام المعلن، الذي يمكن أن تعطيه الحق في أن يختار أو يحدد مكان الإعلان... له أن يفرض أن ينشر إعلانه في صفحة بعينها، ثم في موقع بعينه ومنه على سبيل المثال قاعدة مقال (لقاء) للأستاذ تركي عبد الله السديري. لأنه المقال الذي يحرص على قراءته أكبر عدد من القرّاء.

والإعلان في أي جريدة هو عماد حياتها، ويأتي التوزيع في المرتبة التالية، وأنت تستطيع أن تحكم برواج الجريدة أو نجاحها، بنسبة الإعلان فيها... كلّما ارتفعت هذه النسبة، كلّما كان في ذلك الدليل على نجاحها ورواجها وانتشارها. والذين يحددون هذه النسبة بثلاثين في المئة من المساحة الكلية للجريدة، يعتبرون اليوم (كلاسيكيين) لأن النظرة العابرة

تلقى على جريدة مثل (الواشنطن بوست) أو (نيويورك تايمس) تريك أن الإعلان يلتهم أكثر من ٦٠ في المئة من المساحة الكلية، لما لا يقل عن ٨٠ صفحة.

ومن هنا، فمن حق الجريدة، أن تطالب محرريها، وكتاب المقالات فيها بأن يجمعوا الكثير مما يريدون في القليل مما يقولون... ومن هنا أيضاً تتفجّر المعركة، بين جهاز التحرير في الجريدة، وجهاز الإدارة المسؤول المباشر عن التمويل، ولا سبيل إلى التمويل بغير الإعلان أولاً، ثم التوزيع.

أما أن يستطيع الكاتب هذا الإيجاز، فيضمن أن لا يضغط المخرج حروف الكلمات في المقال إلى هذا الحد، فتلك هي المشكلة التي قلت إنها المطلب الذي يصعب أن يصل إليه الكاتب مهما كان متمكناً من فنه.

ولست، للأسف متمكناً من فني، والدليل هو أني لا أستطيع أن أوجز... فليكن الله في عون المخرج في هذه الجريدة... وعسى أن ترحمه الإدارة، فتخفف عنه زحمة الإعلان.

نموذج للفكر الإسلامي. . . والمفكر محمد صلاح الدين

يندر جداً أن أتجاوز عن قراءة ما يكتبه الأستاذ محمد صلاح الدين، فيما ينشر له في صحفنا، ومنها ـ إذا لم تخني الذاكرة المتعبة ـ جريدة المدينة المنورة الغرّاء. وإذا كنت أنسى الصحف التي تنشر له، فإني لا أنسى ما يتألّق من أفكاره، في مقالاته الموجزة والإيجاز كما قال ابن قتيبة، (الكثير مما تريد في القليل مما تقول). . . وفي مقالات وكلمات الأستاذ محمد صلاح الدين، الكثير مما يريد في القليل مما يقول، ومن هذا الكثير، الذي لا ينسى نبض فكره الإسلامي، الذي قد لا أجازف إذا قلت، إنه يتميّز، بالحرص على إظهار ما في العقيدة السمحة من جوهرها البعيد كل البعد عن التطرّف، لأن هذا الجوهر، في حقيقته يتعارض مع أي اتجاه متعنّت أو متطرّف، أو متجمّد، يرفض الحوار في محاولة للفهم. . .

ولقد منّ عليّ منذ يومين، بإرسال صورة من مقالين له، ربّما بدا له أني لم أقرأهما مع أني قرأتهما، بشحنة من الإعجاب والتقدير والتطلع إلى المزيد. ولي معه، عندما يتاح لقاء حوار يغلب عليه الهمس، إذا كان المكان مزدحماً بالرواد، كما يغلب عليه من جانبي التساؤل والرغبة في استيضاح ما أوقن أنه يحسن الرأي فيه مدعماً بالحجة القاطعة نصوصاً يحفظها.

أحد المقالين، حوار مع فصل بعنوان (موقف الإسلام من الحرية الشخصية) في كتيب من مؤلّفات الشيخ عبد الله سلامة الجهني، يقول فيه الشيخ: (إن علماء الإسلام لم يتحدثوا عن موقف الإسلام من احترام للحرية الشخصية للإنسان بأسلوب يتناسب مع متطلبات العصر العلمي والثقافي).

وكان ما جاء في مقال الأستاذ محمد صلاح الدين رائعاً وعميقاً بكل معيار. إذ أعاد إلى الأذهان الغافية حقائق حسم الإسلام فيها قضية الحريات الشخصية، حسماً سبق معظم ما عرفته الإنسانية عن هذه الحرية في تاريخها الطويل. ومن ذلك قوله: (لقد قضى الله سبحانه أن تقوم الحياة الإنسانية كلها على أساس من حرية الاختيار من مبدئها إلى منتهاها. وأمر عزّ وجل أن يكون ذلك مدار الوجود البشري كله ومناط التكليف وأي مساس بذلك هو خروج على شرعه سبحانه ومحادَّة لأمره ولا يفعل ذلك إلا الطواغيت الذين يجعلون من أنفسهم أنداداً له سبحانه ـ وأرباباً للناس من دونه. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً). ثم يقول: (إن المتأمّل في دعوة التوحيد التي جاء بها الرسل جميعاً من لدن آدم عليه السلام، لإفراده سبحانه بالربوبية والتوجه إليه وحده بالعبادة، لا بد أن يدرك بأنها «دعوة لتحرير الناس من كل استعباد، واستنقاذ رقابهم من كل تسلّط والحفاظ على حرّياتهم من كل عدوان».

وليس يعني «التوحيد» في حقيقته إلا رفض تسلط الناس على الناس، والثورة على طغيان البشر، والوقوف في وجه استرقاق العباد للعباد «وليس لهذه الدعوة من مدلول إلا أن يتيقّن كل إنسان أنه لا سلطان على ضميره أو عقله إلا لخالقه. . . ولا وجود لقوة قاهرة من فوقه إلا لربّه».

ويختتم الأستاذ محمد صلاح الدين مقاله القيم العميق، والموجز

أيضاً، بقوله: ـ (وأي مجتمع إسلامي لا يعكس هذا الجانب الأغر من الشريعة السمحة ولا تزدهر فيه الحريات ازدهاراً عظيماً، عليه أن يراجع إسلامه، وأن يدرس بدقة صحة تطبيقه والتزامه بشرع ربّه).

ويضيق مجال هذه الكلمة، عن الحديث عن المقال الثاني، الذي يرد فيه على الدكتور محمد الرميحي، رئيس تحرير مجلة العربي فيما نشر له في مجلة (المجلة) بعنوان: (الرأي العام ورأي العوام). والأستاذ محمد صلاح الدين يضع لمقاله عنواناً يلخّص رأيه الذي حرص فيه على الالتزام بأدب الحوار على أكمل وجه، وهو ـ وأعني العنوان ـ (منطقكم مرفوض لأنه يؤصّل احتقار الجبابرة لسواد الناس). ومن هذا الرفض ينطلق الأستاذ محمد صلاح الدين ليقول الكثير مما أنصح أن يقرأه كل مثقف، ليس في المملكة فقط، وإنما في العالم العربي كلّه، ليدرك من جوهر الإسلام والعقيدة السمحة، ما يزيح عن فكر الإنسان العربي في هذه الفترة من مسيرته ما ينتشر فيه من الضباب.

وبالمناسبة فقد أذكر للدكتور محمد الرميحي، رأياً أبداه في (ورقة عن الإعلام) في اللجنة التي رأسها الدكتور فهد العرابي الحارثي، في المؤتمر الصحفي الكبير الذي دعا إليه صاحب السمو الملكي الأمير طلال بن عبد العزيز في القاهرة حول «التنظيمات الأهلية» ناقشه الدكتور الحارثي، مناقشة فيها مفهوم الرفض لبعض ما جاء في الورقة، كما ناقشه عدد كبير، من حضور الحوار، بآراء تميل إلى النقد والاعتراض.

وعلى أية حال، فقد يكون مما يُحمد للدكتور الرميحي، أن يطرح من الآراء ما يدفع إلى الحوار... وبالحوار نقترب من الحقائق التي كثيراً ما تغيب عن الأذهان.

مخارج. . . للإنقاذ والنجاة

في (أوراق محرر)، من هذه الجريدة، كتب الأستاذ علي أحمد الشمر عمّا أصبحت البلديات و(الأمانات) ـ الجديدة كما سمّاها تطالب به ملاّك العمارات والمباني السكنية من استهداف التناسق والتواؤم اللذين يحققان الجمال والمظهر اللائق بالنهضة العمرانية التي تنعم بها البلاد، وحين لا يجد مأخذاً، في هذا المطلب، بالنسبة للمباني الجديدة أو التي تجري إقامتها، فإنه يقف عند مطالبة أصحاب المساكن والعمارات وملاك العقارات السكنية كافة بإدخال إصلاحات وتعديلات تتناسب مع متطلبات التنظيم الجديد، إذ يرى أن المسألة ليست من البساطة بحيث تتم بجرة قلم، نظراً لأن أصحاب هذه المساكن من المواطنين يتفاوتون في قدرتهم على مجازاة أو تنفيذ هذه التعليمات. إلى آخر ما رأى وقال.

ولا أدري من جانبي شيئاً عن نوع هذه الإصلاحات والتعديلات التي أصبحت البلديات والأمانات تطالب بها أصحاب المساكن، ولكن الذي أدريه ويدور بذهني منذ زمن طويل، وأجده مُلحًّا أشد الإلحاح، كلّما سمعت عن حادث حريق، لمسكن أو عمارة، أو فيلا، يعجز سكانها عن النجاة من اللهب والدخان، وتساقط الأنقاض، مما يذهب بأرواح هؤلاء السكان، وأقرب هذه الحوادث، ذلك الحريق الذي ذهب ضحيته ست صبايا من بنات السيد أحمد سعيد. . . هو ظاهرة افتقار جميع المباني،

وعلى الأخص منها العمارات ذات الطوابق المتعددة، إلى ما يسمّى (مخرج) (Exit) يتيح للسكان في حالات الحريق، النجاة بأرواحهم بالخروج السريع دون التعرض للهلاك.

في لندن ـ على سبيل المثال ـ ندر أن دخلت مبنى للسكن، أو إدارة الشركة، أو مصلحة حكومية، ولا أجد في الممر، لافتة حمراء مضيئة كتب عليها (Exit)، (مخرج) وهو ليس مخرجاً يُرتفق للدخول أو الخروج من الطابق الذي تكون فيه، وإنما هو مخصص للخروج في حالة حوادث الحريق، أو أي حادث يفرض الإسراع بالخروج طلباً للنجاة من الهلاك.

ومثل ذلك في نيويورك، وسان فرانسيسكو، ولوس أنجيلوس، كنت أرى في معظم المباني سلالمَ معلّقةً على جدران العمارات، ومتدلّيةً من البلكونات، لتصل إلى التي تليها منتهية إلى الشارع، وعندما استغربت وسألت، قيل لي إنها معدّة للخروج طلباً للنجاة من الحريق.

أما عندنا، وفي جميع المدن، ثم في جميع العمارات الضخمة، التي أتيح لي أن أدخلها لم أر تلك اللافتة، التي تقول (مخرج)، مما يعني أن السبيل الوحيد للخروج في حالات الحريق على الأخص، هو «السلالم»، التي نستطيع تصور ارتفاقها إذا كان الحريق في الطابق الواقع أسفلَ، الطابق الذي يهرول منه السكان طلباً للنجاة... ودع عنك التزاحم ومشكلة حمل الأطفال، وصيحات الرعب، وما إلى ذلك مما يزيد من احتمالات الهلاك والعياذ بالله.

أعتقد أن الأهم، في التنظيمات التي تطالب بها الأمانات أو البلديات ـ قبل المظهر ولمسات التجميل، والرغبة في التناسق والتواؤم مع النهضة العمرانية، كما أفهم من كلمة الأخ أحمد الشمر، هو فرض وجود هذا

المخرج (Exit) في كل مبنى، أياً كان حجمه، ونوعه، إذ من المفروغ منه أن النجاة من الهلاك، من حصار اللهب والدخان وتساقط الأسقف والجدران، أهم ألف مرة، من أي مظهر، ومن أي تنسيق.

ربّما كان جهاز (الدفاع المدني)، هو الجهة التي تملك أن تفرض وجود هذه المخارج حتى بالنسبة للأبنية القائمة، على اختلافها، بل وحتى لو كانت المخارج تشبه تلك السلالم المعلّقة والمتدلية على الجدران التي رأيتها في أجمل الشوارع في أميركا.

الأرواح أغلى، والعمل على توفير الوسائل لنجاتها، هو ما يجب أن يكون المطلب الأهم في كل تنظيم.

حرب المخدرات... وبروتوكولات حكماء صهيون

في عموده اليومي بجريدة الأهرام، وفي يوم ١٩٨٩/١١/١٤م يبدأ الأستاذ أنيس منصور كلمته بقوله: (في الدنيا حولنا ينفذون حكم الإعدام في تاجر المخدرات، لأنه قاتل مع سبق الإصرار والترصد. ولم يذكر الدول التي تنفذ هذا الحكم في الدنيا حولنا، وإن كان يعلم بطبيعة الحال، أن المملكة العربية السعودية، ثم ماليزيا تأتيان، على رأس قائمة هذه الدول. ثم ينتقل إلى تنفيذ حكم الإعدام فوراً في المغتصب لأنه مجرم هتك عرضاً، وقتل روحاً الخ... وكأنه يذكر بأن أحكاماً بالإعدام قد صدرت فعلاً على عدد من تجار المخدرات وتلكأ التنفيذ في دول أخرى ـ لا يذكرها ـ ليقول: (ولكن القانون يحمي الناس من الناس... فإذا لم يكن القانون سيفاً قاطعاً فالفوضى والتراخي واللامبالاة وضياع القيم الأخلاقية وانهيار الدين والناس).

وقد ينبغي أن لا أخفي أني فخور بأن تكون المملكة على رأس قائمة الدول التي تنفذ حكم الإعدام في تجار المخدرات ومروّجيها، ويخالجني الكثير من الاستغراب والدهشة، حين أرى على الشاشة الصغيرة، مشاهد من (أطنان) المخدرات، وبالمئات، تضبط في الولايات المتحدة الأمريكية، التي تقول الأخبار إنها أوسع وأضخم سوق لهذه السموم، إلى جانب مشاهد من

الحرب الشرسة الضروس، القائمة بين مافيا المخدرات في كولومبيا، والسلطات تساعدها أميركا. . . ورغم كل ذلك، وما فيه من أخطار محققة على الإنسان الأمريكي، لا أسمع عن تنفيذ حكم الإعدام فيمن يلقى عليهم القبض من قادة ورؤساء عصابات التهريب والاتجار والترويج.

وحين جاء في الأخبار أيضاً أن السلطات في كولومبيا قد ألقت القبض على عناصر موفدة من إسرائيل لتدريب المهربين وقوات الإجرام، على أساليب تتقنها هذه العناصر الإسرائيلية، في الدفاع والهجوم، والتخفّي، والتسلّل، ووسائل وأساليب إخفاء الأطنان التي تهرب إلى أميركا والعالم، وتذكرت في نفس الوقت اللوبي الصهيوني المتحكم في سياسة أميركا بالنسبة لكثير من القضايا وعلى رأسها قضية الفلسطينيين، وأن عدد اليهود في الولايات المتحدة يبلغ اثني عشر مليوناً، يتمركز معظمهم في نيويورك وواشنطن. . . وجدت نفسي، أربط بين هذا كله وبين (بروتوكولات حكماء صهيون)، التي أعتقد أن الشعب الأميركي، وربما الدولة نفسها لا تدري عنها شيئاً، وإن كانت تدري، ففي حدود معلومات متناقضة أو ناقصة أو معدومة الأهمية، مع أنها البُؤرة التي تتدفق منها، وتنتشر في العالم، معظم الأعمال الإجرامية الهادفة بتخطيط دقيق وإلزامي، لبسط سلطان اليهود على العالم ـ كل العالم ـ وعلى البشر، ـ كل البشر ـ أينما يكونون من ظهر الكرة الأرضية.

ولا يتسع مجال هذه الكلمة لشيء من التفصيل عن تاريخ ظهور هذه البروتوكولات، ومراحل مقاومة الصهيونية لانتشارها، حرصاً منظماً ومستميتاً لإخفاء ما جاء فيها من تخطيط يستهدف سلام العالم. ولكن يكفي أن نعلم أن من الوسائل التي تنتهجها للقضاء على هذا السلام تمهيداً لبسط سلطان اليهود على العالم، نشر المسكرات والمخدرات، وتغذية

جميع مرابع اللهو والفجور بالفتيات الجميلات، ينفثن إغراءهن في رواد هذه الملاهي، للاستمرار في طلب المخدرات والمسكرات والإدمان عليها... وبقدر ما يتحقق انتشار هذه السموم، بقدر ما تقترب الصهيونية من انتصارها الأعظم المنتظر، في زمن بلا حدود، ولكنه في النهاية مهما كانت بعيدة، ذلك الانتصار، الذي يحقق سلطان اليهود على الأرض... وعلى البشر.

وأتساءل مع مرور هذه الذكرى في ذهني: ترى هل فكرت الولايات المتحدة الأمريكية وهي تنفق الملايين من الأموال لمقاومة تهريب المخدرات، وتجنّد أبناءها لحربها في كولومبيا وأمريكا اللاتينية... هل فكرت في هؤلاء اليهود المتربّصين بها، والساهرين على كل ما يحقق تخريبها، والقضاء على زهرة شبابها؟؟

من جانبي شخصياً... شرعت منذ سنوات في كتابة سيناريو تلفزيوني، عن بروتوكولات حكماء صهيون، يفضح كل ما فيها من أسرار، تفتح عيون العالم على الأخطار الداهمة التي تهدد الأخلاق والقيم، وتدمّر كل ما تدعو إليه المُثُل في جميع الأديان. ولكني توقّفت عن الاستمرار في هذا العمل، لأن إخراجه بالغ التكاليف، خصوصاً وإني أتطلع إلى إخراجه باللغات الإنجليزية والفرنسية، وتوزيعه على أوسع نطاق ممكن.

وهاأنذا اليوم... وحرب المخدرات، في أوج ضراوتها، أضع مشروع إخراج بروتوكولات حكماء صهيون، بين أيدي القادرين على تمويله... مؤمناً أنه من أهم الوسائل، ليس لمقاومة انتشار المخدرات فقط، وإنما لمقاومة ما لا يعد ولا يحصى من وسائل هذه البروتوكولات، للتخريب والتدمير.

الاستماع إلى الموسيقى. . . ومن غير ليه

بعضُهم يمازحني ـ إذا لاحظ أني نسيت موضوعاً، أو اسم كتاب أو حتى اسم شخص أعرفه ـ يمازحني فيقول (إن «الأستيكة» في دماغي، أو هو «نافوخي» كما يطيب لإخواننا في مصر أن يقولوا هي المسؤولة عن هذا النسيان، لأنها في هذه المرحلة من عمري، قد نشطت فأخذت تمحو الكثير مما كان في أيام زمان. . . وسالف العصر والأوان) والأستيكة في لهجة إخواننا المصريين هي التي نسميها نحن (المسّاحة) من المطاط، أو غيره لمحو ما يكتب بالقلم الرصاص على الورق أو بالطباشير على السبورة.

والواقع أني أدخل مرحلةً من نشاط الذاكرة جدير بأن ألتفت إليه، وهي أن (الاستيكة إياها حين تمحو من الذاكرة أحداثاً منذ يوم أو أسبوع أو حتى سنة، فإنها تعيد إلى وعيي أحداثاً، وأسماء أشخاص وأماكن، في بلدان بعينها، بل وحتى مشاهد ومواقف، بكل ما دار فيها من حوار، إضافة إلى ما سمعته من ألحان وأعمال موسيقية كنت أتوهّم أنها تلاشت من الذاكرة ولن تعود، ومنذ دهر طويل.

وعنوان كلمة اليوم، يقول إن موضوعها هو الاستماع إلى الموسيقى. . . وأغنية (من غير ليه) للموسيقار محمد عبد الوهاب.

ولا بد أن أبادر فأقول إن «الاستماع إلى الموسيقى» ليس عملاً تلقائياً، يمكن أن يحسنه المرء بدون تعليم أو تدريب. وشاهدي على ذلك هو استماعي إلى الموسيقى الغربية... وهنا تعيد الذاكرة إلى وعيي، أيام كنت أعمل في إذاعات الهند منذ ما يقرب من أربعين سنة. إذ كان مما يُطلب مني أن أكتب برامج، أو تمثيليات، وأن أخرجها أيضاً... وفي الإخراج الإذاعي لا بد من الاعتماد على (المؤثرات الصوتية) ولكن قبل ذلك على الموسيقى التي تصوّر الموقف الدرامي بمختلف متغيراته ومنعطفاته... واكتشفت مع مسؤوليتي عن إخراج النص، أني لا أجد في الموسيقى العربية، ما يحقق الغرض. ولكني ـ في نفس الوقت ـ لا أعرف شيئاً عن الموسيقى الغربية... وصارحت المسؤول بجهلي بالنسبة للموسيقى الغربية، فكان مما قاله، هو أن أقضي ما لا يقل عن ساعة كل يوم في الاستماع إلى الأعمال الموسيقية في مكتبة الموسيقى، وسأجد على كل (أسطوانة) اسم المؤلف، وقائد الأوركسترا الخ... وكان... حرصت على أن أقضي في الاستماع أكثر من ساعتين يومياً... مع تسجيل اسم المؤلف، وقائد الأوركسترا... ولا أذكر الآن كم من الأعمال سمعت... وكم مرة كنت أعيد الاستماع إلى عمل بعينه لمؤلف من المؤلفين. وبعد أن كنت أستمع لأتعلم وأتدرّب، أصبحت أحرص على الاستماع لأستمتع... لأحلم، وأحلّق في آفاق وأجواء يتعذّر تصوّرها، ولكنّها مع ذلك كأنها دنيا من الألوان والرؤى في كون بعيد قريب. وقد يكون مما آسف له، أني مع إدمان الاستماع إلى الموسيقى الغربية، قد فقدت الكثير من الاستمتاع بالاستماع إلى الموسيقى العربية، وخاصّة الصوتية ـ وأعني الغناء ـ باستثناء فيروز وأم كلثوم، والموسيقار محمد عبد الوهاب في أعماله الكبيرة، مثل الجندول... والكرنك... والنهر الخالد الخ...

وفي حديث منذ ليلتين، مع الدكتور عبد الله منّاع دار الحوار بيني وبينه عن أغنية الأستاذ محمد عبد الوهاب الأخيرة التي اكتسحت (لولاكي) وغيرها من الأغاني الشبابية. وهي (من غير ليه)... والمنّاع شديد التعلّق بعبد الوهاب، معجب بفنه وأستاذيته، إلى الحد الذي جعله يرى في أغنية (من غير ليه) عملاً يستحق أن يكتب عنه مقالاً ينشره في «المرايا» التي سوف تصدر خلال أسابيع من القاهرة.

وقد رفض المنّاع بإصرار، أن يكون الأستاذ محمد عبد الوهاب، قد أخفق في أن يشعر بمعاني أكثر من مقطع من مقاطع الكلمات التي كتبها «مرسي جميل عزيز»... كنت أرى ـ ولا أزال ـ أن إحساس الموسيقار بهذه المعاني، كان (بارداً)، فجاءت الأغنية، محاولة لمزاحمة الأغنية الشبابية بالتوزيع الأوركسترالي، ولكنها لم تعبّر عن مشاعر الشاعر في كلماته. ولكن لا بد أن نسجّل للأستاذ محمد عبد الوهاب، في أدائه لهذه الأغنية أن صوته، وقد تخطى الثمانين أجمل كثيراً من صوته، في أيام شبابه.

ومن هنا تطرح قضية الاستماع إلى الموسيقى، وأنها ليست عملاً تلقائياً، وإنما هو علم أو على الأقل (تدريب).

النرجسية في توجهنا التراثي

ليس في هذه الأيام فقط، بل وربما على التحديد خلال السنوات العشر التي نعيش آخرها... بل منذ بدايتها ـ دخل معظم المثقفين ـ بمختلف مؤهلاتهم الأكاديمية ابتداء من البكالوريوس وانتهاء عند الدكتوراه أو حتى «الاجريجاسيون» ـ في أجواء ـ ولا أقول أنفاق ـ ما أسميه «نرجسية تراثية»، نشرت أجنحتها حتى لتكاد تحتوي أو تستوعب حتى أولئك الذين كان المفروض، أنهم برصيدهم من الخلفيات الثقافية الأكاديمية، قد تجاوزوا مراحل حالة (الانقياد) لاندفاع التيار الجارف، لأنهم ـ بذلك الرصيد ـ قادرون على أن يروا فيما تشعه منارات الفكر المعاصر دروباً للتواؤم مع معطيات هذا الفكر والتعامل معه. وليس فقط لموقعهم كمؤهلين لقيادة الحركة الفكرية بل لقيادة عناصر تُعَدُّ بدورها للاضطلاع بمسيرة الفكر، في بلد يعيش إنسانه (المثقف) على مشارف القرن الواحد والعشرين.

وقبل أن نتحدث عن (نرجسية التراث) يحسن أن نقف عند مفهوم «النرجسية» نفسها،... قد لا يحتاج المثقفون إلى الوقوف عند مفهومها، ولكن قد لا تستغني عنها بعض شرائح الشداة والناشئين من القراء... وبإيجاز شديد، يمكن القول إن (النرجسية هي تعشق الذات والتيه والإعجاب بها) والأصل فيها، أسطورة ذلك الفتى الإغريقي الجميل، الذي

رأى صورة وجهه في الماء، فعشق صورته الجميلة. وعشقته آلهة الماء فرفض حبها فحكمت آلهة العدالة أن يغرق في الماء لتحوله إلى زهرة هي (زهرة النرجس). . .

وطوال ما يقرب من عشر سنوات ـ وربما أكثر ـ تفشت في مدارك المثقفين في العالم العربي بل وحتى عند أكابرهم، ما أسميه (نرجسية التراث). . . بمعنى تعشق الموروث التراثي، إلى حد التماس ـ ولا أقول ادعاء ـ أصول وجذور كل عطاء حضاري معاصر، في الموروث من التراث. . . ولا مأخذ قطعاً، على من يلتمس هذه الأصول والجذور في العلوم ـ والتطبيقية منها على الأخص ـ كالطب، والصيدلة، والفلك والرياضيات ـ ومنها الجبر وحساب المثلثات والكيمياء، ولكن هذه الأصول والجذور مع التسليم بوجودها ومع حقنا في الاعتزاز بأنها من موروثاتنا التراثية، يجب أن لا ينسينا ما بذل من جهد وما أنفق من أموال للتطوير والإضافات الكبيرة الهائلة التي بلغت بهذه العلوم مستواها المذهل الذي نعيشه، في ألوف المخترعات والمبتكرات، التي نعجز للأسف عن صنع حتى التافه البسيط منها. . . وحين تطفح أنهر الصحف والمجلات عندنا بمقالات وبحوث مطولة يحاول كتابها ومؤلفوها تأكيد أن ما نراه ونعايشه من عطاء التقدم والتفوق الحضاري ـ الآلي والعقلاني ـ إنما هو في الأصل من موروثنا التراثي. . . فإني أخشى أن هذه «النرجسية» يرخي حوافز طموحنا بل ويثبط عزائمنا أو تطلعنا إلى اقتحام الحاضر والمستقبل بالتوصل إلى القمم الشامخة الشاهقة التي بلغها العلم، ولا يزال ينطلق، إلى ما وراءها، ليس في أعالي الفضاء فقط، بل وفي أعماق الأرض والبحار.

ويتزايد ويتضح هذا التوجه التراثي، أو هذه «النرجسية التراثية»، في

مجال الموروث الأدبي، ومنه النقد، واللغة، وفنون القول، التي تطرحها مدارس النقد في العالم المتقدم. وتتعنصر النرجسية عندنا فتتصدى وتقف في وجه التعامل مع الجديد بنوع من التعصب، والإصرار على أن ما عندنا من موروثنا يكفينا ويغنينا عن الأخذ، أو حتى التعامل المعقول من هذا الجديد، لتطوير ما لدينا ووضعه على خط المسيرة الفكرية في العالم. . . ونحن ـ أردنا أم أبينا ـ جزء من هذا العالم المنطلق إلى القمم. . . ولا معنى أو مبرر من أي نوع، للزهد أو استنكاف التطلع إلى بلوغ تلك القمم.

أسميها (نرجسية)، ولا أخفي أنها تجعلني أتوجس، أن تكون هي المعوِّق الأخطر في تطلعنا إلى التطور والنمو. . . في كل مجال، وعلى كل صعيد.

برناردشو، وجائزة نوبل. . . والديناميت

يصعب أن أوجز لمحة عن حياة الكاتب «جورج برنارد شو»، في مجال هذه الكلمة. . . مثل هذه اللمحة مهما أوجزت، لا بد أن تستغرق أكثر من خمسين صفحة من كتيب صغير، وتظل رغم ذلك لمحة موجزة أشد الإيجاز. وذلك، لأنه الكاتب الذي تعامل مع الحياة في أوسع آفاقها، وعايشها بكل متناقضاتها، بالضاحك الساخر من جوانبها، وبالعابس المتجهم من فصولها ومراحله معها.

يكفي أن أذكر أنه ولد في عام ١٨٥٦، في مدينة دبلين ورحل في عام ١٩٥٠. ويوم أُعلن خبر رحيله كنت في نيودلهي، ومن عادتي أن أستقبل كبرى صحف الهند منذ الصباح الباكر، فإذا بالصفحة الأولى كلّها تنعيه بمانشيت، ليس فيه إلا اسمه، وصورته، وتاريخ وساعة وفاته متأثراً بكسر ساقه الذي تعذّر على العلاج. وعندما ذهبت إلى مكتبي في إذاعات الهند كنت أرى في أيدي الرائحين والغادين في الممرات إلى مكتبي، الصحف التي حملت خبر رحيله، وبنفس حجم الصفحة الأولى. . . واللافت للنظر أن من الذين كانوا يعكفون على قراءة النعي فراشين أو خدما، تتوهّم أن لا علاقة لهم بالأدب أو الفن ولكن الحقيقة أنهم مثقفون، يتابعون حركة الفكر، ليس في الهند فقط، بل في العالم الناطق باللغة الإنجليزية. . . والهند كانت ولا تزال تعتبر اللغة الإنجليزية هي اللغة الرسمية، أو اللغة

الأولى التي لا بد أن يعرفها الجميع ـ ذكوراً وأناثاً ـ ولا ننسَ أن لغات الشعب الهندي أو الشعوب الهندية تتجاوز اثنتين وعشرين لغة (تكتب وتقرأ).

أما عن جائزة نوبل التي استحقها «شو» في عام ١٩٢٥، وضجّ بخبرها العالم باعتبارها رمزاً لتقدير أدبه وأعماله ومسرحياته (الخمسين)، وأبحاثه النقدية التي تناولت ما كان يصدر من الكتب، وما كان يكتب من الأعمال (الموسيقية) ويعزف في أرقى القاعات والمسارح المخصصة للموسيقى (وقد جمعت هذه البحوث النقدية للموسيقى وحدها في ثلاثة أجزاء ضخمة)... فقد كانت المفاجأة التي هزّت ضمير العالم، وكأنها أيقظته من إغفاءاته الطويلة، أن جورج برنارد شو قد رفضها، بل أعاد أمر صرفها له من أحد البنوك، قائلاً (تعاد إلى الذين اخترعوا (الديناميت).

وأثارت المفاجأة جماهير من الذين استهولوا التصرف، بحيث بلغ عدد الرسائل التي تلقاها من المعجبين بتصرفه، خمسين ألف رسالة، ولكن من هذه الرسائل، ما استوقفه، واحتفظ به بين ما يعن له أحياناً أن يحتفظ به من رسائل قراء مقالاته، وتعليقاته، رسالة طبعت وصدرت في كتاب ألّفته «فيفيان اليوت» بعنوان (عزيزي مستر شو) وهي رسالة يقول كاتبها: (لقد رفضت استلام جائزة نوبل، وهي ذلك المبلغ الضخم، ماذا كان يمنع أن تستلمها وتوزّعها على الكثيرين الذين لا تكره أن تساعدهم... وما دمت تستطيع أن تستغني عن المبلغ فإني أظن أنك تستطيع أن تقرضني ١٥٠٠ جنيه أدفعها بعد ثلاث سنوات).

وما انهمر عليه بعد فوزه بهذه الجائزة، وإعادتها إلى (مخترعي الديناميت) من طلبات المساعدة، والاقتراض، كان في حد ذاته شاغلاً،

يستنفد الكثير من وقته... وفي الكتاب صورة، لساعي البريد وهو يحمل الرسائل والطرود، التي ترسل إليه... وتستلمها منه مدِّبرة منزله... إنها لكثرتها، تنقل في صندوق في عجلة الساعي كل صباح.

ومع أنه قد بلغ الرابعة والتسعين من العمر عندما رحل عن الدنيا، فقد كانت له في السنوات الأخيرة من حياته سكرتيرة شابّة، هي التي تعنى بهذه الألوف من الرسائل، تقرؤها وتختار له ما تُرجّح هي أنه لا يرفض قراءتها... ومع أنه يملي عليها رسائله فتكتبها كاتبة الآلة، فقد أثر عنها أنها كانت دائمة الابتسامة... حين تراه يقف أمامها، ساخراً بما قرأ، ويملي هذه الردود، التي كانت كثيراً ما تباع، وتجد من يشتريها من المرسل إليهم بمبالغ طيبة.

وإذ أقرأ، الرسائل والردود التي يكتبها إلى قرائه، في هذا الكتاب الممتع ومع التعليقات، التي تناثرت هنا وهناك، عن الجائزة التي أعادها إلى (مخترعي الديناميت) أتساءل، كم من الذين منحوا هذه الجائزة وملأوا العالم ضجيجاً وزهواً بفوزهم بها، خطر له أن يتذكّر أنها تمنح من (الذين اخترعوا الديناميت)؟؟؟

دستور الحرية الشخصية في الإسلام

في اتصال هاتفي قصير، مع الأستاذ محمد صلاح الدين، دار حوارٌ متعجّل عن الكلمة التي نُشرت لي منذ أيام عن نموذج للفكر الإسلامي والمفكر محمد صلاح الدين. . . وقبل ذلك الاتصال تلقيتُ أكثر من اتصال، من قراء، أدار أصحابُه معي حواراً يطول أحياناً، ويقصر حيناً وخلاصته الثناء والإعجاب ـ ليس بشخصي الضعيف ـ وإنما بالأستاذ محمد صلاح الدين الذي أكَّد لي أمرين، لست غافلاً عنهما، ولكني غافلٌ عن المشاعر التي يحملها القراء نحو هذا الكاتب المفكر، وربما لا يجدون المناسبة أو الفرصة للتعبير عنها. فوجدوها في الكلمة التي نشرتُها: عنه في هذه الجريدة.

أما الأمران فهما:

أولاً ـ أن الصديق الأستاذ محمد صلاح الدين ـ منذ كان يتعاون معي أيام رياستي لتحرير جريدة المدينة المنورة ـ قبل شمولها بنظام المؤسسات، كان يلتزم خطاً فكرياً يعي من أسراره ودفْق عطائه وحركة هذا العطاء ما كنت ـ بصراحة ـ أتحسّب لاحتمالات توريط الجريدة في مشاكله. . . ولعلّه اليوم يذكر أني رجوته هامساً، أن ينحّي نفسه أو يعفيها من الالتزام بهذا الخط، لفترة لن تطول، لأني كنت أعلم أن رياستي

للتحرير هذه لا بد أن تنتهي خلال شهر أو شهرين... وقد كان.

ثانياً ـ أن التزامه بهذا الخط الفكري، لم يكن انحيازاً أو اتباعاً لقياداتٍ إسلامية معيّنة، ومتفاعلة في تلك الأيام... إذ كانت أفكاره تصدر عن اقتناع ذاتي بفهمه الذي ربّما كان يتناقض أو يتباعد عن الخط الفكري في تلك القيادات... كنت أدرك (أنا) أنه مستقل بفكر يرفض الجماهيرية وما يرتفع لها من شعاراتٍ تواجه شعارات زحفت وراءها ضحايا الخديعة ودوامة التضليل.

وقد يذكر بعض القراء، أو القلة القليلة منهم أني ـ في مسيرتي مع القلم، قد عُنيت بترسيخ ما أؤمن إيماناً مطلقاً لم يتزحزح أو يضعف، أو يغيب منذ أيام صباي وحتى اليوم بأن الإسلام وحده ـ ودون جميع الأديان السماوية أو الوضعية، كالبوذية، أو الكونفوشيوسية هو الذي أنزل ـ ومن السماء ـ دستور الحرية الشخصية الأوحد والأعظم والأعم، والأوضح مفهوماً وعقلانية لصيقة بالمنطق القطعي، الذي لا يحتمل جدلاً من أي نوع.

هذا الدستور السماوي الذي رسّخ ـ وإلى الأبد ـ مفهوم الحرية الشخصية ـ في أوسع آفاقها وفي أبعد حوافز التمسك بها، والعمل على ضوئها، في سلوكيات البشرية كلها هو الملخّص العميق عمق البحار والبعيد بعد السماء عن الأرض. هو كلمة (لا إله إلاّ الله). محمد رسول الله (لا إله إلا الله)، كلمة كان أول من نطق بها وجاهر بالدعوة لها، ثم جاهد في سبيلها، جهاده الذي لم يسبق قط أن كان له مثيل في تاريخ أي صراع بين الحق والباطل على امتداد دورات الفلك والزمان، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

كلمة نطق بها محمد صلوات الله عليه... فحارب الشرك في سبيل نشرها وترسيخها وانتصر بها، ثم انتصر المؤمنون بها من المسلمين من بعده.

كلمة قررت لأول مرة في تاريخ البشر كافة، المعنى الدقيق للحرية الشخصية... جوهر هذه الحرية... وهو جوهر عقيدة الإسلام السمحة.

كلمة، فهمها الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأطلقها صريحة صارخة مدوّية فقال: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً).

كلمة قالت، ما لم يسبق أن قاله دستور أو قانون: أنت المسلم الناطق بـ (لا إله إلاَّ الله)... فأنت السيد حقاً... الحُر حقاً وفعلاً ونهج حياة، لا سلطان لأحد عليك إلا بحكم الله... بشريعة الله... تحت ظلال كلمة الله.

أنت المسلم... أنت الناطق بكلمة لا إله إلا الله... فأنت القادر وحدك، بإذن الله، أن تقف في وجه الدنيا كلها... لتقول... إنّك السيد، وليس العبد... إنك النِّد، ولست التابع... إنك المالك لحقوقك كما شرعها الله... وليس لمخلوق أن يمس هذه الحقوق إلاّ بحكم الله.

فأين في الدنيا... حرية شخصية، كهذه الحرية قررها الله، للمؤمنين بالله.

معرض المملكة بين الأمس واليوم

أيّاً كانت، ومهما ارتفعت أرقام ما أُنفق على إقامة وتنفيذ وعرض مجسّمات وتفاصيل ودقائق معرض المملكة بين الأمس واليوم، فإن كل دانق من هذا الإنفاق، قد أعطانا أضعاف أضعافه، بل مئات الأضعاف وألوفها. وهذا من منظور التكاليف الضخمة بكل معيار. ولو خطر لنا أن نُقارن بين ما تُحققه أجهزةُ الإعلام المرئية والمسموعة والمكتوبة، لإظهار حقيقة النقلة الحضارية التي وفّق الله سبحانه، المسؤولين في المملكة لتحقيقها، وعلى امتداد مسيرة الإعلام والتوعية التي قد لا تقل عما يقرب من ثلاثة عقود من السنين، وما أنفقته هذه الأجهزة، من ميزانية الإعلام، فإننا لا نبالغ، ولا نتجاوز الحقيقة، إذا قلنا إنّ مشروع «معرض المملكة بين الأمس واليوم»، كان، ولسوف يظل طوالَ أجيال قادمة، أعظم مشروعٍ إعلامي تقوم به دولةٌ عربيةٌ إسلامية صمّمتْ أن تقول، وأن تظهر للعالم، أنها قد عرفَتْ، كيفَ تتعامل مع (الذهب الأسود) في مكامن أرضها، فتحوّله إلى ذهب إبريز، بل إلى ما هو أغلى وأثمن، وأبقى على الدهر، من هذا الذهب الإبريز... ولعمري، أين الذهب الأسود، أو الذهب الإبريز من هذا المعمار الحضاري، الشامخ الشاهق، وليس فقط، في غابات الإسمنت التي نَبَتَتْ، على أنقاض بيوت الطين، وليس في الطرق التي سافرت في طول الصحراء وعرضها، وعلى هامات الجبال وقنِنِها،

وتسلّلت إلى المزارع ومواطن السكان، حتى في أعالي الجبال... بل ما قيمة الذهب، وغالي الجوهر، بالنسبة لسبع جامعات، وعشرات الألوف من المدارس ومعاهد العلم... تَدفَّق من أبوابها مئات الألوفِ من الفتيان والفتيات، يقيمون في ساحة الحياة المعاصرة معالمَ تطورِ الإنسان ونموّه، وحركة مواكبته لمسيرةِ العلم في اقتحامها أجواء الفضاء وأعماق البحار، وأغوار الأرض.

ثم، ما قيمة كل الذهب والجوهر، أمام هذا السَّبْح الروحاني، الأسمى والأرفع، والأعلى، في استيعاب مضمون الدعوة إلى الله، كما يعيها ويتعمّق معناها، هذا الملك الفذُّ الذي يتنازل بل يستغني، ويتجنّب ألقاب المُلْك، والمَلَكيات كما عرفها تاريخ هذه الملكيات في العالَم، ليتشرَّف ويَسعَد، ويزهُو بلقبِ (خادم الحرمين الشريفين) يعلن اختيارَه في رحاب الأرض الطاهرة، التي شرَّفها الله بأن تكون مثوى رسول الله محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه. وتتعلّق مشاعرُه الروحيةُ ووجدانُه المتوهّجُ، فلا يرضى بأقل ـ من أن يضيف إلى الحرمين الشريفين، دفْقَ هذه المشاعر وعطاءَ هذا الوجدان توسعةً وأعماراً وتجديداً وتحديثاً ترى فيه أجيالُ المسلمين في مشارقِ الأرضِ، ومغاربها، وعلى مرِّ عصور التاريخ، أن خدمة الحرمين الشريفين، في منطق (فهد بن عبد العزيز) لم تكن لقبَ تشريفٍ وزهْو وافتخار، وإنما هي (خدمة) فعلية... فيها جهدُه... وعرقُه وسهرُه، ومتابعتُه الدائمة، الواعية لكل مرحلةٍ من مراحل الإنشاء والبناء. شهد ذلك ألوف المواطنين، على الشاشة الصغيرة... ثم هي (خدمة فعلية) مخلصة عاش عطاءَها وثمارَها، وإشعاعَها الساطع حجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد رسول الله صلوات الله عليه، فيما توفّر لهم، وبين أيديهم وفي مسيراتهم من الأمن والأمان، والرعاية والحنان... تخترم

وتقتلعُ من الجذور أغراس الشرِّ والشيطانِ لتظل منازلُ الوحي، ومهبطُ كلام الرحمن، ساطعةً، بإشعاعِ الرحمة والحب والسلام.

وبعدُ، فلم يتُح لي أن أرى معرِض المملكة بين الأمس واليوم... في أي بلد من البلدان التي أقيم فيها... ولكني كنت أرى، عبقري الفكرةِ والمشروع صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبد العزيز، فلا أملك مع الإعجاب البالغ، إلاّ أن أتساءل عن الجهد المضني الذي بذله سموّه، لتحقيق مشروع قلتُ إنّه أعطى المملكة العربية السعودية، ما لم يُعطه قطُّ أي عمل إعلامي، في تاريخ هذه المملكة منذ أسسها جلالة المغفور له الملك عبد العزيز وحتى اليوم.

ويبقى لي مع كل هذا الزَّخم من إعجاب الملايين في كل بلدٍ عرض فيه المعرض «التماسٌ» صغير، يبرِّره أني لَمْ أر المعرض من جهة، ولم أر ما يستجيب لهذا «الالتماس» من جهة أخرى... وهو، ظهورُ لوحة ضخمة من الذهب على خلفية من المرمر فيها نص أول آية نزل بها الوحي على رسول الله صلوات الله عليه، وهي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ. ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ. ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ (العلق: ١ ـ ٤) مع ترجمةِ معانيها إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية... وبالذهب أيضاً على نفس الخلفية من المرمر وتذيل بكلمة تقول للقارئ... (هكذا أمر الله العربَ والمسلمين، بأن يقرؤوا، وأن يتعلّموا بالقلم ـ أي أن يكتبوا) وذلك منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

قد يكون ذلك موجوداً في المعرض... فإذا كان موجوداً، فإني لسعيد، وأحمدُ الله على أن يدرك زوَّارُ هذا المعرض أن نبينا صلوات الله عليه، تلقى أمر الله بأن يقرأ ويكتب منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

المملكة دولة متقدمة. . . في الطب والعلاج

وأصفها بأنها متقدمة، لأن ما أصبح يتحقق من منجزات الطب والعلاج في مستشفيات المملكة الخاصة، والحكومية، وفي المقدمة منها ـ مستشفى القوات المسلحة في الرياض ـ والمستشفى التخصصي لطب العيون. . . إلى جانب المستشفى التخصصي الأول وهو الذي أسسه وظل يتابع خطوات تقدمه ونجاحه، وتأمين أحدث، وأهم، وأدق معداته، جلالة الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله، أصبح يقارع المستشفيات في الدول المتقدمة.

وحين أصفها بأنها متقدمة أضع في تقديري، ومع شريط ذكرياتي الطويلة، ما كانت عليه حالة المستشفيات والعلاج قبل ربع قرن أو أكثر، وما أصبحت عليه وتنعم به مستشفيات الدولة قبل المستشفيات المتقدمة الخاصة من تكامل، يمكن أن لا يصدق جيرانُنا في العالم العربي خاصة، بل وفي العالم عامة، أنه يتحقق، مما يمكن أن يسمى (معجزات) وعلى أيدي أطباء لنا أن نرفعَ رؤوسنا فخراً واعتزازاً بأنهم أبناؤنا. . . أبناء هذه المملكة وإن كنا لا ننكر ـ ولا ينبغي لنا أن ننكر ـ فضل من شاركوا ـ وربما لا يزالون يشاركون ـ حتى الآن من الكفاءات والخبرات الصديقة والشقيقة ــ وليس في ذلك ما يهبط بحرارة التقدير للكفاءات المواطنة، التي أنجزت، وقالت للعالم المتقدم كلّه ـ (نحن هنا!!!) مما لا يعني الزهو

والافتخار، وإنما الذي يعنيه بدقة هو أننا قد استوعبنا العلم والخبرة والتقنية، والأهم ـ ربما من كل ذلك ـ التعامل مع المشاعر الإنسانية النبيلة التي أعتقد أنها تتقدم كل مؤهلاتِ العلم والخبرة والكفاءة، لأن كل ما يعكف عليه العلم والعلماء في العالم من علوم الطب والعلاج وتقنياتهما الضخمة، هو لِلَّمسة الإنسانية التي ينتظرها الإنسان، أياً كان، وأينما يكون من سطح هذا الكوكب.

والخبر الذي حملني على أن أواجه الآلة الكاتبة، وأكتب هذه الكلمة، هو أن مستشفى القوات المسلّحة في الرياض قد أجرى العملية العاشرة (لزراعة القلب)... وليست لديّ خلفية كافية عن زراعة القلوب، ولكني أذكر تلك الضجة الكبرى التي هزّت أركان العالم عندما تمت أولُ عملية لزراعة القلب، منذ عددٍ من السنين لا أدري الآن عددها... ثم العمليات المماثلة التي أجراها أطباء أو جراحون في المستشفيات الأمريكية... ولكل عملية ضجّتُها الكبرى، وأخبارها التي تملأ أنهار الصحف والمجلات، إلى جانب أجهزة الراديو وشاشات التلفزيون... لا أستطيع أن أتساءل كيف؟؟؟ وبأي إعجاز علمي استطاع الأطباء الكبار الإعلام في مستشفى القوات المسلّحة أن يقوموا بعمليات زرع القلوب، وأن يبلغ عدد العمليات عشراً... ولكني ـ وبشحنة من أعصاب لا أخفي أنها متوترة ـ أتساءل أينَ وسائل الإعلام على اختلافها، وفي مقدمتها التلفزيون عن كل إنجاز من هذه الإنجازات في مستشفى القوات المسلّحة أو في غيره من المستشفيات ـ إذا كانت تتم فيها عمليات مماثلة.

والآن... إلى عزيزي المختص في التلفزيون إنك ترى في التلفزيون الأمريكي والإنجليزي، والأوروبي، كيف يعرضون الإنجاز في عمليات

زراعة القلوب، بل فيما هو أقل من ذلك من المنجزات التقنية والعلمية... فهل يتعذر عليكم أن تكونوا هناك؟؟؟ بكاميراتكم...، وتعليقاتكم؟؟؟، والمتخصصون من الأطباء الذين يستطيعون أن يقولوا للمشاهد، هذا الذي يتم في غرفة العمليات؟؟؟

وهيب بن زقر... والليدي تشاترلي

أمَّا الأستاذ وهيب بن زقر، فليس بين قراء هذه الكلمة من يجهل أنه واحد من أكابر رجال المال والأعمال... وقد يحسن بي أن أقول إنه يتميّز عن المئات منهم في بلادي، بأنه سليل أسرة، فتحنا عيوننا على الحياةِ منذ ستين عاماً، ونحن نرى (آل بن زقر) تُجاراً ومن أهم مواد تجارتهم: (الكبريت)، و(أبو جنيه)... وقد يكون الكبريت مما لا يجهله أحد... أما (أبو جنيه) فلا أدري كيف انسحب من تجارة (آل بن زقر) وما الذي حل محلّه... ولكن الذي لا أنساه أبداً، أن (أبو جنيه) كان لا بد أن نراه، في أيدي وعلى شفاه كل مدخّن مدمن. ومع أنهم ـ وأعني (آل بن زقر) دخلوا سوق التدخين بما كان يسمى (أبو مقص) الذي تهافت عليه القادرون على أن يدفعوا هللات أكثر ثمناً للعلبة فإن الأمريكان ـ إذا صدق ظني ـ قد استطاعوا أن ينافسوا منتجات بريطانيا من (أبو جنيه) و(أبو مقص) وأن يدخلوا الأسواق بـ (أبو أسطوانة) ثم بـ (أبو جمل)... ولا تسأل عن (الكنت) الذي استعمر ذوقَ الملايين. ذلك عن الأستاذ وهيب بن زقر الذي نشرت عنه مجلة اليمامة (تحقيقاً صحفياً) مثيراً، بما توافر فيه عن صراحة قد يندُر أن يمارسها رئيس مجلس إدارة بنك، كان من حسن حظ عملائه والمودعين فيه، ومعهم المساهمون أن يوجد (رجل مال وأعمال)، في مستوى (وهيب) بن زقر يتولى رياسة مجلس إدارته ليحقق

الآمال في خَلاصِه ـ أو خروجه من عنق الزجاجة الذي كان الخروج منه مشكلةً تدور حول نفسها، منذ فترة طويلة.

أما عن «الليدي تشاترلي»، فأعجب ما مرّ بي خلال الأسبوع الماضي، أن رواية (دي، اتش لورانس) بهذا العنوان، كانت تنام على صورة (وهيب ابن زقر) الكبيرة التي نشرتها مجلة اليمامة مع التحقيق والحوار... ورواية (D.H Lowrance) وجدت طريقها إلى المكتب الذي أمارس عليه عملي، لأني قررت أن أعيد قراءتها، ربما للمرة الثالثة منذ أهداني إياها صديق في القاهرة، أيام الشباب. ولا أخفي أن عندي أعمالاً أدبية معيّنة أشعر بحاجتي إلى العودةِ إلى قراءتها، ومنها ـ قصص المرحوم إبراهيم عبد القادر المازني ـ أو كتبه التي مارس فيها نقد بعض أعلام الأدب العربي القديم، وكذلك قصص سومرست موم القصيرة أو روايته الطويلة (حد الموسى).

وزاد من علاقة الأستاذ (وهيب بن زقر)، بالليدي تشاترلي، مقال الأستاذ تركي عبد الله السديري بعنوان (عشيق الليدي تشاترلي)... إذ قام من عُنيَ بترتيب أو تهذيب وضع الأوراق في مكتبي، بوضع مقال الأستاذ تركي إلى جانب الرواية، وعلى صورة الأستاذ وهيب.

والأستاذ وهيب، حين تتقرر له الشهرة (كرجل مال وأعمال) فإني أعلم أنه مؤهَّل بثقافة إنجليزية، لا أعرف شيئاً عن درجتها أكاديمياً، ولكني أعرف أن تأهيلَه لهذه الثقافة قد سبق تأهيلَه ليكون (رجل مالٍ وأعمال). ولكن أن تكون له علاقة (بالليدي تشاترلي)، فذلك هو السؤال؟؟؟

وقصة الليدي تشاترلي، واحدة من قصص الأدب الذي حظرت إنجلترا نشره وتداوله في بريطانيا فترة تجاوزت نصف قرن وكالعادة، فإن أي عمل

أدبي، أو كتاب تقرر السلطةُ حظْر نشره وتداوله يدخل بسرعة البرق ساحة الرواج والتهافت على شرائه مهما كان تافهاً وسخيفاً... وليس ببعيد عن الذاكرة كتاب ذلك المرتد الذي ألّفه (مسحوقٌ بشري) وأصدره بعنوان (آيات شيطانية) فقد فتح الصراخ الذي انطلق من باكستان إلى مختلف بقاع الأرض، أبواب الرواج لهذا الكتاب الذي لا يستحق أن يوضع في غير سلة النفايات... فتح له أبواب الرواج على مستوى العالم من أقصاه إلى أقصاه، ومن عوامل الشد، الذي توفّر في الكتاب، استهتاره القذر والبذيء والسافل بثوابت المسلّمات في العقيدة الإسلامية السمحة. التي ظهر الإقبال والتهافت عليه أن الحاقدين عليها مع الناقمين والمتطلعين إلى المساس بأجمل وأنبل ما فيها، قد وجدوا في هذا القذر والاستهتار والعبث المدخول والمخبول ما أشبع نهمهم إلى الطعن، والشك ونفي الحقائق الثابتة.

وملامح الأستاذ وهيب بن زقر، من الملامح التي تحمل المتحدث إليه، على (إضافة) شحنة من ترجيح أن ما يختزنه من نقاط الحديث، أكثر كثيراً مما تسمع منه... ولهذا فإني أستبعد أن يكون قد عني بقراءة (عشيق الليدي تشاترلي)، ولكني ـ في نفس الوقت لا أستبعد أن يرحّب بقراءة الرواية في هذه الأيام وهو يقوم بجولاته الواسعة بين الدول التي تراسل بنك القاهرة السعودي، وقد زاد عددها على المئتين... في محاولة للتقليص الممكن، طريقاً إلى تطويق التوسُّع الذي لا يتفق مع مركز البنك وواقعه الذي كان... والذي سوف يكون في المستقبل القريب بإذن الله.

السيدة نوال السعداوي. . . والبيض الفاسد

الأستاذ صالح محمد جمال، من أفاضل وأعلام كتابنا، ومن أشدهم تمسكاً بما يرى أنه السبيل إلي، صون وحماية كيان المرأة المسلمة، من الاندفاع في طريق، تكثر فيه المنزلقات الخطيرة، التي لا تختلف عن مستنقعات لها تلك الروائح النتنة، التي يتطلع الرجل «متكامل الرجولة»، إلى أن لا تقع فيها أي امرأة، وفي الدرجة الأولى، الابنة والأخت والزوجة، وكل من يشملُهن مفهومُ (العِرض).

وفي كلمة موجزة له منذ أيام، نشرت تحت عنوان (البيض الفاسد)، ألمح الأستاذ إلى الانزلاق غير المسوّل، أو هو الاندفاع الأهوج، الخالي من كل أثر لضوابط الإحساس بالخصيصة الأولى التي لا تخلو منها امرأة ـ حتى لو كانت من بنات الليل ـ وهي (الحياء) وصُفرة أو حُمرة الخجل من أن تبدر منها بادرة تخدش هذا الذي اعتقد أنه خصيصة (غريزية) أودعها الله في (الأنثى). . . ولا تشذ عنها حتى (أنثى الحيوان). . . ولعلّ الذين يرعون نوعاً من القطط، لاحظوا كيف تتصرف الأنثى في موسم الإخصاب. . . حيث تحرص على أن يتم لقاؤها بالذكر بعيداً عن العيون. . . وأعني عيون أهل البيت.

في هذه الكلمة، تحدث الأستاذ صالح محمد جمال عن «السيدة نوال

السعداوي»، التي يقول الأستاذ إنها خلعت (برقع الحياء)، ونزعت رداء الدين والخلق فتطالب (بتعدد الأزواج) وإنها قد تجاوزت حدَّ مجردِ (الفكرة أو الدعوة) إلى عقد مؤتمرٍ لنساء العرب تطرح عليه هذه الموضوعات ليقررن المطالبة بتحقيقها.

كانت كلمة الأستاذ صالح محمد جمال موجزة، وكان يمكن أن يُشبعها بحثاً ونقاشاً فيلقي نظرة أوسع على موضوع الزواج ـ ليس في الإسلام فقط ـ وإنما في التاريخ، وعند مختلف شعوب العالم. . .، لينتهي إلى أن مطلب (السيدة نوال السعداوي)، ومن رضين أن يكن من أعضاء المؤتمر الذي دعت إلى عقده عودةٌ إلى بدائيةٍ تجاوزها البشر، حتى في الكهوف والأدغال، لأن (غريزة الدفاع عن (العِرض) وردْعِ الاعتداء عليه، لم يعد ثوابت دينية في الإسلام أو في غيره من الأديان، وإنما هو قبل كل شيء (خصيصة الرجولة المتكاملة) في جميع الملل والأديان.

لا نجهل، كما لا يجهل أحد، في العالم المتقدم و«الثاني أو الثالث»، أن هناك الكثير جداً من حالات الانحلال الخلقي، والتهتك، والاستهتار، وتفكك الروابط بين المرأة ورجلها ـ زوجاً أو عشيقاً ـ ولكن كل هذا على أنه واقع مشهود، لا يعني أن جميع الناس، في جميع المجتمعات البشرية، قد اكتسحها هذا الدمار الخلقي. . . بل لعل من واجب النظرة الموضوعية، أن نقول، إن البشر في هذه المجتمعات، تهولُهم وتَفْجعهم هذه الظواهر التي تُصاقِب، وتتجاور، مع المخدرات، ومع انفلاتات مفهوم الحرية وميوعة القوانين، ومجالات الوقوع على الثغرات في هذه القوانين يُتقنها المحامون بأساليبهم التي لا أدري هل يأتي وقت تتنبه فيه الدول إلى أن من أسباب تفشي الكثير جداً من الجرائم،

هذه الثغرات، وهؤلاء الذين يعرفون كيف يقعون عليها في دفاعهم عن المجرمين أو من في حكمهم.

السيدة نوال السعداوي، نموذج لآخر ما وصل إليه تهتُّك معنى الحرية واهترائه، ليس فقط في الدين الإسلامي، وإنما في مجتمعات التهتك والانحلال. . .

أمّا كيف تضع المجتمعات الإسلامية حداً لهذا النوع من الانحلال (المثقف) فموضوع يحسن أن يطرح، ليس فقط على بساط الدين والشريعة، بل على بساط (الرجولة المتكاملة) في جميع الأديان. . . وفي جميع المجتمعات.

أين يذهب. . . الذهب؟؟؟

وعنوان الكلمة يبدو سؤالاً فيه الكثير من الغباء وربما أيضاً، الكثير من السخف إذْ مَنْ الذي لا يعلم أنه (في الحفظ والصون). . . ابتداءً من نحور وصدور الصبايا وحتى الكهلاوات من النساء، إلى أعماق الخزنات والصناديق الحديدية ذات الأرقام المبرمجة. وفي بلدان مثل الولايات المتحدة الأمريكية في قاعة من قاعات (الفيديرال بنك)، قيل إنها في طابق تحت سطح البحر. . . وإن الكميّات المخزونة في هذه القاعات من الذهب الذي تملكه أميركا ليست سراً من الأسرار، إذ هي أرقام، تخضع لعمليات القيد اليومي أو (الساعي إذا صحت النسبة) وإنما السر. . . أو «سر الأسرار» هو طريقة الوصول إلى تلك القاعات الضخمة التي لا تفتح إلاّ بمحضر هيئة من المختصين، ولدى كل واحد منهم رقم لا يعرفه الآخر. . . وبهذه الأرقام التي تعالج بها الأقفال تفتح أبواب القاعة، لتخزين الوارد الجديد من الذهب. . . الذي تنطبق عليه مقولة: (الداخل فيه مفقود). . . أي لا سبيل إلى الخروج ليكون (مولوداً).

أما خزائن الذهب في الاتحاد السوفيتي، فليس من يعلم عنها شيئاً، لا تصريحاً ولا تلميحاً ولكن المعلوم الذي تتداوله أخبار سوق الذهب في العالم، هو أن الاتحاد السوفيتي ربما يتقدم على جنوب أفريقيا، التي لا تزال تعتبر أكبر منجم يصدر الذهب في العالم.

ولنترك هذه المستودعات التي نعلم أنها موجودة لدى كثير من الدول، والتي فقد بعضها قدرته على تغطية العملة الورقية، لأن الذي يطبع من هذه العملة، أصبح لا يخضع إلا لحاجة الدولة إلى المزيد من هذا الورق لتغطية حاجتها إلى الإنفاق.

ولنذكر كارثة الذهب، التي خربت بيوت الكثيرين من الذين خدعهم ارتفاع سعر الأونصة منه فأخذوا يشترون بلا حساب، حتى لقد اشترى بعضهم الأونصة الواحدة بأكثر من ثمانمئة ريال... وما هي إلا أيام حتى بدأت حركة الهبوط ليصل بعد سنوات قليلة سعر الكيلوجرام بكامله إلى أقل من أربعين ألف ريال. ولقد قيل إن المسألة يومها كانت مسألة لعبة لعبها سماسرة البورصة في لندن ونيويورك وطوكيو... وكانوا هم الذين ربحوا، بينما خسر المئات عندنا، والألوف أو مئات الألوف في العالم.

وللخبراء آراء مقنّنة... عن قدرة الذهب على التحكم في أسواق العملات، وفي اقتصاديات الدول... ومع أننا نعلم أنه يجيء من الأرض، ومن البحر... ومن ضفاف الأنهار ومن الجبال وأن إنتاج الذهب في العالم في عام ١٩٨٠م قد بلغ أكثر من أربعة مليارات من الدولارات.

فإننا لا نعلم، أين يذهب كل هذا الذهب؟؟؟ مئات الألوف من أطنان الذهب ظلّت تخرج من الأرض طوال قرون... فأين ذهبت؟؟؟ هل هي موجودة فعلاً أم ابتلعها ديناصور مجهول؟

وأين هذا الديناصور الذهبي الرهيب، الذي استطاع أن يبتلع كل هذا الذهب.

ومن المعلومات التي يعرفها الصيارفة ـ ولست منهم ـ أن الجنيه

الذهب يزن حوالى سبعة غرامات... ومن أطرف ما قام به الشيخ سالم أحمد بن محفوظ، مدير البنك الأهلي التجاري وتحدّثت عنه صحف أميركا بعنوان (Human Calculating Machine) أنه عندما قام بزيارته الأولى إلى أميركا، طلب زيارة الفيديرال بنك... كما طلب أن يرى القاعة التي تختزن كل ذهب أميركا... فأجيب إلى طلبه... ودخل القاعة... وعندما خرج منها، سأل الموظف عن عدد أطنان الذهب الموجودة في القاعة... ولم يجد الموظف ما يمنع أن يخبره... فإذا بالشيخ سالم يسأله، كم يساوي هذا المقدار من أطنان الذهب من وزن الجنيه الذهب... استسخف الموظف السؤال ثم قال إنها عملية طويلة تحتاج إلى آلة حاسبة. فإذا بالشيخ سالم يقول له ماذا تكون مكافأة البنك لي... إذا قمت أنا خلال ربع ساعة بإعطائك كم جنيهاً ذهباً تساوي هذه الأطنان؟؟؟ دهش الموظف... واتصل بالإدارة... ضحكوا... وقالوا له عندنا حفل عشاء في أفخم فندق.

ابتعد الشيخ سالم إلى أحد أركان الغرفة... وعكف على أصابع يديه... وبعد أقل من ربع ساعة نادى سكرتيره... وقال له أكتب هذا الرقم... وأملى رقماً طويلاً. وتأكد من صحة رصده... وقدمه السكرتير إلى الموظف المختص... الذي قام بإبلاغه إلى الإدارة.

وظهرت الصحف في اليوم التالي بعنوان (مدير البنك الأهلي السعودي (Calculating Machine) سألت الشيخ سالم أيام كنت أعمل معه... كيف؟؟؟ ولم يزد على أن ضحك وقال: كيف أصبحت مدير البنك الأهلي التجاري... أول بنك سعودي في المملكة.

وبعد،

فالذي أدخلنا أسواق الذهب اليوم... هو كاتب التحليل الاقتصادي في جريدة المدينة المنورة، الذي قال كلاماً كأنّه ينذر، بعاصفة ذهبية يمكن أن تجتاح أسواق المال والأعمال، ومع أني ـ والحمد لله ـ لست من الذين يمكن أن تؤثر عليهم هذه النذر، فإن مما وجدت أن القارئ يمكن أن يرحّب به، حتى لو كان مثلي... هذا السؤال عن الذهب... أين يذهب؟؟؟

إنسان العالم العربي . . . ليس إنساناً

واحرص على تضييق دائرة مَنْ يسمى (إنساناً) في العالم، لأحصره في العالم العربي. وإن كنت لا أجهل، أن ما يسمّى العالم الثالث كلّه، يمكن أن نصف إنسانه، ملايين أو مئات الملايين من البشر فيه بأنه، لا ينطبق عليهم وصف (الإنسان).

وأنا أحصره في (العالم العربي) لأنه هو الذي نرى، ونلمس، ونعايش واقعه، الذي يؤكد أنه ليس (إنساناً) بالمفهوم الذي عناه، ولا يزال يعنيه (إعلان حقوق الإنسان) الذي يحتفل (العالم اليوم)، بذكراه، أو بذكرى إعلانه في العاشر من أوكتوبر عام ١٩٤٨.

والعالم العربي يوم ظهر إعلان حقوق الإنسان، كان عدداً من الدول لم تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة لأن بقية الدول (الاثنتين والعشرين اليوم) لم تكن قد تخلّصت بعد من الاستعمار ولكن هذا لا ينفي قطعاً أنها دول أو شعوب موجودة، ومن حقها أن تكون لها (حقوق الإنسان)، لأن هذه الحقوق، لم تكن أصلاً (للدول والحكومات) وإنما (للإنسان. . .) إطلاقاً.

ومنذ عام ١٩٤٨، وحتى اليوم كان الإنسان العربي، يعاني حالة مخاض. . . بالنسبة لهذه الحقوق. . . بمعنى أنه كان ولا يزال موجوداً،

ولكنه وجود بلا حقوق. كان ولا يزال موجوداً، ولكنه (مُبعد من مظلة الحقوق التي تقررت وشملت (الإنسان) على سطح هذا الكوكب).

ولا ينبغي أن يفغر أحد منا فمه، مندهشاً، وهو يتوهّم أنه يتمتع بهذه الحقوق... وأن أنفي أنا تمتعه بها مقولةٌ تتجاوز الواقع المشهود.

ويطول البحث والشرح، والحوار، إذا تطلع القارئ ـ وأنا معه ـ إلى التماس وجود أو عدم وجود هذه الحقوق في حياة الإنسان، الذي هو أنا... وأنت... وهو... وكل منا يمثل الملايين العربية في الوطن العربي من أقصاه إلى أقصاه... ولكن يكفي أن نقول إن المشاهد التي تعرضها علينا الشاشة كلَّ مساء، لهذا الإنسان الذي تقتنصه رصاصات الوحش الإسرائيلي المدجّج بالسلام حتى أسنانه، تقدم لنا الكفاية، ليس من واقع الفلسطيني في الأرض المحتلة... وإنما من واقعنا نحن... على مقاعدنا أو أسرتنا، وهذه المشاهد تتلاحق أمامنا... مشاهد الصبية الأبرياء والبنات... والعجائز، وكل ما ملكوه من سلاح هو حجارة الأرض... التي يقذفونها ليتلقوا في مقابلها الرصاص... وسيل الدماء.

أميركا من أوائل بلدان العالم التي وقعت إعلان حقوق الإنسان... ومثلها هذا الاتحاد السوفيتي... ثم بقية الدول الخمسين... فأين هؤلاء جميعاً من حقوق هذا الطفل، الذي يذبح وهذه الصبية التي تسقط مضرجة بالدماء... أين حقوق الإنسان من هؤلاء؟؟؟ أليس الصحيح الماثل والمشهود، إن أميركا، ومعها جميع دول العالم، قد أجمعت على أن هذا الإنسان ليس إنساناً؟؟؟

إن ما تعرضه الشاشة كل مساء، يراه مثلنا العالم كله... وهذا العالم يعرف أن هناك حقوقاً، للإنسان... فكيف، وبأي منطق... تلتزم

الدنيا... وليس أميركا وحدها الصمت... والتجاهل، وإدارة الظهر لهذا السافر المعلن والمشهود من انتهاك حقوق الإنسان.

وجود... أو عدم وجود هذه الحقوق في حياة الإنسان العربي، سؤال لا يوجهه هذا الإنسان إلى العالم، بكل دوله... وإنما يوجّهه إلى نفسه... سؤال يقول: (هل أنا إنسان حقاً؟؟؟).

ولن يجد جواباً إلا أنه ليس إنساناً.

منتهى الهدوء ـ لشريفة الشعلان

ولا أكتب هذه الكلمة، عن مجموعة قصص الكاتبة شريفة الشعلان، استجابةً لإهدائها إليّ. فهي لم ترصِّع النسخةَ التي بين يدي، بعبارة إهداء، وإنما أكتبها لأني وجدت المجموعة، بين ما يتراكم على مكتبي من كتب، أشتري بعضها، ويهدي إليّ بعضها الآخر. ولا ينبغي أن أتحاشى التصريح بأني معروف بانحيازي للمرأة، ابتداء من الأم رحمها الله وانتهاء عند الحفيدات، وبين الفريقين ما أترك للقارئ أن يراه بخياله، وأيضاً بظنونه التي لا أجهل أين تتجه، فإذا ساءت ـ وأعني الظنون ـ فلا أملك إلاّ أن أقول: (غفر الله له ولي).

وإذا صح ما تختزنه ذاكرتي، فإن الكاتبة الكريمة، كانت إحدى المشاركات، في قراءة قصص، ومقطوعات شعر في نادي جدة الأدبي الثقافي. وأتجاوز الحقيقة إذا زعمت أني أتذكر القصة التي قرأتها الكاتبة شريفة الشعلان... وإذا زدت على ذلك أن الحضور من الجنس (الخشن) قد صفّق للقصة التي قرأتْها الكاتبة الكريمة، فإني لا أنسى، أني علّقت على ما سمعت من القصص، وربما قلت عن إحداها لكاتبةٍ أخرى: ـ إني لم أفهم؟؟؟ وكان رد الكاتبة أنها لا تكتب، ليفهم أمثالي... وأمثالي بطبيعةِ الحال هم «أصحاب العكاكيز». ويسرني أن أنوب عن أصحاب العكاكيز هؤلاء لأقول: ـ إننا طلابُ علم، ولا تزال عندنا القدرة على

(حفظ اللوح)، وننتظر اليوم الذي نصل فيه إلى فهم ما يكتبه الكثيرون من شداة الحداثة من الجنسين... ولا أشك أبداً في أن الإبداع الحداثي في مرحلة مخاض ـ فيها شيء من العسر ـ ولكنها ـ في النهاية ـ ستعطينا، ما يضيف إلى الحركة الأدبية، مياسم جديدة لها رونقها وماؤها، ولها كذلك المعجبون بها من «أصحاب العكاكيز».

وبما تختزنه الذاكرة عن قصة الكاتبة الكريمة شريفة الشعلان، التي سمعها الحضور في النادي وصفقوا لها، وجدتني أحتضن مجموعتها ـ ولعلها الأولى ـ في منتهى الهدوء. وأعكف على قراءة، (المقدمة) التي تبدؤها بأنها (لم ترغب أن يقدمها أحد إليكم)... وهي بمنطق أنثوي عفوي تخاطب قراءها فتقول: (بصراحة أخافكم أنتم جميعاً) و(جميعاً) هذه تشمل أولئك الذين قالت إنهم أشبعوها «تكسيراً» وهي تضيف: (لست أطمع في رحمة... ولكني أتوخى عدلا...).

ولا أجد الوقت لأقرأ أكثر من قصة أو اثنتين... وكانت (الجنين) هي الأولى، التي ما كدت أقرأ الجملة الأولى منها، حتى أحسست أنها أمسكت، ليس بتلابيبي، وإنما بشتات ذهني... وكيف لا... والجملة الأولى تقول (كنت أمارس عليها ساديَّتي...) وحكاية (السادية) والساديين موجودة في جميع المجتمعات البشرية، المتقدمة منها، والمتخلفة، بل إن المتقدمة هي الأكثر تراكماً وانتشاراً، ربما لأن «الكونت دي ساد» كان من هذه المجتمعات المتقدمة. وربّما أيضاً لأن هذه السادية، ليست مقصورة على الرجال، بل هناك نساء ساديات يطيب لهن أن يمارس الرجل هذه السادية ربما إلى حد القتل... والعياذ بالله.

والشخصية التي جعلتها الكاتبة تتحدث عن نفسها: ـ وأعني الرجل ـ

يقول: (كنت أمارس عليها ساديتي... أمارسها بعشق... أسحقها حتى العظم... أرتوي ببؤسها حتى الثمالة) ثم يقول وهو يعني (زوجته) ـ كنت لا أدعوها إلاّ (يا ذكر النخل) لأنها لم تنجب... رغم أنني لم أذهب بها لطبيب، كما لم أفحص أنا. لم تكن تعترض... لم تكن تغضب... كانت تمشي بقدها الذي لم (يكسوه) لحم قط... كأنها لا تعرف من طعم الأكل إلاّ ما يحفظ حياتها.

وتزيح القصة الستار عن عقدتها، في الفقرة التي ذكرتها... عقدة «أنها» لم تنجب... وأنها بالغة النحافة والهزال، إضافة إلى الكثير مما ظل يشوّه به صورتها، مما يمكن أن يدخل في مفهوم المبالغة والتهويل. ونجده مع كل مشاعر الكراهية، وتصرفات السادية مع (ذكر النخل) يقول (اعتدتُها)... اعتاد كل ما يراه قبيحاً فيها، حتى ضفائرها المحنّاة... وتستوقفنا الكاتبة حين تكشف عن «معنى للحب» في منطق هذا الإنسان السادي إذ يقول: (لم أذكر أنها تجاوبت معي... ويتساءل: ولكن كيف تتجاوب، وأنا كل مرة «أغتصبها اغتصاباً» وكان آخرها قبل شهرين.

هذا الذي يسميه (تجاوباً) مفقوداً جعله يغتصبها قبل شهرين، وصل بالقصة إلى نهايتها حين دخل الحمام فوجدها (مكفية) على وجهها وأسفلها غارق في الدماء...

قالوا له (ميتة)... ولم تمت «قتلاً» بل نزيفاً نتيجة للحمل.

ومع أن عقدة القصة قائمة على أن الزوجة (ذكَرَ النخل)، وأنها ليست من الجميلات... فلا تعطينا الكاتبة شيئاً عن الظروف التي جعلته يتزوجها، فإن إحساسه بالإثم بعد موتها، يبدو مفتعلاً، أو مبالغاً فيه. إذ تلك «السادية»، أكثر شراسة واستهتاراً من أن تفتتح ثغرة للإحساس بالندم.

وبعد:

فقد استوقفتني بعض الأخطاء النحوية واللغوية، التي ما كان لي أن أذكرها، إذ لست مصحّحا لكراسة تلميذ... ولكن كم يحسن بالعمل الفني، أن يتكامل، فلا يقع فيه هذا الخطأ.

من هذه الأخطاء: (لم يكسوه)... والصحيح (لم يكسه) ـ السطر الرابع من الفقرة الأولى ومنها: (فكرت أن أدخل مطعم)... والصحيح (مطعماً)... السطر الثاني من الصفحة ١٣ ومن الأخطاء اللغوية (ودخلت الحمام لأجدها «مكفية» ـ والصحيح منكفئة.

وإني لأرجو أن أجد الوقت لقراءة قصص أخرى للكاتبة الكريمة... أشعر أن فيها ما يخفف عني ضغط الكتب والمواضيع، التي أسميها (ثقيلة)... ولكن لا مفر من العكوف عليها أغلب الوقت.

مشكلة البشر . . . مع الغذاء

في آخر تعداد لسكان الهند كان العدد يتجاوز ثمانمئة مليون. ولا حاجة إلى معرفة عدد سكان الصين إذ معروف أنه قد تجاوز الألف مليون منذ سنين. ورغم كل ما تتصايح به الدول المعنية من النذر، فإن زيادة عدد السكان مستمرة وبإصرار تؤكده ـ على سبيل المثال حملات الصحافة المصرية، ووسائل الإعلام الأخرى. إذ ما أكثر ما نشهد أما تقول وهي تبتسم (للست المذيعة) إن عندها ثمانية أولاد وبناتاً. . . وكانت أنديرا غاندي أشد جرأة من أي سلطة في العالم، حين واجهت المشكلة بتعقيم كل رجل عنده ثلاثة إلى أربعة أطفال. . . وقد عقمت سبعة ملايين ونصف المليون من الرجال. . . ولو عاشت لما توقفت عملية التعقيم. . . وفلسفتها ـ أو هو منطقها ـ يكفي الأسرة أن تنجب من ثلاثة إلى أربعة مواليد ذكوراً أو أناثاً، وما زاد على هذا العدد فخطر يهدد مستقبل الهند، التي لن تستطيع أن تؤمن للشعب حاجته من الغذاء. . . فضلاً عن الطب والعلاج. . . والتعليم. . . دع عنك الكساء، والسكن الخ. . .

ولعلّ الغذاء يأتي في مقدمة المشاكل التي تواجهها زيادة عدد السكان. . . والغذاء بالنسبة للكائن البشري، بتكوينه الخِلْقي، يختلف عن الغذاء بالنسبة لكثير من المخلوقات. . . من الأغذية الأساسية بالنسبة للبشر، (اللحم). . . أو (البروتين). فهو مادة ظهر الإنسان على سطح

الأرض، وهو لا ينام ليلَته في كهفه، حتى يكون قد اقتنص حيواناً يأكل لحمه (نيئاً) قبل اكتشاف النار. . . وهو لا يزال محكوماً بهذه الخصيصة، ولن يتخلص منها بكل ما يقدم له من أغذية بديلة مثل (فول الصويا) الذي يُعالَج ويُعطي نكهةَ اللحم وطعمه، ولكنه يظل مرفوضاً إذا وجد اللحم.

ومما يزيد من تعقيد وتضخم مشكلة الغذاء بالنسبة للبشر، اقتراب بعض الدول المنتجة للحوم والحبوب من حافة العجز عن تصدير الفائض كما هي الحال الآن. . . وليس ذلك نتيجة لمواسم أو حالات الجفاف الطارئة. . . وإنما لأن عدد سكان هذه البلدان يتزايد. . . ويطلب الفائض لنفسه. . . ولا يدري أحد ماذا تكون الحال، إذا تضاءلت القدرة على استيراد الحبوب واللحوم بأنواعها من بلدان مثل أميركا. . . وكندا، وأستراليا.

مما يبعث على شيء من الاطمئنان أن الثمانمئة مليون هندي، ليسوا كلهم من أكلة اللحوم. . . أكثر من ٧٥٪ منهم نباتيون. . . مما يبعث الأمل في أن تكون الهند بلداً مصدراً للحوم (المعيز والخرفان) ـ وليس الأبقار ـ لأن البقرة كما هو معلوم حيوان يعتبرها الهنود أمّهم فلا سبيل إلى ذبحها وتصدير لحمها، كما تفعل أميركا مثلاً.

نحن سكان المملكة العربية السعودية ومعنا دول الخليج العربية، نأتي في مقدمة الشعوب آكلة اللحوم. . . والقمح والأرز. . . ومع ما يبدو من وفرة إنتاج الخرفان بأنواعها فإننا نعلم أن الاستيراد لم يتوقف قط، وبمئات الألوف من الخرفان ـ ولا أدري عن الأبقار والجواميس ونحمد الله، فإننا حتى اليوم لا نشكو من تزايد عدد السكان، ولكننا نتزايد على كل حال، وإذا عرفنا نسبة الزيادة السنوية الآن. . . فإننا سنصل إلى ما سوف يكون

عدد سكان المملكة والدول الخليجية بعد مئة عام مثلاً.

ومن المفروغ منه أن مشكلة الغذاء، تتقدم الكثير من المشاكل في العالم، والأمم المتحدة معنية بها ولها تقاريرها المنذرة والمحذرة، التي تكاد لا تتوقف.

وأمام هذا الواقع، أعتقد أن العلم يضع المشكلة، في مختلف حسابات الكومبيوتر، والعلماء عاكفون على دراسة جميع الاحتمالات والحلول، المحتملة. وليس بينها ـ على الأرجح عملية التعقيم التي نفذتها أنديرا غاندي... ولكن لا أشك أن من أهمّها الوصول إلى الوسائل التي (تصرف) البشر عن شهوة أكل اللحوم... وأقول (تصرفهم) ولا أقول (تمنعهم)... والأمثلة الحية لإمكان الحياة، (الصحية الجيدة، بل والقوية)، في جميع الحيوانات التي لا تأكل اللحوم ومنها (الفيل) و(الجمل) و(الحصان) وكذلك (الحمار)... أنها مخلوقات أقوى عشرات المرات من البشر... فإذا استطاع العلماء أن يجدوا وسائل (صرف) البشر عن شهوة أكل اللحوم، فإن ذلك لا يحل مشكلة الغذاء فقط، وإنما يحل مشاكل أكثر خطراً، وهي الحروب التي كثيراً ما كانت الحاجة إلى الغذاء من أسبابها.

هناك، طبعاً ـ كمرحلة لحل مشكلة الغذاء ـ استزراع الصحارى... كما أن هناك الاستفادة من مياه نهر الأمازون التي تستطيع أن تروي كل صحارى العالم إذا عنيت التقنية بتوزيعها. وليس أسهل من ذلك... إذا لم يغب عن أذهاننا، أننا نوزّع البترول من أقصى العالم إلى أقصاه ولكن، كل هذا لا يغني عن وسائل (صرف) الإنسان عن شهوة أكل اللحوم... ومثلها الحبوب.

الرايخ الرابع

رغم أن العالم كلّه أصبح مستسلماً لوجود قوتين عظميين، هما اللتان تتحكمان في مصيره سلاماً وحرباً، وفقراً وغنى، وائتلافاً واختلافاً. فإن هاتين القوتين العظميين، بكل ما تمتلكانه من ترسانات أسلحة الفتك والتدمير، لن تغفل إحداهما لحظة واحدة عن أن هناك قمقماً فيه ذلك المارد الذي ينتظر فتح غطاء هذا القمقم، لينتصب عملاقاً، يشبه، إلى حد كبير، ذلك المارد الذي يعرف الأطفال أنه مجرد أسطورة، مثل كنج كونج، ولكن بفارق هام جداً، وهو أن هذا العملاق المقيم أو المسجون في «القمقم»، حقيقة استطاع أن يزلزل سلام العالم، مرتين، إحداهما في الحرب العالمية الأولى، والثانية في التي تلتها... وفي الحربين كان العملاق هو نفسه الذي رقص رقصة الحرب على سطح الكرة الأرضية كلها، ويطول كثيراً إيجاز الأسباب التي انتهت في المرتين إلى إدخاله في القمقم. ولكن، لا جدال في أن إدخاله هذا القمقم، ما كان ليتم لولا تجمهر وتجمّع جميع قوى الأرض ومنها هاتان القوتان العظميان.

وفي تاريخ الأمة الألمانية أنها عانت كثيراً من الانقسام والتفكك، فكانت في فترات طويلة دويلات، أو دوقيات، لكل منها نظام حكمها، ورئيس دولتها. بل لكل منها ثاراتها ضد الأخرى، والحروب هي التي كانت تفصل في هذه الحروب. إلى أن ظهر بسمارك ذلك السياسي

الداهية، والقائد العسكري الموهوب، ثم قبل ذلك (الروسي) الذي استطاع أن يوحّد معظم دويلات ألمانيا تحت مجلس اتحادي عرف باسم (الرايشساغ)... وخلال أقل من نصف قرن ظهرت ألمانيا (عملاقاً) زلزل كيان أوروبا، بل وأيقظ روسيا من إغفائها التقليدي الطويل.

وبعد بسمارك، والحرب العالمية الأولى، التي أشعلتها ألمانيا ثم خسرتها، ثم بعد (الرايخ الثالث) بقيادة هتلر، والحرب العالمية الثانية التي خرجت منها إلى القمقم الذي ظلت تعيش فيه، وحولها جيوش أربعة حلفاء منهم أميركا والاتحاد السوفيتي... بعد كل هذا ـ والمارد لا يزال في القمقم، بدأت منذ أسابيع حركة (توحيد) ألمانيا... حركة انسياح ألمانيا الشرقية في ألمانيا الاتحادية الغربية... ولا يستطيع أحد أن يجزم، بأن هذا الانسياح سوف يتم فعلاً، ولكن لا شك إطلاقاً في أن القوتين العظميين بالذات هما اللتان تراجعان حساباتهما، في «الديموقراطية» التي تنادي بها ألمانيا الشرقية ومعها تلك الدول التي تدور ـ ولا تزال ـ في فلك الاتحاد السوفيتي...

إن مراجعة الحسابات، واستعراض مراحل التاريخ، ترى (الرايخ الرابع)...، ولا تجهل القوى التي تطوق المارد في قمقمه العتيد منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أن هذا «الرايخ الرابع» ينتظر قيادة عبقرية، أو (مجنونة)، مثل بسمارك، أو (هتلر). وقد يكون مما يطمئن أميركا والاتحاد السوفيتي، أن هذه النوعية من القيادات، لا تزال في علم الغيب... والموجودون على الساحة، يظهرون «كالحملان الوديعة»، ولكن من يضمن أن يكون وراءهم، من يفتعل هذا المظهر الوديع، وإن قحف دماغه مشحون بذكريات سقوط برلين، وانتحار هتلر ومعه ايفابراون...

وكل منهم، لم تستطع إسرائيل أن تنزع عنهما أوسمة الانتصارات، التي حققوها، وكذلك رماد الهزيمة التي حاقت بهم... نتيجة لأنهم واجهوا العالم... العالم كلّه بكل مدمراته... فهل آن لألمانيا أن يكون لها «رايخها الرابع» في انتظار ذلك العبقري... أو (المجنون)؟؟؟

أوروبا جديدة. . . لا تحتاج أميركا

حتى اليوم، ليس هناك في أجواء العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية، ومجموعة دول حلف الأطلنطي، أو مجموعة الدول الأوروبية ومنها إنجلترا بشيء من غطرسة وتأبّي السيدة مارغريت تاتشر، ما يُلمح إلى أن يوماً ما سوف يأتي، تشعر فيه أوروبا بأنها تستطيع أن تعيش دون حاجة إلى المظلة الأمريكية. ولكن الأحداث التي تفاجىء العالم كل يوم تقريباً، في دول أوروبا الشرقية، والتي يبدو، وكأنها تقتحم الحواجز بينها وبين جيرانها في أوروبا الغربية. . . هذه الأحداث تقول إن ميلاد (أوروبا واحدة)، ينتظمها كلها إطار «القارّة» ربما باستثناء الاتحاد السوفيتي الذي سوف يظل وحده (قارة) من جهة، وقوة عظمى من جهة أخرى. ذلك هو ما سوف يضع النهاية لمراحل من تاريخها، بكل ما كانت تعانيه بلدانها من تحولات بينها الحروب الطاحنة، والصراعات الساحقة، إلى جانب نظم الحكم المتناقضة. وقد كانت الكنيسة تتمتع بذلك السلطان الخرافي، الذي يمنح صكوك الغفران، التي تتيح لحاملها أن يدخل الجنة دون حساب أو عقاب. . . وكانت هذه الهرطقة، هي الطريق الذي أخذت تسلكه دول أوروبا واحدة إثر الأخرى إلى (العلمانية) أو (الليبرالية). . . حيث تم في النهاية فصل الكنيسة عن الدولة، أو عن الحكم بمختلف دساتيره وقوانينه، ومنها (الديموقراطية) وأيضاً بمختلف مفاهيمها ومضامينها.

«أوروبا واحدة»، في إطار «القارة»، بالكثير المتوافر من إمكانياتها، صناعةً وإنتاجاً وزراعة، وكذلك (تسليحا) تقليدياً، أو متطوراً تكنولوجياً، سوف تستغني عن المظلة الأمريكية، مما يمكن أن يعيد الولايات المتحدة إلى عزلتها القديمة واكتفائها بأن تجد في أوروبا بل وفي العالم كلّه الأسواق لمنتجاتها، التي سوف تجد المنافسة على هذه الأسواق، في أوروبا (القارة) الواحدة... ثم في اليابان... وليس مما يسقط من حسابها، أن الصين، حين تظل سوقاً كبرى، سوف تصل في يوم ما، إلى أن تكون هي أيضاً (حجماً أسطوري الضخامة) لا تسقط أي من الدولتين العظميين من حسابهما، الخطر على العالم من جهة... وعلى أسواق الاستهلاك من جهة أخرى.

وليست بنا من حاجة إلى أن نعود بالذاكرة إلى الأسباب التي أخرجت أميركا من عزلتها وأتاحت لها أن تكون هذه القوة الهائلة، ولقد استفادت من انطلاقها من قيود عزلتها كما استفادت ـ وبمستوى أضخم وأهم ـ من وجود الاتحاد السوفيتي أو ظهوره بعد الحرب العالمية الثانية كقوة عظمى، لا تنام عنها عين أميركا، ومعها كل دول أوروبا... ولذلك فإن السؤال الذي يطرح نفسه ـ في مواجهة النتائج المحتملة للأحداث المتلاحقة، هو: هل يطيب لأميركا والأميركيين، أن يعودوا إلى عزلتهم؟؟؟

لأميركا الآن في ألمانيا ثلاثمئة ألف جندي، ولها بالطبع في هيكل حلف الأطلنطي صواريخها، وما لا حصر له من أسلحتها المتطورة، الموجّهة إلى أهدافها في الاتحاد السوفيتي فهل يمكن أن تسحب كل هذه القوات، من أوروبا؟؟؟ بل هل يمكن أن تتقبل أوروبا (القارة) فكرة، أن تظل وحدها على مرمى حجر من الاتحاد السوفيتي؟؟؟

كل ذلك، ليس أكثر من أحلام بالنسبة للوقت الحاضر... ولكن من كان يتصور، ثم يصدّق، أن تشهد دول أوروبا الشرقية، ما تشهده، ويشهده معها العالم في هذه الأيام؟؟؟

المجهول في محاضرة الغذامي. . . ظل مجهولا

ومحاضرة الدكتور عبد الله الغذامي، التي ألقاها في نادي جدة الأدبي الثقافي هي تلك التي استطاع الأستاذ عبد الفتاح أبو مدين ـ رئيس النادي ـ أن يستقطب لها حضوراً واسعاً أو عريضاً بترك موضوعها ـ في بطاقة الدعوة ـ مجرد عدد من النقاط أو الأصفار تنتهي بإشارة استفهام.

ثم استطاع ـ والحضور العريض ينتظر الدكتور المحاضر الذي ظل قابعاً في مكانه على أحد المقاعد بين المنتظرين، أن يشبع الدكتور إطراء وثناء، وأن يشبعنا معه إحساساً بأنه يسرف على الجميع بما ذكرنا به من جهد الدكتور الغذامي فيما تميّز به نادي جدة من تفاعل مع مسؤولياته كناد عايشه ـ ولا يزال ـ فريق كبير من المثقفين، في مراحل اتسمت ـ في تقديري ـ بالقدرة على إقلاق حالة الركود أو (البيات) الذي استطابه حملة الأقلام، ومنهم حملة مؤهلات الدكتوراه. . . والإقلاق هنا هو الحركة التي انتشرت على مساحة واسعة جداً من ساحة الفكر. فإذا كان هذا ما قصد إليه الأستاذ أبو مدين، فإني أجده قد تجاوز شخصية أخرى، كان لها نصيبٌ لا ينبغي أن يُنسى أو يُنكر، في عملية (الإقلاق) هذه، وهو الأستاذ سعيد السريحي، الذي استحق درجة الدكتوراه، وسمعت أنه منحها فعلاً، ولكنّها لا تسبق اسمه كما هو المألوف لدى الذين يحملونها. وذلك لغز يمكن أن نحاول حله بعدد من النقاط تليها إشارات استفهام. . . لا إشارة واحدة.

ولنعد إلى محاضرة الدكتور الغذامي التي حرصت على أن أكون واحداً من الذين حضروا الاستماع إليها... وفي ذهني أصداء محاضرته في الملتقى الثقافي الذي دعا إليه في أبها صاحب السمو الملكي الأمير خالد الفيصل... ومن هذه الأصداء أننا خرجنا منها دون إجابة عن السؤال موضوع المحاضرة وهو (أدبنا العربي إلى أين)؟؟؟؟ ثم ما عالجه من نقد لقصيدة من شعر الدكتور غازي القصيبي، قرأته ثم طويت الصفحة، وعلى لساني شهادة بأن الغذامي سوف يظل واحداً من أقدر من يزيد القارئ ألغازاً و(ضياعاً) في تيه لا أول له ولا آخر من إقناع واقتناع بأنه يحل هذه الألغاز.

ولا بد أن أبادر إلى الإعجاب البالغ، ليس بالألغاز أو بالنقاط وإشارة الاستفهام وإنما ببراعة المحاضر على أن يعطي المستمعين صورةً رائعة بكل مقياس للسابح أو المبحر في دنيا «مفاهيمه الخاصة» عن النص غائباً ولكنه غياب الحضور... والناقص، ولكنه نقص الكمال و(الميّت) ولكنه موت الحياة، إلى آخر ما أفضى به قاله في هذه المحاضرة، وما أتاح لفريق كبير من المثقفين أن يداخلوا ألغازه ومفاهيمه، وأن يسمعوا منه ردّه على كل مداخلة وبأسلوبه العلمي (المتمكن) من مادته وموضوعه، بحيث بدا لي فيلسوف نقد أكثر منه ناقداً نصوصياً أو أسلوبياً أو بنيوياً، أو ما شئت من هذه الثمار الجديدة، التي طلع بها علينا، المفتونون بمناهج النقد ومدارسه، التي طاب لهم أن يأخذوا منها، وأن يعطونا ما لا أشك في أننا سوف نتذوّقه في يوم ما، كما تذوقنا وهضمنا الكثير من عطاء الفكر الحديث.

وعنوان كلمتي، أن المجهول في محاضرة الغذامي، ظل مجهولاً...

ولكن هذا ليس مما يحسب على المحاضر، بقدر ما يحسب عليّ شخصياً، وربما على فريق من الحضور... ولذلك فقد رأيت في تعليقي على المحاضرة، أن محاضرة في هذا المستوى الفلسفي النقدي، يجدر بنا أن نعمل على أن تلقى هي وأمثالها، ومعها مداخلات المثقفين، في أوروبا، أو على الأقل في مصر، لأنها تعطي أولئك الذين لا يزالون يعتقدون أننا في الصحراء، وفي بيوت الشَّعر حقيقة ما عندنا من فكر... ومن قدرة على أن نحرّك الساحة الفكرية، حتى بهذه المجاهيل الرائعة بكل معيار.

علاقتي بالفضاء

إذا قلت إن علاقتي (بالفضاء) قديمة، فإني لا أبعد، والأرجح أني لا أُسلَك في قائمة الأدعياء، الذين تزدحم بأخبارهم وادعاءاتهم الصحف والمجلات، وعلى الأخص، في الأدب والفن. وقد بدأت هذه العلاقة ـ بمضمونها عندي ـ منذ ذلك اليوم الذي تداولت فيه جميع إذاعات العالم خبر إطلاق مركبة روسية، فيها كائن حي. وكان ذلك هو التحدي الساخن، الذي دفع الولايات المتحدة، إلى إطلاق مركبتها، حاملة (آرمسترونج) الذي كان أول إنسان، وضع قدميه على سطح القمر، ودقّ راية الولايات المتحدة على هذا السطح. وغيّر في نفس الوقت صورة هذا القمر، الذي ظل أرجوحة لأحلام العشاق والشعراء طوال عشرات أو مئات القرون.

والسؤال الذي لا بد أن يوجّهه القارئ، وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة، هو عن نوع العلاقة بيني وبين الفضاء؟؟؟ وقبل أن يفغر فمه دهشة، أبادر إلى التأكيد (الإلزامي) أن هذه العلاقة لا تعني إطلاقاً، أني اشتغلت ـ مثلاً ـ بشؤون الفضاء، أو عنيت بدراستها، وإنما الذي يعنيه، أنه وقع لي في ذلك اليوم ـ مع أم ضياء ـ حادث ما زلت أذكره، فإذا قصصته، ـ أحياناً ـ يستغرق السامع، ـ ونحن معه ـ في الضحك، ولكنّه ضحك على تركيبة عقلينا، ومدى إدراكنا لهذا الذي سمّوه في تلك الليلة (القمر الروسي) الذي يحمل ذلك الكائن الحي. . .

ففي السماء إذن ـ منذ ذلك اليوم أو تلك الليلة ـ (قمر روسي) لا بد أن يظهر إلى جانب (قمرنا) المليح، الذي كان يضيء سبلَنا، وتجوالَنا في الحواضر أو البوادي، ويحرك الكامن من مشاعر الحب، والهيام، ومعها قواربُ الأحلام، نبحر بها على هوانا وكما نشاء في هذا الفضاء الذي أطلق فيه الروس قمرهم اللعين.

في تلك الأيام، كنا نسكن منزلاً في شارع المنصور حرصنا ونحن نبنيه أن تكون له شرفة واسعة بنصف سقف، مما لا يحجب عنها ضوء القمر، من جهة ويتيح لنا استقبال نسائم الليل، بعد منتصفه... إذ يندر أن تسمى «نسائم». إلاّ إذ هبطت درجة حرارة الجو وهي لا تهبط في الصيف، إلا بعد منتصف الليل.

كنا (ننصُب) ناموسيةً للطفلين، وأخرى لنا (وأعني أم ضيا وأنا) نغشاها تحاشياً للسعات البعوض... وقد نرش الناموسية بالماء لتلطيف جوّها والتمكن من النوم.

خلاصة القصة... قضينا جانباً من الليل نسمع أخبار (القمر الروسي) من الراديو ثم أوينا إلى فراشنا في تلك الشرفة الواسعة... وكان القمر ـ على حد ما أذكر الآن بدراً... وساعدتنا نسمات ما بعد منتصف الليل، على أن نستسلم للنوم... ولكن في ذهنينا حكاية القمر الروسي، الذي رجّحت أم ضيا، أنه لا بد أن يظهر إلى جانب قمرنا (وقمرنا هو القمر الكوني المعروف الذي لم يحدث قط أن رأينا سواه)... كنت أبتسم أو أضحك، مستبعداً تقديرها، ولكن لا أخفي ـ في نفس الوقت ـ أن ظهور هذا القمر الروسي محتمل، ما داموا قد سمّوه (قمراً).

وكنت مستغرقاً في نوم عميق، عندما لكزتني أم ضيا، لكزة قوية وهي

تقول بصوت ملؤه الرعب... استيقظتُ مرتعباً... أسألها ماذا بها؟؟؟ فإذا بها ترفع إصبعها بيد مرتعشة وهي تقول:

ـ هذا هو

ـ من هو؟؟

ـ القمر الروسي... انظر... إنه يتوسّط السماء...

ونظرت إلى السماء... أو هو الفضاء... كان قمرنا هو الذي يتوسّط كبد السماء... مضيئاً ساطعاً جميلاً، يملأ القلب إحساساً بالمشاعر الجميلة... ومع أني لم أشك في أنه (قمرنا) وليس القمر الروسي اللعين... فقد سألت أم ضياء متخابثاً:

ـ ماذا ترين أن نفعل؟؟؟ ثم هذه الناموسية من نسيجٍ خفيف يكاد يشف عمّن فيه؟

ـ هل يقذف شرراً أو قنابل صغيرة؟؟؟

اكتفيت عندئذٍ بأن أستدير في مرقدي... وأنا أقول:

ـ هذا قمرنا يا عزيزتي...

ـ طيب... والقمر الروسي؟؟؟

ـ لا بد أنه عاد إلى روسيا... نامي... نامي ولنستعذ بالله من الشيطان الرجيم. تلك صورة من عقولنا ومداركنا في تلك الأيام... فما أسرع ما تطوّرنا... وما أعظم ما حققنا بهذا التطور،... إلى أن رأينا ـ على شاشة التلفزيون هذه المرة ـ صاحب السمو الملكي الأمير سلطان بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود، في مركبة الفضاء، وفي يده القرآن الكريم... وفي حديث مع خادم الحرمين الشريفين ملؤه الحب، ونبضه الشجاعة، والأمل الكبير في أن يتحقق حلم الشباب، في تطور أوسع،

يتيح لهم أن يرتادوا هم أيضاً الفضاء كما ارتاده سلطان بن سلمان... أول رائد عربي مسلم... وأمام ذلك المشهد... كانت الأمهات والآباء في كل بيت يرفعن أكف الضراعة إلى الله، أن يعيد إلى الأرض، هذا الرائد العربي المسلم، سالماً مكلّلاً بأكاليل المجد والفخار... تفخر به وبها أمّه... وكل أم عرفت معنى التضحية والفداء، في سبيل عزّة الوطن، العظيم.

فرق بين تحريك الصخور. . . وإثارة التراب

تحريك الصخور عمل يتقنه العامل القوي، وقد يستعين على ذلك بأكثر من أداة يعرفها ومارس التعامل معها. . . أما إثارة الغبار. . . أو التراب، فتصرف يمكن أن يمارسه الصبية في ساعات لهوهم ولعبهم. . . كما يمكن أن تُحدثه الرياح حين تذروه من موقع في الأرض إلى آخر.

والكُتَّاب في كثير من الصحف في العالم العربي، يمارسون في تعاملهم مع قضايا مجتمعاتهم المهتمين. . . أعني تحريك الصخور أحياناً ـ وإلى أن أقول (نادراً). . . وإثارة التراب في معظم الأحيان. . . والمسألة في الحالين مسألة ملء بطون هذه الصحف من جهة وأفواه أو بطون الكتّاب من جهة أخرى.

والصخور كما لا يخفى أنواع. . . بعضها ذلك الجلمود الذي يحطه السيل من عل وبعضها هش أقرب إلى الطمي المتماسك أو المتحجر. . . ومع ذلك فإن تحريكه لا يستغني عن جهد يختلف تماماً عن إثارة التراب، أو الغبار. . . وهو ما يمارسه الصبية في لهوهم دونما جهد يذكر.

والمجتمعات في العالم العربي، فيها الكثير من الصخور، التي تحتاج إلى التحريك. . . ومنها على سبيل المثال، العادات التي نلتمس الأعذار لرسوخها في حياة هذه المجتمعات بأنها مما انحدر إلى أجيالنا، عبر

سلسلة من الآباء والأجداد... كإصرار أهل الفتاة تخطب لمن طاب له أن يختار الزواج منها... على البذخ، وليس في المهر، والشبكة وما يسمّيه إخواننا في مصر (الجهاز) فحسب، وإنما في حفل عقد القران، أولاً ثم حفل الزفاف ثانياً... وهو بذخ قد لا يعجز ذوي الثراء الضخم والجاه العريض، ولكنه يقصم ظهور الآباء ويفتح بيت الزوجين لعواصف الفاقة والحاجة، فالعجز... فالطلاق تطلبه الفتاة الدلوعة أحياناً، ويضطر إليه الفتى الذي لا يزال في درجات السلم الوظيفي أياً كان أحياناً أخرى.

ويطول ضرب الأمثال للصخور التي تقع على الكتاب مسؤولية تحريكها واقتلاعها من محجرها... وتمتلئ الصحف بالكلام عن البذخ وأضراره ونتائجه السيئة على كيان الأسر النامية، ولكنها تمتلئ في نفس الوقت بأخبار حفلات عقد القران أو الزفاف، في ذلك الفندق الفخم والعدد الكبير من المدعوين، وما انبهروا به من مظاهر الفخفخة والأبهة... وفي ذلك بطبيعة الحال استفزاز لغير القادرين، والمتحسّرين، أو المنتظرين للمعجزة قد لا تأتي إلاّ بعد عدد من السنين.

أما عمليات إثارة الغبار أو التراب، فما أكثر ما نجدها في مجال النقد الفني والأدبي... ولا أدري شيئاً عن (الكروي) إذ أسمع أنه يدخل في نفس الإطار... في مجال الفن، عندنا الموسيقى والغناء، ثم الأعمال التشكيلية. والذين يتصدون للموسيقى والغناء يثيرون الكثير والعَفِن من الغبار... والمحرر الذي يصفونه بأنه (محرر فني) في صحيفة من الصحف أو مجلة من المجلات، يتخذ من الغمز واللمز وسيلة لتجريحٍ ملفوف لهذا المطرب، أو ذلك الملحّن، فإذا وصل إلى فنّانين من البلدان

الشقيقة فما أكثر ما ينحني تقديراً، فيه رغبة التقرب أو التواصل عندما تتاح له فرصة قضاء الإجازة في البلد الشقيق.

أما الذين يتصدون لنقد الأعمال التشكيلية، أو الفن التشكيلي، في المملكة فإن معظم محرري الصفحة الفنية، يعتقدون أنهم نقاد فنون تشكيلية، ويا ويل الفنّان أو الفنّانة التي يظهر لها عمل فنّي، في معرض من المعارض. . . ما أسهل أن يتصدى (المحرر الفني) للعمل بالإعجاب والتقدير بكلمات بالغة التفاهة لمجرد إرضاء الفنان أو الفنّانة. . . وما أسهل أيضاً أن يملأ مساحة من الصفحة، تجريحاً لعمل، لا يفهم منه إلاّ أنه (سرقة) يحاول إثباتها بكل وسيلة، وبتعبير جارح لا يليق.

فإذا جاء فنان ملتزم، وأصيل وكبير، كالأستاذ محمد السليم، يصحّح الخطأ الذي وقع فيه المحرر الفنّي، أو تعمّده بروح حاقدة، فإن السليم بكل أستاذيّته، يعود تلميذ يعلِّمه المحرر الفني الهمام، أصول النقد أو أصول الفن، أو ماذا كان عليه أن يقول.

وقد يسألني القراء. . . أيهما الذي تحتاجه المجتمعات العربية، أو الصحف العربية في هذه المجتمعات. . . فلا أجد ما أقوله سوى أن إثارة الغبار والتراب هو العمل الذي يملأ بطون هذه الصحف. . . كما يملأ أفواه وبطون الكتّاب.

موقف العرب والمسلمين. . .
من المتغيرات حولنا

أما المتغيرات من حولنا فهي التي تتوالى، ونكاد لا نستقبل اليوم الجديد من أيامنا إلا وأمام أعيننا مشاهد حركتِها، متسارعة، صاخبة، هادرة، تبشر بأن العالم مع بداية العقد الأخير من هذا القرن، قد بدأ خطواته الأولى، نحو حياة، الجديد فيها ـ والخطير في نفس الوقت ـ إن الذي يخطط لمسيرتها لم يعد مركز السلطة التقليدي في الكريملين وإنما هو (الشارع)؟!. . . جماهير الشعب في هذا الشارع، هي التي ترفع شعارات لم ينظِّر لها المنظّرون وراء الجدران، ولم تعلنها أو تصخب بها الإذاعات أو شاشات التلفزيون ومعها المارشات العسكرية، التي تُنذر بأن على الذين يسمعون أن يطيعوا، وعلى الذين يشاهدون أن يعو. . . شعارات ليس فيها جديد. . . بسيطة، وعفوية، يدرك مضمونها حتى الأطفال. وتلخّصها كلمة واحدة هي (الحرية). . . وحق الإنسان في هذا الشارع أن يرفض ما ظلّت تنظّر له وتفرضه مراكز السلطة التي بدأت تمارس تنظيرها منذ سبعين عاماً، واستطاعت أن تنتشر وأن ترسّخ هذا التنظير في عالم عرفت كيف تستثمر معاناته الموروثة عبر قرون، وليس في أوروبا وحدها، وإنما في العالم على رحبه. لأنه كان عالم ما بعد الحربين

العالميتين بكل ما تركتهما في حياة البشر من جراح، وفي تاريخهم، من عظام الملايين، انطوت عليها الأرض وكأنها انطوت على بذور نبات تنشق عنه التربة، في هذه الأيام، ليرى العالم في القرن الحادي والعشرين، إنساناً جديداً قد أدرك بما فيه الكفاية، حقه في أن يرفض ما يفرض عليه، وأن يتمتع بحقه في أن يعيش الحلم الذي آن له أن يراه حقيقة قادرة على أن تهدم سور برلين، وأن تقتلع تشاوتشيسكو من حصونه، رغم ما أراقت قواته الغاشمة من الدماء وأن تسقط حكم الحزب الواحد، في أوروبا الشرقية كلها، ويكون ذلك هو أضخم إنذار يتلقاه عالم الحكم الشمولي، في كل بلد زرعت فيه الماركسية العالمية بذورها...

ومع هذه المتغيرات العاصفة، لا بد أن نتساءل عن موقف العرب والمسلمين منها... بل أن نتساءل هل يمكن أن يكون لهم موقف معيّن أو مواقف، تدرك حقيقة أن (الشارع) هو الذي أصبح مركز السلطة القادرة على أن يرفض ما يفرض عليه، مما لا يتفق مع حقه في حياة كريمة، يعيش فيها الحلم الذي طال انتظاره، زماناً تجاوز عدداً من القرون...

ما أكثر مَنْ يصفق وهو يسمع أو يشاهد حركة هذه المتغيرات من حولنا، لأن الراسخ في وعيه، أنها متغيّرات تتناول الحكم الشمولي أو الشيوعي أو الماركسي... وهو الحكم الذي لم تتوقف أجهزة الإعلام في العالم العربي والإسلامي عن التنديد به، وتبصير الناس بما فيه من ظلم واستبداد وطغيان، ولكن هل تنبّه هذا الذي يصفق، لسقوط تشاوتشيسكو، وهدم سور برلين، وقبل ذلك دراما الميناء السماوي في الصين، وسقوط حكم الحزب الشيوعي في بولندة، والمجر الخ... هل تنبّه إلى أن الذي يقوم بكل ذلك هو (الشارع)، وليس المنظّرين في الكريملين، أو في غير

الكريملين من مراكز سلطة الحكم الشمولي؟؟؟

إنها المرة الأولى، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، التي يستطيع فيها (الشارع) أن يكون المنظِّر، وصاحبَ الكلمة، والقادر على أن يهدم الأسوار، ويسقط رؤساء الحزب الواحد من كراسي الحكم.

وفي ذلك ما يستحق ـ فيما اعتقد ـ أن يكون للعرب والمسلمين معه موقف أو مواقف تعرف، كيف تتعامل مع نتائج هذه المتغيرات.

نحن، والمتغيّرات من حولنا

تساءلتُ في كلمة سابقة بعنوان (موقف العرب والمسلمين من المتغيرات حولنا). عن موقف العرب والمسلمين منها، وأضفتُ: هل يمكن أن يكون لهم موقف معين، أو مواقف تدرك حقيقة أن (الشارع) هو الذي أصبح مركز السلطة القادر على أن يرفض ما يفرض عليه؟؟

واليوم، ونحن نرى كيف تتلاحق هذه المتغيرات في نظام الحكم الشمولي أو الشيوعي لا بد أن نتعمّق الواقع الماثل في حياة معظم الدول العربية والإسلامية، التي وقفت ولا تزال تقف، في وجه امتداد وانتشار هذا الحكم الشمولي في الساحة العربية والإسلامية... وإذا قلنا إن هذه الوقفة الصامدة في وجه هذا الحكم الشمولي طوال الفترة منذ الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم هي التي استطاعت أن توقف مدّ هذا الحكم الذي أسقطته في هذه الأيام الشعوب التي أسقطها وأخضعها الطغيان لسلطان حكم، كانت الدبابات والمدافع والمعتقلات، ومستشفيات الأمراض العقلية (للمفكرين والمثقفين والداعين إلى الالتزام بحقوق الإنسان) هي وسائله، ليس فقط للإخضاع والإرغام على التنازل عن الحقوق كافة... ومنها حق التفكير الحر، والكلمة الهادفة إلى الإصلاح، وإنما فوق ذلك وقبله وبعده، اعتبار هذه الشعوب ـ كلها ـ قطيعاً، تسوقه وتُوجّهه الرصاصة وتملي عليه إرادتها قوة، لم يعد في منطقها أو ضميرها

إلاّ أن تقف طوابير هذا القطيع، شباباً وشيباً، صبايا وأطفالاً رضعاً، ساعاتٍ أو حتى أياماً وأسابيع في انتظار، الخبز، أو السكر، أو قطعة القماش من الصوف أو ما يسمى (الكستور) لوقاية الأجساد الهزيلة الضامرة من لسعة البرد وسياط الصقيع. . . وهذا في الوقت الذي تعيش فيه قوى القهر والطغيان، حياتها المترفة في نفس القاعات والأبهاء وحول نفس الموائد والمقاعد التي كان يستمتع بها الأباطرة في الكريملين وغيره من الدور والقصور. ولا شك أن الذين أتيح لهم أن يشهدوا مستوى الحياة التي كان يعيشها شاوشيسكو وزوجته وأسرته، طوال ربع القرن الذي قضاه رابضاً، على صدر الملايين من أبناء شعبه، بمدافعه ورصاص قوات جيشه وشرطته الخاصة وحتى يوم إعدامه، قد أدركوا المدى الذي بلغه الطغيان، وأدركوا في نفس الوقت، أن الألوف من الذين أهدرت دماؤهم من الشعب الروماني، في الشوارع والطرقات لم يجدوا سبيلاً للخلاص إلا، أن يقدموا أرواحهم ودماءهم ثمناً، للخلاص من ذلك الظلم، والظالم، والخروج إلى حياة، يجدون فيها الخبز، الذي حرموا منه طوال ربع قرن، والدفء، الذي لم يعرفوه إلا في الأسبوع الأخير بعد الحكم على ذلك السفاح بالإعدام.

وموقف، أو مواقف العرب والمسلمين، من هذه المتغيّرات في العالم الشيوعي كله، هو موقف العبرة والعظة والحذر من أن تنخدع شعوب الأمة العربية والإسلامية بما سبق أن انخدع به بعضها من شعارات رفعت، ولعلها لا تزال ترفع بأقلام حملت دعوى التقدم والتحرر أحياناً، أو راية العدالة الإسلامية أحياناً أخرى، ولكن بمفهومها المصنوع أو الموضوع، لتحقيق الكثير من الأطماع، وأغراض الوصول إلى السلطة، مطاوعة، وعمالة لمصادر الإرهاب، تسخّر عملاءها ومأجوريها والمستفيدين منها هنا وهناك.

ومن المفروغ منه، أن الواقع الذي تحرك لتغييره ذلك الشارع، في الدول الشيوعية يختلف تماماً عن الواقع في معظم الدول العربية والإسلامية، إذ ليس بينها من مرّ بالمعاناة والقهر والحرمان الذي مرّت به هذه الشعوب التي ظلت تعاني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية أبشع وأفظع نماذج الحياة التي حكمتها الشعارات من جهة، وقوة القهر والطغيان من جهة أخرى.

وبالنسبة لنا، نحن في المملكة العربية السعودية، فإن هذه المتغيرات قدّمت لمواطنينا، الفرق الشاسع، بين ما منّ الله به عليهم من نعمة الرغد والرفاه والأمن والاستقرار، تحت ظلال هذه الراية، الخفّاقة بكلمة (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) وفي مضمونها جوهر العقيدة الإسلامية السمحة... التي نحمد الله على أن عاهلنا العظيم الملك فهد بن عبد العزيز، قد كرّس جهده كلّه، وحياته كلّها لتحقيق مضمون هذا الجوهر بتلاحمه مع أبناء شعبه، هذا التلاحم الذي نرى، كيف يتم، يوماً بعد يوم، بتفقده أحوال المواطنين في مناطقهم، وله، حفظه الله، في كل جولة من جولاته، ما يؤكد شعوره العميق، بما يتطلع إليه أبناؤه، من عطاء يستهدف، دائماً، المزيد من الرغد والرفاه والخير والاستقرار.

ومن هنا فإن موقفنا من هذه المتغيرات، هو موقف الأمة التي تدرك ما منّ الله به عليها من النعم، وما متّعها به من رعاية ملكٍ، ارتضى أن يكون خادم الحرمين الشريفين، وأن يعمل ليله ونهاره، لخدمة المواطنين، والوافدين من حجاج بيت الله الحرام خدمةً فيها، قبل كل شيء، إيمانه بالله، وعمله بحكم شريعته الغرّاء، وفي ذلك ما يرضي ضميره ووجدانه أمام الله سبحانه... وليس قليلاً ولا هيّنا أن يكون ذلك هو مطلب الحاكم المسلم العظيم.

صرخة الابنة ـ نوال سعد صالح السيف

وهي صرخة نشرتْها هذه الجريدة يوم ١٤١٠/٦/٥ للابنة (نوال سعد صالح السيف)... عن ذلك الطفل وعمره ست سنوات، يتأبط حقيبة المدرسة، ويركض عبر الشارع، إلى مدرسته التي يبدو أنها تقع في الضفة الأخرى من الشارع الذي انطلق يركض لعبوره، فإذا بسيارة (متوحّشة)، ـ وهذا تعبير الكاتبة ـ تفري الطفل قِطَعاً... وانتهت هذه الروح الطاهرة الجميلة تحت عجلات السيارة.

وصرخة الابنة (نوال سعد صالح السيف) تُسلم بأنها معنا في أن (الأمر قضاء وقدر) ولكنها تتساءل: (هل معنى هذا أن نظل ننتظر قضاء وقدر مجموعة من الأطفال ذكرت أسماءهم... ربما لمجرد الرغبة في تذكيرنا بأن أطفالنا، سيظلون عرضة لفَرْيهم أو فرمهم تحت عجلات السيارات (المتوحّشة)... ولا أدري لم وصفت السيارة (بالتوحش)، ولم تقل إن السائق، وأمثاله مئات وألوف هم الذين يجب أن يوصفوا بأنهم (وحوش) يتعذر أن يوصفوا بالآدمية، وهم ينطلقون بسياراتهم بسرعة صاروخية، تؤكد توحّشهم وجنونهم... ونحن لا نجهل أن مكان الوحوش، هو البراري والقفار، أو حدائق الحيوان... ومكان المجانين هو المصحات العقلية، وبما أنهم، يعتبرون في نظر النظام واللوائح (عقلاء)... فمكانهم زنزانات السجون.

ولا أذكر الآن ما الذي طالبت به الابنة (نوال سعد صالح السيف) في صرختها، ولكن الذي لا أتردد من جانبي في المطالبة به، ليس المزيد من رقابة المرور، وعقوبات المخالفات المرورية المعتادة، بل الذي أطالب به، وأتطلع إلى أن يشاركني هذه المطالبة رجال المرور أنفسهم... لأنهم الذين يتحمّلون مسؤولية العمل على التقليل من (الحوادث المرورية) التي نقرأ، في الصحف، ضحاياها، ليس من الأطفال فقط، بل من الكبار.. من الشباب في زهرة العمر.

الذي أطالب به، هو إيجاد الجهاز (الآلي) الذي تزوّد به جميع السيارات، ليحول ويمنع زيادة السرعة عن ١٠٠ كيلومتر في الساعة، في الطرق بين المدن... وفي نفس الوقت تزويد الشوارع والمنعطفات بعدسات تلفزيونية تضبط كل سيارة تتجاوز السرعة المقررة في الشوارع، وهي تختلف من شارع إلى آخر... بحيث يجب أن تتضاءل في الشوارع الضيقة، والمنعطفات.

قال لي أحد الذين قرؤوا هذا المطلب الذي سبق أن كتبته فيما أكتب عن الشؤون العامة (لن تسمع استجابة لطلبك هذا، لأن من مُلاك السيارات شخصيات، لا يطيب لها أن تُرغم على تحديد سرعة سيرِها وسياراتِها... وأقول، إن النظام يجب أن لا يفرق بين شخصيات تخضع لأحكامه، وبين أخرى لا يطيب لها أن تخضع لهذه الأحكام...

عدد الحوادث المرورية في المملكة قد يكون الأكبر والأضخم، والأكثر دلالة على الاستهتار بالنظام، الذي أشهد من جانبي أنه (عالمي)... ولكن المشكلة ـ مع الأسف الشديد ـ أننا غير عالميين، في احترام النظام... ولذلك فلا بد أن يكون لنا نظام يتفق مع نقص

(عالميتنا) أو ضعف إحساسنا بمسؤوليتنا عن الأرواح التي تذهب ضحايا (للحادث المروري) كما تسميه إعلانات العزاء والنعي الخ. . .

ثم. . . أنتهزها فرصة لأتساءل عن المبرر الذي تقبله دوائر المرور، للتصريح لشبان دون سن العشرين، بل دون سن الخامسة عشرة، بأن يمتلكوا سيارات، وينطلقوا بها بتلك السرعة الصاروخية حتى في الشوارع الضيقة. . . أو في طريق الجامعة الذي يخترقونه ليس لأنهم يدرسون في الجامعة، وإنما ليمارسوا استهتارهم بالنسبة للسيارات التي تنقل فتيات الجامعة. . . ومبرر قيادتهم للسيارة أنهم يقومون بواجب توصيل (أخواتهم).

ليس على المسؤولين عن تنفيذ أنظمة المرور، للتأكد من هذه الفوضى في التصريح لهؤلاء إلاّ أن يقفوا أمام بوابات المدارس الثانوية (والإعدادية)، ليروا صفوف السيارات المترفة من الكاديلاك إلى المرسيدس. . . نزولاً إلى التويوتا الفخمة، يقودها المراهقون الذين لا تزال أصواتهم، تؤكد أنهم دون البلوغ.

وبعد:

فقد يجب، أن أقول للابنة (نوال سعد صالح السيف)، إن هناك خطأ من جانب الأم أو الأب الذي يسمح لطفل في السادسة، أن ينطلق وحده وأن يعبر شارعاً كبيراً، إلى المدرسة. . . المألوف، بالنسبة للأطفال في مثل هذه السن، أن يصحبهم الآباء، أو أن تكون للمدرسة حافلات تقوم بنقلهم، «مجموعاتٍ»، كما هو الواقع في معظم بلدان العالم.

مفهوم التفوق في التعليم؟؟؟

شرفت بدعوة صاحب السمو الملكي، الأمير فهد بن سلطان بن عبد العزيز، أمير منطقة تبوك لحضور مهرجان، توزيع جوائز التفوق لطلاب مختلف المراحل، كما شرفت مرتين بدعوة صاحب السمو الملكي، الأمير محمد بن فهد بن عبد العزيز أمير المنطقة الشرقية لمهرجان واحتفال توزيع جوائز التفوق على طلاب المراحل المختلفة أيضاً. وفي حفل سمو أمير منطقة تبوك، كان ضيف الشرف، سمو الأمير محمد بن فهد لأنه كان الأسبق بفكرة جوائز التفوق، يدفعها سموه، وينفق على مهرجانها الضخم الذي يدعى له المثقفون، والأدباء والمتخصصون في شؤون التربية والتعليم وأما في الحفل الأخير، في الدمام في المنطقة الشرقية فقد كان ضيف الشرف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل بن فهد بن عبد العزيز، الذي يطيب لي أن ألقبّه بـ (أمير الشباب).

وفي المهرجانات الثلاثة، رأيت وعايشت ما بهرني من الجهود التي تبذل فعلاً لتكريم المتفوقين من طلاب مختلف مراحل التعليم، ومعنى الجهود، ذلك الإنفاق السخي، وعلى حساب الأمير مانِح الجوائز والمُنفق على الاحتفال بها... وإلى جانب هذه الجهود المضنية بكل معيار ذلك السر المتواصل، ليلاً ونهاراً الذي يأخذه على عاتقه مدير التعليم في المنطقة ومعه ذلك الفريق الكبير المتميز بمشاعر الود والألفة تواجهك في

الابتسامة العريضة، واللهفة على أداء ما يؤمن راحة المدعوين ـ وعلى الأخص منهم أمثالي من الذين يدرك القوم أنه إلى المزيد من العناية أحوج، وأجدر بالرعاية والعون.

ويضحكني على نفسي، إلى درجة السخر بل والاستسخاف، أني لا أسارع إلى الإبراق بعبارات الشكر على الفضل الذي غمروني به. . . والسبب ـ إن كان هناك سبب ـ فهذا النشاط المتخاذل الذي يخون الرغبةَ ويُقعدها، في انتظار من يَعين، ولا يستطيع، لأنّه يخفق في التعبير عما في النفس من الامتنان وهو كثير كبير.

وبعد، فلأقف عند مفهوم التفوق الذي أخذ الأميران الكريمان على عاتقهما تكريمَه ومنحه هذه الجوائز السخية، والاحتفال أو المهرجان الكبير.

لست من رجال التربية والتعليم طبعاً، ولم يتح لي أن أتفهّم أو أرى نموذجاً للتفوق الذي استحق المتفوق عليه الجائزة السخية من الأمير الحكيم. . . ولكن استسمح رجال التربية والتعليم أن أسألهم: (هل التفوق هو حصول الطالب على (درجات ما فوق جيد جداً) كدرجة (ممتاز) مثلاً في المواد التي اعتبر متفوقاً فيها؟؟؟ وهل حصوله على هذه الدرجات لأنه عند الاختبار وجد (حافظاً) المادة أو المواد التي استحق فيها درجة التفوق؟؟)، وأعني بكلمة (حافظ) هذا الحفظ (الصَّم) أم أن حصوله على درجة التفوق هذه لأن اختباره أظهر أنه (فاهم)؟؟ وفاهم هذه تعني أن الطالب استوعب المادة، وناقشها وفهمها الفهم الراسخ، الذي سوف يمهّد له استيعاب وفهم ما سوف يليها في المراحل القادمة من موضوعها؟؟

بالنسبة للمواد الدينية، وفي مقدمتها القرآن الكريم، والأحاديث النبوية

الشريفة وقواعد التوحيد والفقه، والتجويد، قد يكون الحفظ (الصم) هو معيار التفوق، الذي يستحق معه الطالب درجة التفوق والامتياز. . . تلك قضية مفروغ منها تماماً.

ولكن ماذا عن المواد الأخرى؟؟؟ هل (الحفظ) هو مؤشر التفوق؟ وعندئذ. . . ماذا عن الاستيعاب والفهم وإفساح مجال المناقشة والحوار اللذين يشعلان شرارةَ البحث ويؤهلان الطالب للمراحل القادمة في حياته العلمية.

واستسمح الأساتذة الإجلاء من رجال التعليم أن أقص عليهم قصة أذكرها من أيام زمان، وقد يذكرها الأستاذ الصديق محمد حسين زيدان. إذ كنا زملاء في مدرسة واحدة، ولكنه في سنة متقدمة عني، وكنت مع مجموعة من زملاء منهم السيد عبد الرحمن طه، وهو شقيق السيد حسين طه مدير المدرسة وأستاذ الرياضيات فيها.

كانت أنظمة المدرسة تقضي، بأن يمنح المتفوقون ظهر يوم الخميس من كل أسبوع شهادات تبدأ من: (تلطيف) مطبوعة بحروف ذهبية. . . يذكر فيها أن التلميذ استحق التلطيف لتفوقه في مادة الحساب مثلاً. . . فينادى عليه أمام صفي التلاميذ، ويقرأ التلطيف بصوت عال ثم يتناوله التلميذ ليعود إلى مكانه في الصف. . . وهناك (التحسين) شهادة مماثلة ولكن الورقة أكبر حجماً. . . وتمنح لمن كان تفوقه أكبر أو أفضل. . . ثم بعد هذا (التحسين). . . يأتي (الامتياز). . . وهو ورقة أكبر حجماً من الاثنين. . . يقرأها (المراقب) بصوت جهوري عال. . . ويتقدم التلميذ لتناولها بين تصفيق الصفين من التلاميذ. . . والامتياز شهادة نادرة. . . قد لا تصدر إلاّ مرتين أو ثلاثاً طوال العام.

ومع هذا المهرجان لتوزيع شهادات التلطيف والتحسين والامتياز. . . هناك (حصيرة الغضب) التي نجدها (مبسوطة) أمام المراقب، وعليها (الفلكة) و(الخيزرانة). . . ومفهوم أن كل ذلك معد ليس فقط للكسالى وغير المتفوقين، وإنما قبل ذلك لمن يسوء سلوكهم في المدرسة أو في الشارع أو في البيت. . . لأن الشارع. . . والبيت، كانا يزوّدان المدرسة بأي سلوك يرفضه المجتمع ككل. وفي يوم خميس مما وصفت. . . كنت أقف في الصف مع زملائي. . . وفي تقديري أني سأدعى إلى (حصيرة الغضب) لأني (تضاربت) مع زميل هو (السيد ناصر غوث) رحمه الله و(فقشت) جبهته بحجر أسال دمه الذي رفض أن يكون (مدفوناً).

ولكن ما كان أشد وقع المفاجأة في نفسي، حين ناداني المراقب باسمي. . . قبل توزيع شهادات التلطيف والتحسين والامتياز. . . وكانت عمليات (حصيرة الغضب) تأتي في العادة بعد توزيع الشهادات. . . ترددت في الحركة. . . بل لم أتحرك، إلى أن ناداني مرة أخرى. . . لم أكن أتوقع تلطيفاً ولا تحسيناً ولا شيء من ذلك أبداً. . . ولكن الزميلين إلى جانبي لكزاني. . . ودفعاني. . . فمشيت متخاذلاً (مكسوفاً) متوقّعاً أن (فقشة) السيد ناصر غوث، كانت هي التي عكست العادة. . .

ووقفت أمام المراقب فإذا بيده أكبر الشهادات. . . شهادة الامتياز ـ وباسمي، وذلك لنجاحي وتفوقي في مادة (التوحيد). . . وصفق التلاميذ. . . وتناولت الشهادة وأنا لا أصدق شيئاً وأرجح أن المسألة فيها خطأ ما.

واستأذنت. . . وقابلت أستاذ المادة، وكان الأستاذ محمد صقر يرحمه الله. . . واستسمحته أن أسأله عن سبب منحي شهادة الامتياز؟؟؟

قال باختصار شديد. . . وهو يضع يده على كتفي. . . (لأنّك لم تكن تحفظ الأدلة. . . وإنما كنت فاهمها. . . كان عقلك هو الذي يستدل. . . وإذا منحك الله هذا الفهم فسوف تكون أفضل مما أنت عليه الآن.

فالسؤال إليهم إلى المتخصصين في التربية والتعليم عن التفوق: (هل هو للحفظ الصم) أم (للفهم)؟؟؟.

الزيدان. . . لن يتقاعد

وأعلم بالطبع أن أول ما يستوقف القارئ هو حرف (لَنْ) هذا الذي ينصب، وينفي الفعل في مستقبله المنظور. ونبتعد عن أثر (التابيد) الذي يراه لا أدري من هو من علماء النحو. . . وللقارئ، أن يتساءل (كيف؟؟) ولو أتيح له تصرف (تكنولوجي) لجعل من هذه الكلمة «بالتكبير» واللصق في النوادي الأدبية، ما يسميه الإنكليز (Poster) ولا أجد لها في اللغة العربية إلا تعريفاً طويلاً هو «إعلان «مصور وملوّن» على الحيطان لاصقاً فيها وبشيء من محاولة الاختصار ـ وبشيء من الذكاء أيضاً، يمكن أن يسمَّى (لاصق الإعلانات). . . وهو ترجمة مهملة تماماً في لغة السينمائيين والمصورين في العالم العربي، إذ يفضّلون أن يسمو كل ما يملأ جدران القاهرة (على سبيل المثال) من إعلانات عن الأفلام وبطلاتها الجميلات والكلمات الذكية عن السيدة (الليدي) نبيلة عبيد التي أذكر أنها كانت: (وسقطت في بحر العسل). . . واعترف أني قد زحمتني ضحكة وأنا أرى (الليدي) بكل مفاتنها، ساقطة أو سابحة أو غارقة في بحر العسل وتساءلت: (ترى كيف يتاح لها أن تخرج من هذه البحيرة أو البحر من العسل. . . ونحن نعرف أن إزاحة بقية هذه المادة عن أصابعنا أو عن شفاهنا يستغرق وقتاً. . . ولذلك فقد كنت وما أزال قليل الإقبال على العسل ـ رغم الكثير من فوائده هروباً من مشكلة الخلاص من (دَبَقِه) في الأصابع والشفاه.

والموضوع الآن هو (إشارة الاستفهام الضخمة التي يرسمها القراء عن الخبر الذي اخترته عنواناً لكلمة اليوم... وهي «كيف يمكن أن» «لن يتقاعد الزيدان» ويرى القارئ أني تجاوزت عن ذكر اسمه بالكامل اكتفاء بشهرته الواسعة والمقررة منذ أكثر من خمسين عاماً بل منذ كنا زملاء في المدرسة الراقية، إذ كانت الأحاديث تدور عن (الزيدان) وليس باسمه الكامل (الأستاذ محمد حسين زيدان)... وأظن أن تطير لاسمه هذه الشهرة الساطعة الواسعة التي سافرت، وسوف تظل تسافر في أبهاء الندوات الثقافات وقاعاتها والجامعات ومدرّجاتها، لأنه ذلك الموسوعي نادر المثال ـ ليس فقط بعلمه، واستشرافه الدقيق والموثّق ـ أحياناً، وإنما بهذا التواضع الذي تسمعه يُدلي بما يعلم ـ وهو كثير مستفيض ـ دون شمخةٍ الادّعاء والاستعلاء ـ وإن كانا من حقه الذي لا يماريه فيه نظير.

ومناسبة الخبر الذي أجعله عنواناً لهذه الكلمة أني قرأت له في (٧) أيام إذا لم تخني الذاكرة كلاماً عن عزمه أو اتجاهه إلى التقاعد، وأن إحدى بناته قالت كلمة استسمحها في أن أصفها بأنها (سخيفة) وهي (تأخذ زمانك وزمان غيرك؟؟؟)... لأن زمان والدها العظيم هو الزمان الوحيد الذي يجب أن لا يشاركه فيه غيره... ولتسمح لي أن أسألها (من هم غيره هؤلاء الذين ترى أن لا يأخذ أبوها زمانهم؟؟؟)؟؟؟ كلا... لا أتجاهل وجودهم ومنهم (هي)... التي ربما كانت من حملة مؤهلات الدكتوراه أو نحوها... ولكن أين هم من (الزيدان)؟؟؟ وبعد كم من السنين يمكن أن يقتعدوا مكانته بين (قادة الفكر) في هذا البلد؟؟)... والفكر عند الزيدان، ليس هذا الذي يُنشر له أو سمع منه، وإنما هو الذي يعيش في وجدانه، ومنطقه، وعقله، وأدركَ ـ كما أدركَ سواه من أمثاله ـ أن مسيرة الحياة الفكرية عندنا لا تزال غير مهيأة،

للإبراق والإرعاد بما لا يتسع له المناخ والأجواء والآفاق.

ولنعد إلى (لَنْ) هذه التي يتساءل معها الكثيرون (كيف) لن يتقاعد الزيدان وخَلْق الله ـ عندنا على الأخص ـ يتقاعدون عن العمل... وعن كثير من الأنشطة ويلتزمون منازلهم، مع الصمت، والضياع.

واسأل هؤلاء جميعاً كيف لم يتقاعد أكابر علماء التراث، الذي لا نزال نستجدي الكثير من علمهم، ونعتمد على الأكثر من عطائهم، وقد ظهر قبل مئات السنين؟؟؟ وما زال يشع إشعاعه ويتفاعل، ليس فقط مع قضايا الأدب والنقد، وفنون البلاغة والبيان، والمذخور العظيم المذهل من علوم القرآن والسنة، وهذا المذخور بالذات ـ وقبل غيره ـ هو الذي نلتمس فيه سبيلنا إلى الحق والهدى عندما تدلهم حولنا الظلمات من طوارئ الآراء المنحرفة التي نجد من واجبنا أن ندحضها فكراً لفكر، ورأياً حُراً لرأي تلبسّ الحرية مَظْهراً ما أسرع ما يتساقط وتذروه الرياح.

بل أسألهم، كيف لم يتقاعد الرافعي، وطه حسين، وتوفيق الحكيم والمازني وشوقي وسامي باشا البارودي... بل كيف لم يتقاعد صاحب يتيمة الدهر هذا الثعالبي الذي أعطانا من فقه اللغة، ما كان الكثير من مواده مرجعاً للقواميس التي جاءت بعده... بل كيف لم يتقاعد المعري في رسائل غفرانه، والتوحيدي في إمتاعه ومؤانسته؟؟

كلا... يا صديقي... يا زيدان... أطرد فكرة التقاعد هذه التي طلعتَ بها علينا ربما في لحظة سخط، منعك أدبُك وكرم خلقك، أن تعبّر عنها وأن تقف عند سببها. ولتقل للذين يسخطونك أن عليهم أن يخففوا من غرورهم... وأن يدركوا أن حياة الفكر عندك وعندهم، أسمى من أن تنحط إلى مستوى الحواري والأزقة والمنعطفات.

الموقف المفقود. . . في مواجهة تحديات العدو

وإذا قلنا (العدو)، فلا نعني إلا إسرائيل. . . وفي كيانها وتكوينها جميع يهود العالم، وليس فقط في الولايات المتحدة بذلك الأخطبوط الرهيب الذي أصبح الحاكم بأمره في موقف أميركا من قضية الشعب الفلسطيني، وإنما أيضاً في الاتحاد السوفيتي الذي يؤكد السماحُ بهجرة اليهود بين سكانه حرصَه على الخلاص منهم، إن لم يكن بالإفناء أحياء، فبالسماح لهم بالخروج من (روسيا). . إلى هذا البلد الذي تذرع العالم بما وقع عليهم من جبروت النازية لتقديمه إليهم، مَهْجراً في البداية، بوعد بلفور اللعين، ثم دولةً أعترف بها ترومان ثم الاتحاد السوفيتي، ثم بقية القطيع من دول الأمم المتحدة، التي فرض عليها الدوران في أحد الفلكين، الأعظمين أن تسمع وتطيع، فتعترف راغمةً بوجود هؤلاء المهاجرين المغتصبين (دولةً) استلهمت تاريخَها الملفَّق المهترىء فَسمَّتْ نفسها (إسرائيل).

وعلى تعدد، وتنوع، وكثرة ما طرح من حلول، لاسترداد الأراضي التي خرجت من أيدينا أو أجتُثت من كياننا في نكبة عام ١٩٦٧، وطوال اثنين وعشرين عاماً فإن العدو لم يتزحزح قيد شعرة عن إصراره بعدم التنازل أو الانسحاب من هذه الأراضي، إضافة إلى ما يمارسه بسكانها من القمع والإرهاب فيه القتل بلا تردد، وفيه الاعتقال بلا محاكمة، بل وبلا

سبب. وبالمئات والألوف رجالاً ونساء، صبايا وكهلاوات، بل وأطفالاً ينتزعون من أيدي أمهاتهم انتزاعاً فيه صورة كما تنطوي عليه نفس الجندي من حقد لا يشفيه إلا الانتقام.

وجاءت الانتفاضة، التي أصبحت اليوم في سنتها الثالثة... ولقد فرحنا بها... أغدقنا على أبطالها ما جرت العادة أن نغدقه على كل مقاوم للاضطهاد والقمع والظلم من عبارات «إنشائية» محفوظة تُردِّد الإعجاب والتقدير والفخر والتمجيد، باستثناء المملكة العربية السعودية التي عرفت حقيقة الدعم ومعناه، جهاداً بالمال تقدمه الدولة ويتزاحم الشعب على المساهمة فيه دون تردد وبلا حدود. ولا يساورنا شك في أن الجهاد بالنفوس والأرواح، محسوب وراسخ في تقدير أبناء هذا البلد، الذي نعلم كم قدم من شهداء، في حرب الشعب الأفغاني، مع الاتحاد السوفيتي، أولا، ثم بعد خروجه، مع حكومة نجيب الله، الذي كان ـ ولا يزال ـ غرسة من موسكو... ومعه المئات ممن عاشوا طفولتهم وصباهم في الاتحاد السوفيتي، فيكاد يكون من العسير، أن لا يدافعوا عمّا رضعوه من لبان الليبرالية الشيوعية فيرضخوا لحكم إسلامي، فيه روح القبلية التقليدي، وربما كان مظهره الملموس ـ للأسف تعدد الأحزاب، وتنافر الآراء، واختلاف (المذاهب) رغم أن العدو واحد، والهدف واحد.

تلك قضية أخرى... استدعاها التذكير بالتضحيات، والجهاد الذي لا تتردد فيه المملكة، وأبناء شعبها... وما كانت لتتردد بالجهاد بالأنفس والأرواح في فلسطين أيضاً لو تقاربت أو تشابهت الظروف، وأهمها وجود الدولة المجاورة مثل باكستان التي فتحت أبوابها للاجئين من الشعب الأفغاني من جهة، ولقوات المجاهدين ينطلقون منها إلى ساحات القتال من جهة أخرى.

القضية التي نواجهها اليوم، والانتفاضة في عامها الثالث، وعمليات القمع والإرهاب، بل والقتل المتواصل، والاعتقال الذي لم يتوقف قط، وامتلأت المعتقلات بالألوف من الفلسطينيين، أبطال انتفاضة الحجارة... القضية هي (الموقف) الذي أسميه (مفقوداً) من جانبنا، نحن العرب والمسلمين!!! وللقارئ أن يضع أصبعه في صدغه محاولاً أن يجد هذا المفقود؟؟؟ ويطول وضعه على هذا النحو... ثم لا يجد شيئاً غير مواجهة الشاشة الصغيرة كل مساء، في جميع تلفزيونات العالم العربي، ليرى بعينيه، ويسمع بأذنيه هذه المشاهد التي تتكرر، يوماً بعد يوم، ومنذ سنتين ونحن في الثالثة، دون أن تفعل الدول العربية المعنية، المجاورة منها، وغير المجاورة، شيئاً ذا بال، أو ذا أثرٍ مؤثرٍ في مواجهة هذا الواقع الأسود، الذي يمزق النفوس... ولكنه التمزيق السلبي الساذج، ثم لا أكثر من ذلك ولا أقل.

وفي مواجهة هذا الواقع، يقول منطق الأشياء، بل قد تقول جماهير الشعب الأمريكي نفسه وأجهزة تلفزيوناتها هي التي تسجل وتبعث بهذه المشاهد إلى أنحاء العالم، ومنه العالم العربي: ترى ما الذي يفعله العرب؟؟؟ ما الذي تفعله منظمة التحرير؟؟؟ وما الذي تفعله الدول المتاخمة لهذا الكيان بكل تعسفه وجبروته واستهتاره؟؟؟ والمعلوم المفروغ منه بالنسبة للعالم كله... إن اليهود في فلسطين كلها أقل من ثلاثة ملايين، وأن العرب حولهم أكثر من مئة وعشرين مليوناً... فبأي منطق تعجز هذه المئات من الملايين عن أن يكون لها موقف جدي وحاسم من هذه الملايين الثلاثة التي تمارس كل ما تنقله عدسات التلفزيون.

العالم كله يتساءل عن هذا الموقف... والعالم كله يشعر أنه

(مفقود)... ولا يجهل أبداً أنها (الولايات المتحدة الأمريكية) حليفة هذه الملايين الثلاثة المغتصبة... بل يعلم الله حاملات الطائرات، رابضة في مواقعها من البحر الأبيض المتوسط، وإن مشاة البحرية الأمريكية على هذه الحاملات، مستعدون لحماية (الحليف الاستراتيجي العتيد).

ولكن العالم العربي... الدول العربية... الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج أليس في وسعه أن يقف من أميركا نفسها موقفاً يشعرها بأن الكيل قد طفح، وأن للمصالح المشتركة حقَّها، وحق التعامل معها، في حدودها المقررة... ولكن قضية فلسطين... قضية الشرق الأوسط... هي أيضاً من المصالح المشتركة... وإذا كانت إسرائيل حليفاً استراتيجياً فليس العالم العربي عدواً... وليس منحازاً... وفي نفس الوقت ليس عاجزاً عن أن تكون له قوة، لها مساربُها ومداخلها عبر العالم إلى حق هذا الشعب الذي يجب أن يأخذ حقوقه المشروعة في أرضه... ولا شيء سوى أرضه.

الأستاذ عبد الغني قستي

في ساحتنا الثقافية أو الفكرية منذ بدأت تبدو لها الملامح والسمات التي يمكن أن تميّزها بحيث يصح أن تكون شخصيتها الخاصة، شخصياتٌ بلغ من أُلْفتِنا لوجودها حيث اختارت، أو حيث أريد لها أن تختار أننا فقدنا، الإحساس بنبضها ـ ولا أقول وجودها ـ ومرجع هذا الواقع أو منشؤه هو نوع لئيم وسخيف من تبلُّدِ إحساسنا، الذي يؤخذ علينا، ولا بد أن نتقبل الحساب عليه ـ إذ فرض وجود حساب من أي نوع ـ وفي الطليعة الشامخة من هذه الشخصيات، صديقي الحبيب الأستاذ عبد الغني قستي الذي استقال من عمله أخيراً كما علمت منذ أيام. والمثير للدهشة في شخصية الأستاذ عبد الغني قستي، أنه لم يكن الكاتب المغمور، أو الشاعر المجهول أو مدير التحرير الكسول... بل كان من كتاب الطليعة، تفكيراً، قبل جمال الأسلوب، ولكنها الحركة الهادئة، البعيدة عن التوتّر والتوتير. ولم يكن شأنه في ذلك التَّحسُّب لِلَّوم أو العتاب أو المؤاخذة، وإنما هي شأن نفسه الصافية النقية، التي ترى الخطأ مثلاً... وتطالب بإزالته أو الخلاص منه، ولكن بفلسفته الخاصة... وهي على ما فهمت من مخالطتي إياه: (ما دام المطلوب هو الإصلاح أو التصحيح، فما الذي نستفيده من الضجة والإثارة)... والمسألة عنده: ما إن يتم الغرض فالحمد لله... وأما أن يهمل ويطول السكوت عنه... فتلك مسؤولية في

عنق ذوي الشأن والأيام كفيلة بأن تضعهم أمام النتائج التي يدركون عندها خطأَهم.

وكان ما أخذته عليه منذ عهد طويل، هو تذرعه بالصبر، وانطواؤه على ما يؤذيه أحياناً، مع أن الصحف التي ظهرت، لا ترحب به مديراً للتحرير أو حتى رئيساً فقط، وكان يمكن أن يهجر مكتبه... إلى مكاتب أكثر أبهة وفخامةً وجدْوى، ولكن هنا له فلسفته النابعة من أصالة عنصره... وأعني الوفاء لمن يعمل، وعمل معهم سنين وراءها سنين... كيف يجدهم في المكاتب الأكثر فخامةً وأبهةً وجدْوى... فإذا قيل له ـ وما أكثر ما قيل ـ إن صبرك ضرب في حديد بارد، ـ كان يقول ولكني لا أضرب في هذا الحديد، وإنما أمحو عنه الصدأ والغبار، مؤمناً أنه سيعود قطعة من الصلب غير قابلة للصدأ...

وكان الأستاذ عبد الغني قستي شاعراً رقيقاً... أظنه أصدر ديواناً أو دواوين... ومن حق شعره أن يصدر وأن تتداوله أيدي القراء، ليس من أقرانه فقط، وإنما من تلاميذه الكثيرين فإذا لم يصدر شيئاً حتى اليوم ـ وهذا أرجح الظن عندي ـ فلأنه يأبى على نفسه أو كرامته أن يعرض نفسه على دور النشر. وما أكثرها في هذه الأيام، وما أشد حرصها على أن تنشر الأشد رواجاً وهو كتب الرياضة ودواوين الشعر الشعبي... ولا يلامون، فذلك واقع الجماهير هذه الأيام.

والأستاذ عبد الغني قستي يكره ويستنكف، بل ويرفض أن يدور الحديث عن الدخل الذي خرج به من عمله... وقد لا يحز في نفسه كلام كما يحز في نفسه أن يقال شيء عن ضآلة هذا الدخل، بينما الكثيرون من (تلاميذه) يعدون من الأثرياء الكبار. ولكن الحقيقة يجب أن

تقال... وليس لتلاميذه، أو من عمل معهم، وإنما ـ وبصراحة ـ للدولة مُمثلةً في وزارة الإعلام التي أعلم أن وزيرها معالي الأستاذ علي حسن الشاعر، لا تفوته أوضاع هؤلاء الذين انحنت ظهورهم على الورق في الصحف، وفي غير الصحف... وكانوا دائماً في خدمة مصالح الدولة، يكاد لا يوجد فرق كبير بينهم وبين قواتها المسلّحة... وما أكثر ما قيل والوزير أول من يعرف أن الإعلام... هو سلاح الدولة في الحرب وفي السلم على السواء.

كتب حكم لها الزمن

والزمن حين يحكم لكتاب فإنه بطبيعة الحال يحكم لمؤلّفه أو كاتبه، ولكن الظاهرة الشائعة، والتي ندر أن استوقفتْنا، هي أننا نتذكر وقد لا ننسى أبداً اسم الكتاب ولكن لو سئلنا عن اسم المؤلف، فإننا قد لا نتذّكره... أو نتذكّره بعد لحظات تردد وتفكير. والواقع أني لا أعرف لذلك سبباً معقولاً، مع أن المؤلف هو الذي عكفنا على دراسة كتابه أياماً وليالي، وقد نسجل له في كناشاتِنا تعبيراً استحق أن لا ينسى...

من هذه الكتب التي حكم لها الزمن، وقضى بحكمه الحاسم أن يظل الكتاب في مكانه الملحوظ بين الكتب في موضوعه، كتاب: (جمهرة رسائل العرب) وهو كتاب قيم يقع في أربعة مجلّدات، وفي كل مجلد ما يقرب من خمسمئة صفحة من القطع المتوسّط.

وكان مما اتفق لي أني كنت تلميذاً في القاهرة قبيل الحرب العالمية الثانية، ولم أكن أجد ما يعوّضني عن النزهة في مرابعها وملاهيها في شارع عماد الدين عندما تفرغ محفظتي من النقود ـ إلا ما يضمن سداد أجرة الغرفة ووجبتي الغداء والعشاء وفناجين القهوة التركي الثلاثة عندما استيقظ في الصباح، وبعد وجبة الغداء والأخيرة عند بدء السهرة مع الكتب... وما أكثر ما كان الجيب يفرغ... إلا من هذا القليل المحسوب

بالمليم... كان ما يعوّضني عن النزهة هو الوقوف على بائعي الكتب القديمة في سور حديقة الأزبكية، أو الدخول في شارع الفجّالة حيث أجد المكاتب عامرةً بالجديد والقديم مما تقذف به المطابع.

وقد لفت نظري هذا الكتاب الضخم، ومجلّداً تجليداً إفرنجياً ـ كما كان يسمى ـ والذي شدّني إليه أنه (جمهرة رسائل) وليس بحثاً متخصصاً... وما دام رسائل، فلا بد أنه صالح لاستيعاب أساليب أولئك الذين كتبوها من فحول الرجال، والفحول في القديم، أمراء، وخلفاء، وقضاة وحكام... وزاد من تعلقي به أن المؤلّف ذكر في صفحة الغلاف أنه (جمهرة رسائل العرب في العصور الزاهرة) ـ والجزء الأول من هذه الرسائل: (في العصر الجاهلي... وعصر صدر الإسلام) وينتهي الجزء الرابع ـ وأعني المجلد الرابع ـ بالعصر العباسي الأول.

فأنا مع هذا الكتاب، أمام كنز من كنوز العربية لا يصح أن يفلت من يدي... وسألت عن الثمن فكان بأسعار تلك الأيام (باهظاً) وهو (١٢٠) قرشاً مصرياً. وهذا المبلغ يساوي جنيهاً ذهباً لأن الجنيه المصري كان أغلى من الجنيه الذهب... ورأى البائع دهشتي من جهة... وما لَمَح من إفلاسي من جهة أخرى... فقال: ـ (اعطني عشرين قرشاً اليوم) وأدفع الباقي أقساطاً في كل شهر عشرين قرشاً... وكان كرماً ما بعده كرم... قلت له: ـ (ولكنك لا تعرفني..) فقال: (من يفكر من شراء كتاب بهذا الثمن... لا بد أن يكون قادراً على السداد...) ولف الكتاب وحين تأبطتُه وانطلقت إلى مكتبي الصغير في الغرفة التي أسكنها، عكفت على قراءة رسالة هنا... وثانية هناك، وثالثة في المجلد الرابع... وازددت يقيناً أني ملكت كنزاً...

ولا يزال الكتاب في مكتبتي... ولكن أعجب ما يقع لي هو أني أنسى اسم مؤلفه الفاضل... بل العظيم الذي فرغ لجمع وتحقيق وتدقيق وشرح كل هذه الرسائل. ولا أدري كيف احتجت اليوم إلى مراجعة رسالة لعبد الله ابن المقفّع، سمّوها (اليتيمة) لأنها كما قال من نوّه عنها: (لأنها نهاية في المختار من الكلام وحسن التأليف والنظام) فرجّحت أني أجدها في هذه الجمهرة... ووجدتها فعلاً في الجزء الثالث بين رسائل العصر العباسي الأول.

وإذ قرأت الرسالة أو بعضاً منها طويت الكتاب دون أن أعني بقراءة اسم المؤلف... فكانت هذه الملاحظة أو الواقعة التي ربما لا ينجو منها طالب علم... رجعت إلى الكتاب لأجد أن المؤلّف هو الأستاذ (أحمد زكي صفوت ـ أستاذ اللغة العربية بدار العلوم...) والكتاب من مطبوعات شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر).

فهذا كتاب حكم له الزمن... وجار عليه القارئ الذي يتناسى اسم المؤلف. وما أكثر ما يقع لنا ذلك، فنظلم المؤلفين العظماء... ونحن نستفيد بما سهروا عليه أياماً وليالي، بل شهوراً وسنين.

وبالمناسبة، فإن الدكتور زكي مبارك في كتابه (النثر الفني) الذي نال به مؤهل الدكتوراه من جامعة السوربون في فرنسا... يقول: (ليس ابن المقفّع ـ الفارسي الأصل ـ أول كاتب نَثْر... كما يذهب كثير من متتبعي فن النثر في الأدب العربي.

وذلك موضوع آخر... قد تتاح فرصة للعودة إليه.

زمان الغير... ومفهوم التقاعد

فيما قرأته للأستاذ محمد حسين زيدان، في (٧ أيام) عن اعتزامه التقاعد، وبدا لي أن أقول معلّقاً إنه لن يتقاعد، وأخذت على ابنته التي قال هو إنها قالت شيئاً عن زمانه وزمان غيره، وأجد نفسي اليوم مسؤولاً، عن عتبي على ما قال الزيدان إن ابنته قالته: إذ الحقيقة قد أضاءها الحوار بين هذه الابنة ـ ولا أعرف اسمها ـ وبين ابنتي (دلال)، ... وهذه الحقيقة من غرائب مفارقات الأستاذ الزيدان، التي تظهر مدى حرصه على أن يتجنّب المساس أو الإساءة إلى أحد، فلا يرى ما يمنع أن ينسب إلى ابنته كلاماً لم تقله، وإن كان غيرها من أبنائنا وبناتنا يمكن أن يقوله، كل يوم وفي كل مناسبة... وربما على مدار العام.

فقد تجنّب الأستاذ الزيدان أن يذكر اسم من لعلّه قد (قاء) هذه الكلمة فيما يدور بينه وبين كثيرين من حوار، فأسند إلى ابنته البريئة أنها قالت هذه الكلمة التي قلت إني أستسخفها تصدر من ابنته. ولي أن أقول اليوم إني لست معه فيما قال أو ستقول ابنته التي قد لا يجهل أحد، أنها (ابنة الزيدان) الذي يعد واحداً من أعظم الآباء علماً بتربية أبنائه بل وأحفاده وإذا لم تنس أنّه كان من رجال التربية والتعليم في أيام شبابه، فإن ما نسبه إليها، يعد في نظري ظلماً، وما أحب للزيدان أن يظلم ابنته، رغبة في تجنّب إغضاب الغير.

ويبقى، أن أقول شيئاً عن مفهوم التقاعد بالنسبة لكاتب أديب كبير كالأستاذ محمد حسين زيدان. . . فلقد قلت إنه لن يتقاعد، وقد سألت الذين يستنكرون (لن) هذه ويتساءلون (كيف؟؟؟). . . كيف لن يتقاعد والألوف من خلق الله يتقاعدون عن العمل، ويلتزمون منازلهم. سألتهم: (كيف لم يتقاعد أكابر علماء التراث، الذين لا نزال نستجدي الكثير من علمهم ونعتمد على الأكثر من عطائهم،وقد ظهر وبقي لنا وبين أيدينا منذ (مئات السنين)؟؟؟ بل سألتهم: (كيف لم يتقاعد الرافعي،وطه حسين، وتوفيق الحكيم، والمازني، وشوقي وسامي باشا البارودي. . . وكلهم اليوم في مثاويهم، ولكنهم لا يزالون معنا، لم يتقاعدوا. . . لم ينسحبوا من ساحة الفكر. . . وليس هناك ما يدل على أنهم سوف يتقاعدون أو أن ينسحبوا من الساحة في المستقبل المنظور.

أما المئات أو الألوف من خلق الله الذين يتقاعدون، فهم أولئك الذين كان قدرهم أن يعملوا موظفين أو عاملين، لا علاقة لهم بالفكر، ولا بالعلم، ولا بالعطاء يبرق به الذهن وتتدفق بمياهه وغيثه مشاعر تدرك من معنى الحياة، ما لم ينكشف بعد من أسرار الحياة.

أن تكون فلسطين أو لا تكون

الموقف الدقيق الذي يواجهه ساسة العالم العربي، في هذه المرحلة الدقيقة من مراحل أزمتنا مع تواطؤ الصهيونية والاستعمار، هو أن تكون فلسطين، أو لا تكون.

وأن تكون فلسطين... أمل تتعلق به الشعوب العربية من الخليج إلى المحيط... وهو أمل ناضلت من أجل تحقيقه طوال أربعين عاماً، أراقت خلال حروبها الكثير من الدماء، وضحت بأرواح الشهداء في الحرب، شهداء في عمليات الإرهاب النازي الذي قام به العدو في كل مرة مارست فيه إسرائيل عدوانها الغاشم الأثيم.

ثم هو أمل لا تتردد هذه الشعوب ـ وليس فقط الشعب الفلسطيني وحده ـ في مواصلة النضال من أجله، والتضحية في سبيله عقوداً أو قروناً من السنين، يدفعها إلى ذلك إيمانها بأن حق الشعب العربي الفلسطيني في فلسطين، حق ثابت صريح، لن يغير من عدالته وقانونيته اعتراف الأمم المتحدة، ولا يغير من جذوره الثابتة أن تعتدي عليه الصهيونية ومن دأبوا على دعم باطلها من قوى البغي والطغيان.

أن تكون فلسطين... هو المطلب الذي تسهر عليه عيون الألوف من المشردين من أبناء فلسطين وعيون ملايين من إخوانهم في كل بلد عربي،

وقد فتحت يوماً على هدير الكارثة، ولم تغمض حتى اليوم. . .

وأن لا تكون فلسطين. . . هو باختصار مطلب العدو الذي يجد في هجرة اليهود السوفيت ـ على أساس مبادئ البيروسترويكا، التي طلع بها جورباتشوف ـ المسوغ الأعظم للتمسك بكل وسيلة تمكنه من الاستمرار في احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة بل ومرتفعات الجولان أيضاً مع تطلعه الملموس إلى الجنوب اللبناني وفيه ركيزته القذرة التي لم تفكر الميليشيات بأنواعها في اقتلاعها وتخليص الجنوب من سلطانها.

والشعوب العربية، لا تطيق ولا تتصور أن لا تكون فلسطين. . . ولا تقبل أن تنتهي فلسطين وتمحى من الوجود لمجرد أن هذا مطلب إسرائيل، ومطلب من يدعمونها، ويقررون أنها قد وجدت لتعيش. . .

إن هذا الشعب الذي استطاع أن يصمد، للجوع، والصقيع، والتشرد، والمرض والتجاهل والإهمال منذ عام ١٩٤٨، والذي تسلح بحجارة الأرض أخيراً وأعلن بسلاحه هذا انتفاضته التي دخلت عامها الثالث والذي سوف يوالي نضاله في قلب الوطن المحتل. . . ينبغي على كل من يؤمن بالله ثم بعروبته وإسلامه أن لا يساوره شك إطلاقاً، في أن هذا الشعب سيظل متمسكاً بحقه في الوجود، وسيظل وراء حقه السليب ووطنه المسروق، وكيانه المعتدى عليه ـ ولا بد أن يصل إلى حقوقه المشروعة مهما طال الصبر وطال النضال.

في أجواء هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين (١) التلمود

هجرة اليهود السوفيت بعشرات الألوف إلى فلسطين، عملية تنطوي في واقعها المتستر بمبدأ البيروسترويكا، على رغبة لا ينفيها الروس الأوروبيون الأقحاح، وإن كانوا لا يظهرونها، وهي تفريغ الأرض الروسية على امتدادها وسعتها من اليهود، وهم في هذا لا يختلفون كثيراً عن الألمان النازيين، إلا في أنهم لم يمارسوا تلك الوسائل التي مارسها هتلر، على اليهود طوال فترة صعوده، إلى اليوم الذي رحل فيه منتحراً، وهو يرى سقوط برلين. وهم ينتهزون فرصة قيام دولة لليهود في فلسطين باسم (إسرائيل) ليتموا عملية التفريغ الماكرة، على حساب الشعب الفلسطيني وأرضه التي احتلت ـ إذا لم نقل ضاعت ـ في حرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧.

وفي أجواء هذه الهجرة، تستعيد ذاكرتي، الكثير من الدراسات التي عُنيت بها بعد نكبة عام ١٩٦٧، عن (اليهود) بشيء من التوسّع زاد من مستوى الدراسات السابقة التي عشت أتابعها منذ قيام دولة البغي والطغيان في عام (١٩٤٨).

من هذه الدراسات، معلومات أقدمها باختصار إلى القارئ الكريم عن (التلمود)، وعن بروتوكولات حكماء صهيون، وعن ادعاء قتل ستة ملايين

من اليهود، في أفران الغاز بأيدي الألمان النازيين الخ. . .

ونبدأ اليوم بمعلومات مختصرة عن (التلمود) لا أشك في أن لدى الأعلام من علمائنا ما يغنيهم عن قراءة ما أقدمه إلى عامة القراء، ولا أقول (عامة المثقفين).

وكلمة (تلمود) تقول الموسوعة الميسّرة، إنها كلمة آرامية مأخوذة من العبرية، ومعناها (تعلّم). ثم تقول إنها مجموعة الشرائع اليهودية التي نقلت (شفوياً). . . والمفارقة هنا أن اليهود لا يعتدُّون أو لا يعتمدون في تشريعاتهم على (التوراة) المكتوبة نصوصاً، وإنما على هذه المجموعة من الشرائع التي نقلت (شفوياً) والتي يتمسك بها اليهود «المحافظون» وتضيف معلومات الموسوعة الميسّرة أن التلمود كتب في (فلسطين) و(بابل) في القرنين الخامس والسادس الميلاديين. وإن (تلمود بابل) هو المعتمد.

ولا نحتاج أن نقول إن قضية فلسطين، هي في نفس الوقت قضية اليهود أو قضية (العالم العربي مع اليهود) وحين نقول (اليهود)، فإننا نعني اليهود (شتاتاً في العالم) أو (مجتمعين) تحت علم إسرائيل في فلسطين. ومن هنا فإن قضيتهم، هي قضية مئات من الجنسيات واللغات، استطاعت (الصهيونية) بتخطيطها الشيطاني الدقيق، أن تجعل من (التلمود) سبيلاً لتكتل جميع اليهود، وأن تعسكرهم جيشاً يعتدي، ويرتكب أبشع جرائم الإرهاب والطغيان، لإقامة ما يسمّى اليوم (إسرائيل). واستطاع التلمود في يد الصهيونية أن ينفث روح العدوان، ليس فقط على الفلسطينيين وإنما على الإنسان في العالم على رحبه. وهذا التلمود كما سبق القول هو مجموعة من الوصايا والتعليمات، إلى جانب الحكم ـ جمع حكمة ـ والأقاصيص والأساطير أيضاً. وقد وضعها كلّها أحبار اليهود وحاخاماتهم منذ مئات السنين. . . وقد قيل إنهم ظلوا يضعونها منذ طردهم الرومان من

فلسطين في عام ٥٨٥ قبل الميلاد.

وأهم في ما في التلمود ـ في يد الصهيونية ـ أنه ينعش ويغذي كل يهودي في العالم بحلم العودة إلى ما يسمى (أرض الميعاد) كما يغذي مشاعرهم بالحنين إلى الهيكل الذي أقامه سليمان، ويأمرهم بالذهاب إلى الجدار الذي بقي منه والبكاء أمامه. والذين لا تسعفهم مشاعرهم ببكاء حقيقي يجب أن يتظاهروا بالبكاء والعويل... والذي يحدث أن يؤثر هذا التباكي على مشاعر النساء العجائز والصبايا والأطفال فيبكي هؤلاء بكاء حقيقياً...

والملاحظة هنا هي تأثير التلمود (كعقيدة) في نفوس اليهود، إلى هذا الحد الذي جعلهم لا ينسون الهيكل... ويقفون للتباكي أمام جداره منذ أكثر من ألفين من السنين.

والسؤال الذي يطرح نفسه على كل عربي هو: (لم لا يكون لعقيدة العربي) هذا الأثر الذي يجعل جميع العرب يتجمَّعون ويلتفُّون ويتوحَّدون فيعملون بوحي هذه العقيدة وبإشعاعها الروحي في مشاعرهم، ليس فقط لصد وهدْم مخطط الصهيونية أن تغرقها بالعطف على اليهود؟؟؟

ترى هل يمكن أن تصور قدرة وصايا التلمود على توحيد كلمة اليهود طوال أكثر من ألفي عام لتجمعهم الصهيونية في النهاية، في أرض الميعاد، وفي قلوبهم حلم (الهيكل) ومعه حلم إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات... ولا يخطر ببالنا قدرة عقيدتنا السمحة على أن تجمعنا تحت كلمة التوحيد.

ما أكثر ما يدور في النفوس من الأسئلة الحائرة، التي يثيرها ما يتم لليهود، في مواجهة ما يقع للعرب والمسلمين.

حقيقة عن يهود الاتحاد السوفيتي

حقيقة نرجّح أن «جورباتشوف»، رافع شعار البيروسترويكا، وفاتح أبواب الهجرة لليهود بعشرات الألوف إلى فلسطين... نرجّح أنه لا يجهلها.

وهي باختصار ـ تستلزمه مساحة هذه الكلمة ـ أن يهود الاتحاد السوفيتي، ليسوا في الواقع، أولئك اليهود الذين كانوا في فلسطين قبل طردهم منها إلى العراق منذ أكثر من ألفي عام... بل إنهم ليسوا من الشعوب السامية، ولا علاقة لهم أصلاً وإطلاقاً بهذه الشعوب.

ففي صيف عام ١٩٤٦، ـ بعد الحرب العالمية الثانية، ـ وعند الشروع في نظر ما سُمي يومها (مشكلة فلسطين)... تلقت الأمانة العامة للأمم المتحدة تقريراً مدعماً بالوثائق التاريخية ويعتمد على مراجع موثقة لا يرقى إليها الشك، ومن علماء مختصين ببحوث الأجناس... وكان عن (الحركة الصهيونية) التي ظهر يومها أنها تستهدف استعمار فلسطين... يقول: «إن هذه الحركة ليست في الواقع إلا حركة الشعوب» البولندية، والليتوانية، والغاليسية، والرومانية التي تسكن شرق أوروبا... وهذه الشعوب تتحدر أصلاً من قبائل تعرف باسم (الخزر)... وهي سلالة شعب وثني، وقد طرد من آسيا فرحل إلى شمال أوروبا، مع الشعوب المغولية التي رحلت

من آسيا الوسطى في القرن الأول قبل ميلاد السيد المسيح.

وبعد سبعة أجيال من هجرته إلى أوروبا، اعتنق حاكم هذا الشعب الوثني (اليهودية) ديناً. وأرغم حاشيته، وبالتالي شعبه على اعتناقها... وبذلك أصبح من تقاليد هذا الشعب أن لا يولَّى عليه إلا من يعتنق الديانة اليهودية.

ويقول التقرير إن هذا الشعب قد دخل في حروب طاحنة مع القبائل المغولية، واضطر بعد سلسلة من الهزائم إلى الرحيل نحو الغرب سعياً وراء النهب والثأر... كما يقول التقرير إن دائرة المعارف (اليهودية) نفسها تقرر هذه الحقيقة.

وكنتيجة لاعتناق اليهودية ديناً أصبحت الحروف العبرية، هي الحروف التي تكتب بها لغة هذا الشعب... ولكنها ليست اللغة العبرية... وإنما هي لغة تسمّى (اليدّية)، ولا صلة بين هذه اللغة، وبين لغة التوراة القديمة... وهي اللغة العبرية على حقيقتها.

واليوم حين يفتح الزعيم الروسي (جورباتشوف) أبواب هجرة اليهود بعشرات الألوف إلى فلسطين، إنما يعمل في الواقع لخلاص الأرض الروسية من بقية (شعب الخزر) الذي يذكر التاريخ الكثير عن ثاراته وعدوانه على الشعب الروسي في تاريخ العلاقة البعيد.

فهل هناك من يذكر جورباتشوف بذلك التقرير الذي تلقته الأمم المتحدة في صيف عام ١٩٤٦؟؟؟.

ورحل إحسان عبد القدوس

لا حاجة بالقراء إلى أن أذكر الظروف التي أقمت فيها في القاهرة، في تلك الفترة التي كانت قد بدأت تهب فيها رياح التغيير السياسي، الذي عجزت فيه أجهزة الحكم، أن تعمّق نظرتها، وأن تتجاوز بإدراكها الأبعاد القصيرة المحدودة المماثلة، إلى الأمداء البعيدة التي كانت تفور وتتفاعل، ولكن في (قمقم) عرف ساسة تلك الأيام كيف يحكمون إغلاقه بغباء أشد كثافة من طَمْي النيل عندما يجف ويكاد يتحجّر.

وبطبيعة الحال، لم تكن لي علاقة من أي نوع بالأحداث، ولكن رغم ذلك كانت هناك علاقة التفاعل مع الكوارث التي كانت تتلاحق على عالمنا العربي، في نضاله مع الاستعمار، ومصر في المقدمة، وموقعها الاستراتيجي من فلسطين التي احتواها وعدُ بلفور من جهة وفتحت بريطانيا باب الهجرة على مصراعيه ليهود العالم، يتسلّلون إليها (سراً) تغمض بريطانيا عينيها عنه، تحت غطاء التحديد الذي تُعلنه رسمياً، ولكنها تسمح به تسلُّلاً، (مسلّحاً) استعداداً لمعركة أو معارك مقررة ومحسوبة، ومعروفة النتائج لدى المتآمرين على الفلسطينيين.

وكنت ـ أيامها ـ «زبوناً» دائماً لمقهى في أول شارع قصر النيل اسمه (اللُّوفُر)... يديره يوناني عجوز، كانت له براعته في إغراء من يقصد

مقهاه مرة واحدة بالعودة إليه مرات ومرات وتتلخص البراعة في تَودده إلى الزبون، وتقديره لنوع مزاجه، الذي ربما يستوعبه من مظهر الزبون، وسنِّه... وأيضاً ـ وهو الأهم ـ من الكتب أو الصحف التي يدخل وهو يتأبطها... فهو زبون مثقّف: ـ طالبٌ... كاتبٌ... محام... متقاعد (على المعاش)... ملاّك متواضع الخ...

وكان مشواري إلى (اللوفر) لا بد أن يمر بشارع كان يسمى أيامها (شارع فؤاد)... وهو الشارع الذي كان يتألق نظافةَ أرصفة... ويزدهر بالرائحات الغاديات على متاجره الضخمة، ومنها (شملا) وشيكوريل، ثم مقهى (الأميركيين) الكبير... وفي زاوية منه مقهى البُن البرازيلي... الذي أجد على جانب منه بائع صحف اليوم ومجلاته... ومع أن الأهرام، وأخبار اليوم التي كانت قد ظهرت بانفجاراتها الرهيبة، لا غنى عنهما، إلاّ أن مجلة (روز اليوسف) كانت (الأولى) التي ألتقطها، وأضعها تحت أبطي قبل غيرها.

وأدخل (اللُّوفُر)... لأجد الإغريقي العجوز، يسرع بي إلى الطاولة ذات الكرسي الواحد بعيدة عن الشارع وضجته إلى بابه الخلفي، حيث الإضاءة الملائمة... والهدوء... وفنجان القهوة مع كوب الماء بالغ النظافة والبريق، إذا لم يحمله إليّ هو بنفسه، فابنته في ميعة الصبا... ولكن هذا يحدث في الأيام التي تكون فيها هي في إجازة (الأحد).

وأعكف على صفحات روز اليوسف، حيث يستوقفني خبر هنا وآخر هناك، ثم كلمات من (نار) ليست كلها بقلم إحسان عبد القدوس... فقد كانت والدته السيدة روز اليوسف لا تعفي نفسها من متابعة الأحداث والتعليق عليها، أو على خصومها من كبار السياسيين، بل ومن كبار

المسؤولين في مناصبهم... وبسلطاتهم القادرة على الكثير من تصرفات أقلها مصادرة العدد ومنع توزيعه، مما يتيح للمجلة (خبطة) انتصار تفسح المجال للتهافت على ما يفلت من المصادرة، فتباع النسخة بأضعاف ثمنها.

وإلى جانب ما تكتبه السيدة روز اليوسف، كان هناك العديد من الكتاب الشبان يتصيدون الأخبار عن تجاوزات الوزارات والمصالح، وهذا مع ذلك الكاريكاتير الذي يكفي وحده أحياناً عن سلسلة من المقالات.

ونحن نعلم إن إحسان هو ابن روز اليوسف (واسمها الحقيقي فاطمة)... التي كتب تاريخها الحافل المثير الدكتور إبراهيم عبده أستاذ الصحافة في الجامعة المصرية رحمه الله... وإنها المرأة (الجميلة) التي اشتغلت بالتمثيل أولاً... وكونّت لنفسها فرقة، خاصة، أخذت تنشر في الصحف عن مسرحياتها وعندما اكتشفت أنها تدفع لنشر إعلانات مسرحياتها مبلغاً كبيراً... قررت أن تصدر هي جريدتها التي تنشر إعلانات مسرحياتها... فإذا بالجريدة تنتشر انتشاراً واسعاً... لتصبح يومية يتهافت عليها الجمهور ليس لما يجده عن مسرحها وإنما لما تنشره من أخبار عن تجاوزات وأخطاء أجهزة الدولة بأسلوب من (نار)... ثم لتصديها لحزب (الوفد) وهو أعظم الأحزاب وأقواها... ومما يحكى أن خصومتها للوفد بلغت حد هجوم الجماهير على الدار التي تصدر الصحيفة ومحاولة اغتيالها.

وقد يكون من المفارقات، في نشأة وحياة إحسان، أن والده كان من هواة التمثيل ودفعته الهواية إلى الاحتراف، فاشترك في تمثيل عدد من الأفلام، ولأنه كان خفيف الروح مرحاً سمّوه (كُنْدُسْ) ويظهر أن روز اليوسف كبرت عليه وشمخت عنه بعد أن أصبح لها ذلك الشأن السياسي،

فانقطعت عنه بالطلاق ولها منه إحسان وأخته التي لا أذكر اسمها. والدكتور إبراهيم عبده استوعب سيرة حياتها إلى أن ماتت ومشى وراء نعشها زوجها «الثاني عشر»، وكان عمره لا يزيد على عمر ابنها، ولكنه كان مثالاً للوفاء لها والحزن على رحيلها... كان يبكي ويعول طوال الطريق إلى مثواها.

ومن هنا فإن إحسان، حين أبقى اسم أمه للمجلة، كان وفيّاً لها من جهة، ولم يكن هناك اسم يمكن أن ينافس (روز اليوسف)... وهي المجلة التي كانت واحدة من عمالقة الإنجاز الصحفي في مصر.

وفي ذلك المقهى ـ اللُّوفُر ـ قرأت مقالات إحسان عن فضيحة الأسلحة الفاسدة التي كانت أهم سبب في هزيمة الجيش المصري أمام شراذم الإرهاب الإسرائيلي، ومع هزيمة مصر كانت هزيمة الدول العربية، أو قبولها الهدنة، التي كانت نكبة العمر والتاريخ... إذ ظهرت دولة إسرائيل على أرض فلسطين، وهاجر الفلسطينيون، عن أرضهم أمام الإرهاب، وعلى وعد من الدول العربية بأن تنتهي الهدنة، ويتحقق للعرب النصر الذي كان من مخذّلاته أو موانعه تلك العبارة المشهورة التي أوقفت تقدم القوات إلى تل أبيب، وهي على مرمى المدفع الرشاش، وهي (ماكو أوامر).

واقتحم إحسان عبد القدوس الميدان السياسي بمقالاته عن الأسلحة الفاسدة، وما ترتب عليها من نتائج معروفة... ليس أقلها ثورة مصر عام ١٩٥٢.... والتاريخ لا بد أن يحسب له إنه الكاتب الذي استطاع أن يزيح الستار عن فضائح ومخازي الحكم بصراحة قيل إن (أمه) روز اليوسف كانت تباركها وتزيد أسلوبها اشتعالاً. وقال التاريخ، أو ينبغي أن يقول إنها كانت وراء تلك المتغيرات الضخمة.

ومع روز اليوسف في يدي، على الطاولة الصغيرة ذات الكرسي الواحد إضافة إلى كتاب أو كتابين أعكف على قراءة فصول منهما كنت أقضي الوقت من الصباح إلى الثانية، حيث أجد ذلك الإغريقي العجوز، قد أعد لي طبق الغداء الذي يندر أن يتغيّر، وهو حبات صغيرة من البطاطس المسلوقة مع قطعتين صغيرتين من (البفتيك)، لا أذكر أني أكلت ألذ منهما حتى اليوم. ثم كوب الشاي المتقن... ويحدث أن أكون ـ مع كل هذه (العنطزة) ـ مفلساً، فأكتفي بإشارة يفهم منها الخواجة أن يقيد على الحساب، الذي يدفع بعد أسبوع أو حتى شهر.

ولكن الغداء الأهم، والذي يظل يملأ المشاعر والذهن، بل والقلب، هو تلك المواد التي قرأتها في روز اليوسف والتي كنت أعايشها في غرفتي ساعات أطيل خلالها تأمل المستقبل البعيد.

ولم تذهب جرأة إحسان وصراحته، دون عقاب، وملاحقة ومحاكمات، ثم السجن... وكانت (روز اليوسف) ـ الأم ـ والمجلة هي التي تتحمّل الطائل من نفقات المرافعات، في المحاكم، وإن كان المحامون الذين تصدوا للدفاع عنه في قضية الأسلحة الفاسدة، متطوّعين، رفضوا أن يتقاضوا أتعاباً من أي نوع... بل دفعوا هم الغرامات التي يحكم بها القضاء.

وكان ظهور الضباط الأحرار، ثم ثورة ١٩٥٢ خليقاً بأن يكافىء إحسان، ليس بمنصب من المناصب التي كانت توزع بلا حساب، وعلى الأخص عندما بدا للجمهور أنه أصبح من أخلص أصدقاء الرئيس عبد الناصر... وإنما بما هو أنسب، وأكثر تلاؤماً مع كاتب تدين له الثورة دون شك، كوسام أو شهادة تقدير إضافة إلى المناصب الصحفية، التي

اختير لها ولكن صراحة إحسان لم تتراجع بعد الثورة، وانتصار عبد الناصر الساحق الماحق. . . فقد كتب إحسان مقاله الشهير (ارجعوا إلى ثكناتكم وربما كان هذا الكلام مما نادى به (الرئيس محمد نجيب) رحمه الله. . . ثم بضع مقالات، تتناثر حولها كلمات تحت عنوان العمود الذي أظنه لا يزال موجوداً وهو (أسرار) والعمود الآخر (حاول أن تفهم). . . يفسح إحسان لكتابها المجال آخذاً على عاتقه ما يستوجب المساءلة وربما العقاب بألوانه وأنواعه التي تفنّن فيها الحكم، إلى حد ربما لم يسبق له مثيل، وأقله (الرفت) و(قطع الرزق).

وذهبت العلاقة الوطيدة بين (الريس) وبين إحسان إلى منعطفات وملفات المخابرات والاستخبارات، وسجن إحسان بأمر الريس نفسه، في السجن الحربي، وفي إحدى أشد زنزاناته إرهاباً مع ممارسات التعذيب المتوحّش، شأنه في ذلك شأن من وصفوا بأنهم (أعداء الثورة والمتآمرين عليها). وكان التعذيب قاسياً متوحّشاً بكل معيار، ولكن إحسان لم يستثمره بعد خروجه من السجن. . . ولم يتخذه ذريعة لهدم الثورة. . . حتى بعد هزيمة الخامس من يونيو عام ١٩٦٧... ربما لأنه لم يكن بورجوازياً، أو إقطاعياً، أو ربيب أسرة من الباشوات. . . ومن هنا كان لا يزال يؤمن أن الثورة قد جنحت وأخطأت، وانحرفت. . . ولكنه يؤمن في نفس الوقت بأنها كانت السبيل إلى أن تخرج مصر من عهود الظلام التي عاشتها طوال قرون. . . ولعلّه حين أسلم آخر أنفاسه، كان مطمئناً إلى أن مستقبل مصر قد بدأ في ذلك اليوم من عام ١٩٥٢، وإن ما تعيشه اليوم في عهد الرئيس محمد حسني مبارك، هو مرحلة من المشوار. الطويل. . . ولكنه هو الطريق إلى سيادة مصر، ونهضة مصر ومستقبل مصر.

وكان إحسان كاتباً، قبل أن يكون ذلك الصحفي الشاعر... فلما فاجأته الثورة التي اقتحم معاركه الأولى من أجلها، بالسجن والتعذيب... لم يكن أمامه إلا أن يكتب... فكتب قصصه القصيرة ورواياته، التي اقتحم بها واقع شريحة من المجتمع، كان عليه أن يظهرها على ما كان يدرك أنه حقيقتها، وأن يواجه هذه الشريحة بانفلاتاتها واستهتارها... ويمكن أن يؤخذ عليه أنه ذهب إلى أبعد مما ينبغي... ولعلّ الإقبال والرواج الذي وجدته هذه المعالجات الخادشة للحياء أحياناً... كان إغراء، إن كان لا يُعذر إحسان على تخاذله عن مقاومته، فإنه يعذر، لمواجهة مطالب العيش في بلد تنوعت فيه سبل الوصول إلى هذه المطالب، وأقلها وربما أبعدها عن الاستهتار ما كتبه إحسان في رواياته... التي لا ينكر في نفس الوقت أنها كانت لا تخلو من العظة والعبرة... ونظرة الأسف والاستنكار.

زرع التقنية في الإنسان السعودي

كانت ندوة الثلاثاء في هذه الجريدة، عن برنامج (التوازن الاقتصادي) خطوة أعتبرها (رائدة)، ليس فقط بما لموضوعها من أهمية بالغة، وإنما أيضاً بأنها فتحت باباً، كان يبدو مغلقاً، حتى على أجهزة الإعلام ومنها خاصة (التلفزيون)... الذي أبيح لنفسي أن أتجه إلى معالي الفريق علي حسن الشاعر، متسائلاً، عن الأسباب، التي يبدو أنها تحول دون إلقاء الأضواء الساطعة والمبهرة، على مواضيع من هذا الوزن، الذي يظهر للمواطن، والمقيم، وحتى عابر السبيل من الصحفيين ومندوبي وكالات الأنباء الغربية، أن المملكة تعيش (صحوة) أو هي (يقظة) يمكن أن تعتبر نادرة النظير في كثير من بلدان العالم الثالث.

ولقد عكفت على قراءة كل ما جاء في هذه الندوة بجملة من البواعث والدوافع التي أعترف أن الكثير من النقاط التي عالجها المتحاورون، بدت لي شخصياً ألغازاً شديدة الغموض والتعقيد... وليس ذلك لأنها في ذاتها غامضة معقدة، وإنما لأني خالي الوفاض من الخلفيات العلمية التي تساعد على فتح المغلق من هذه النقاط.

عنوان الندوة، أو الموضوع نفسه يستنزف الكثير من التفكير ومحاولة الفهم. إذ هو (مشروع التوازن الاقتصادي). ولم أستطع أن أفهم كيف أن

مشروعاً للتوازن الاقتصادي يتطلب عشرين ألف مليون ريال استثمارات مع الأمريكيين والبريطانيين والفرنسيين.

ومن المانشيتات المثيرة للانتباه، وتكريس الذهن لمحاولة الفهم ذلك المانشيت القائل (هدف استراتيجي لنقل «التقنية العالية العالمية إلى المملكة... وهناك ذلك المانشيت القائل أيضاً: (المرحلة الأولى من البرنامج الأمريكي تدخل مرحلة التنفيذ بخمس صناعات متطورة).

ولا تنتقل من حالة الضياع الذهني مع هذه المانشيتات، إلى محاولة الفهم. وفي طليعة المحاولة، وقفة مع إجابة سمو الأمير فهد بن عبد الله على السؤال الذي وجهته الجريدة من البرنامج... (أهدافه... مميّزاته... وخصائصه) وهو سؤال كان يمكن أن يكون أكثر تركيزاً على الرغبة في الفهم... ومع ذلك فإن إجابة سمو الأمير ـ بعد كلمة الشكر ـ زادتني ضياعاً ـ وأبادر لأعزو ذلك إلى تخلّف قدرتي على قراءة ما وراء الجملة من الكلام ـ فقد قال سموّه عن (الهدف): إنه نقل التقنية العالية إلى المملكة العربية السعودية.

وأتساءل بمنطق تخلف قدرتي على الفهم ـ ما هي هذه التقنية العالية التي يعمل البرنامج، على نقلها إلى المملكة العربية السعودية؟؟؟ فالكلمة في حد ذاتها تذهب بالقارئ إلى أبعاد سحيقة من مفاهيم يتعذّر التوقف عند أحدها أو جملة منها لأن (التقنية) نفسها بحر، أو محيط، لا يزال الإنسان يبحر في مجاهيله، وبقدر ما يكتشف ويختزن، بقدر ما يبتكر من عطاء هذه المجاهيل أنواعاً لا حصر لها من الاختراعات التي تقترب به إلى نقطة (إلغاء الزمن) وأعني إحراز قصب السبق عليه في إنجاز أعمال كان يتعذّر عليه أن ينجزها في أسابيع أو شهور أو سنوات. وسموّه يعلم حقيقة

المجاهيل في هذا المحيط، ويعلم أيضاً أن القارئ، يفتقر إلى بصيص معلومة عن نوع هذه التقنية التي وصفها بأنها (عالية).

وكانت كلمة (استثمار هذه التقنية في البلاد) مضموناً آخر ازداد غموضاً بالنسبة لي وهو يقول: (إنه ترجمة لاستغلال المبالغ في مشاريع تقنية متطورة).

إذن، لا بد أن نفهم أن هناك مبالغ سوف تستغل في مشاريع تقنية متطورة... وأن جهة الاختصاص (قصدت إعطاء المشاركة لهذا البرنامج للشريك الأجنبي)، حتى تتسع فرصة نقل التقنية حيث يعتبر «البرنامج» برنامجاً فريداً سواء «مالياً» أو من ناحية «التخطيط» وبالتالي التقليل من الجوانب السلبية الأمر الذي يوفر حجماً كبيراً من الأموال التي تنفق في مشروعات التنمية، ويفتح الفرص «للعمالة» وخاصة «العمالة السعودية التقنية»، لأن البرنامج من أهدافه الرئيسية نقل التقنية إلى (الإنسان) أينما كان، ووضع الإطار والكيان الذي يعمل فيه الإنسان، للاستفادة من هذه التقنية.

وهنا أجد نفسي مضطراً لاستعارة جملة من كلام الدكتور عبد العزيز الدخيل، وهي قوله: (من ناحية عملية: ماذا يعني هذا الكلام؟؟؟) ثم سؤاله عن «العنصر المؤسسي الذي يوطّن هذه التقنية؟

ولعل القارئ يستحسن أن أتوجه بسؤال أكثر وضوحاً، وهو: (ما هي الصناعات أو المصانع، التي سوف يقيمها (برنامج التوازن الاقتصادي) باستثمار يشارك فيه الأمريكيون، والبريطانيون والفرنسيون؟؟؟ ثم ما الذي كان يمنع في هذا الحوار أن يعلم القارئ شيئاً عن الصناعات الخمس المتطورة في البرنامج الأمريكي في المرحلة الأولى التي تدخل مرحلة التنفيذ؟

إن الذين شاركوا في الحوار تناولوا (مشروع أو برنامج التوازن الاقتصادي) بأسئلة، ومعلومات، أكدت اقترابهم من مضمونه، ولكن الصفحتين اللتين امتلأتا بعناصر هذا الحوار ظلّتا مفتوحتين لكثير من الأسئلة، وذلك ما أعتقد أنه يحتاج لكلمة تالية إن شاء الله.

قرارات بصفة المبدع . . . إبداع

وهو إبداع قد لا يجانبني الصواب، إذا قلت إنه الأوّل، والأوحد، بل والأعجب أيضاً، وليس فقط، في عالمنا العربي، وإنما في جميع أقطار الأرض، وأعني أي قطر، نبتت على أرضه أنواع من العشب، الفكري، أهّلته للدخول في دنيا الإبداع.

ولي أن أقول إن مجرّد التفكير، في أن تخصص الوزارات المعنية بقضية الفكر والإبداع لجاناً تخولها حق تقرير (صفة المبدع) يزيح الستار عن حقيقة أن هذه الوزارات المعنية إذا أقدمت على تنفيذ فكرة تخصيص هذه اللجان، تضع في تاريخ الفكر الإنساني منذ كان وحتى اليوم، لافتة تقول إن الأمّة العربية، وهي على مشارف القرن الواحد والعشرين بكل ما يعد به من تطور وتغيّر، بلغت من حالة التشبع السُّلطوي، الحد الذي يخولها حق تقرير (صفة المبدع) ـ رسمياً ـ وعلى أساس من قرار تصدره (لجنة من المتخصصين).

لو عني الوزراء الذين اتفقوا على هذا القرار، بتأمل تاريخ الفكر الإنساني، وحاولوا أن يجدوا سابقة أو شبيهاً لمثل قرارهم، لأدركوا أن حالة التشبع السلطوي التي يعايشونها لم يسبق لها مثيل في أحلك عصور الظلام، إذ لم يحدث قط، في تاريخ هذا الفكر، إن جاءت أو تقررت

(صفة المبدع) بقرار من السلطة، ـ والوزراء الذين انزلقوا في بؤرة هذا القرار ـ يمثلون بمراكزهم الرسمية السلطة، وكل ما يقررونه يعتبر قراراً سلطوياً بكل معيار.

ولقد كان التحقيق الذي قامت به جريدة عكاظ الغراء بعنوان التشريع النموذجي لرعاية المبدعين، «إبداعاً صحفياً»، وكانت مجموعة الآراء والأفكار التي أفضى بها من وجهت الجريدة أسئلتها إليهم، جانحة إلى (مجاملة) قرار وزراء الثقافة، وتأكيد النوايا الحسنة، والرغبة في مساعدة، أو رعاية المبدعين (الذين تقرر اللجان المختصة صفتهم كمبدعين).

من جانبي، أساير فكرة النوايا الحسنة، والرغبة في رعاية المبدعين، ولكني أتساءل عن المواصفات، أو الشروط، أو الخصائص، التي ترى (اللجان المختصة) أنها يجب أن تتوافر في كاتب أو مؤلّف أو شاعر، لتعطيه (صفة المبدع) وبالتالي تفرض له حق الرعاية والعون. بل أتساءل: ما هي المؤهّلات والمواصفات التي يرى الوزراء أن تتوافر في (عضو أو أعضاء اللجان) التي تقرر (صفة المبدع) المستحق للرعاية والعون.

استوقفني، رأي الدكتور علي البطل الذي قال إن هذا القرار (لا تنقصه النوايا الحسنة) وانتهى إلى التساؤل بقوله: (ثم... من المبدع أو غير المبدع، الذي ستضمه هذه اللجان المختصة؟ التي تصدر شهادات ميلاد للمبدعين بوصفهم مبدعين؟؟؟ ثم: من المبدع أصلاً؟... هل هو كل ممارس للإنشاء الفني أم لنوع محدود، وشكل محدَّد من أشكال الإبداع... وهل تشمل كل من يمارس، أم من يتميّز في ممارسته. وهل تشمل المنشئين أم يمتد نطاق حمايتها ليشمل النقاد بوصفهم مبدعين أيضاً؟؟؟).

وبعد... فلا بد أن نفهم وأن نعي أن صفة المبدع لا تقررها لجان... وفي العالم العربي، منذ مطلع القرن العشرين أجيال من قادة الفكر، لم تقرِّر لهم صفة (المبدع) لجان متخصصة (رسمية)... وإنما الذي قررها لهم، جماهير القراء... بالإقبال على العمل الفني بمختلف صوره وأشكاله ومناحيه.

ولا يحتاج المبدع الذي تقبل على قراءته الجماهير، إلى المكافآت أو المساعدات، إذ إن الإقبال على أعماله، والتسابق على شرائها، واقتنائها، هو المكافأة الحقيقية التي يعتز بها المبدع، والتي تضعه في المكانة التي استحقها الإبداع.

ولا نحتاج إلى ذكر أسماء معيّنة من الشعراء والكتاب، فهم معروفون، وهم النماذج التي عايشت بفكرها وأحلامها، أجواء الحرية... وبعيداً عن أعين الوزراء.

عروبة مضيق باب المندب

في نشرات الأخبار خلال الأسابيع القليلة الماضية، أن ثوار الشعب الأريتيري، قد استولوا على ميناء (مصوع). وهو الميناء الرئيسي لأريتيريا على البحر الأحمر ويمكن اعتباره المنفذ الوحيد لأثيوبيا على هذا البحر، فإذا استولى عليه الثوار الأريتيريون فإن ذلك لا يعني أقل من عزل أثيوبيا عن البحر، ونوعاً من (الخنق) الذي يحرمها من القدرة على الحركة خارج أراضيها، وتعطيل اتصالاتها التجارية مع العالم عبر البحر الأحمر.

وبعض القراء في المملكة يذكرون عاصمة أريتيريا، وهي مدينة (أسمرة) التي ظلت عهداً طويلاً منتجع اصطياف يهرع إليها الكثيرون من جدة ومكة. . . والطريق إلى هذه المدينة يبدأ من (مصوع)، حيث يرتفق المتجه إليها قطاراً يتسلق الطريق الجبلي عبر أنفاق متعددة. ولعل إيطاليا هي التي أنشأت هذا الطريق خلال فترة استعمارها لأريتيريا قبل الحرب العالمية الثانية.

وكان مما يسترعي الانتباه، في موقف أجهزة الإعلام العربي، ومنها الصحافة من خبر استيلاء الثوار الأريتيريين على (مصوع) أنه كان أقرب إلى السلبية، أو عدم الاهتمام بما فيه الكفاية، رغم أهمية الميناء بالنسبة لأثيوبيا، التي اعتبرت سقوطه في أيدي الثوار ضربة بالغة الخطورة،

فاتجهت إلى محاولة استرداده، أو انتزاعه، بقوات كثيفة من الجيش الأثيوبي، وبطائرات القوات الجوية، التي تواصل قصف الميناء ومرابض الثوار فيه دون توقف. ويصعب التهكن بما سوف يسفر عنه الصراع، ولكن، يمكن القول إن أثيوبيا لن تتوقف عن محاولة استعادة سيطرتها على مصوع، لأنها الباب الوحيد ـ تقريباً ـ الذي تتصل عبره بالعالم. وهي عند تعاظم الخطر ستعتمد على دعم الاتحاد السوفيتي الذي لن تحول مبادئ جورباتشوف دون تقديمه لأن تسليح أثيوبيا وتدريب قواتها يعتمد على السوفيت، ومن المستبعد جداً أن تتردد قيادات الجيش في دعم ومساندة حليف قديم في سوق استراتيجي خطير.

وليس في الأخبار ما يشير إلى أن الثوار يجدون الكفاية من حاجتهم إلى دعم نضالهم، بل ليس هناك ما يشير إلى أن أي دولة من الدول العربية قد تحركت ـ سراً أو علناً ـ لدعم الثوار في انتصارهم على أثيوبيا، باستيلائهم على الميناء. وليس هناك ما يبرر هذا الموقف السلبي الغريب، إلا التزام مبدأ عام التدخل في الشؤون الداخلية لأي دولة عضو في الأمم المتحدة إلى جانب التزام مبدأ عدم تشجيع حركات الانفصال القومي أو الإقليمي أو الطائفي، ولا أعرف في الواقع كيف تقررت هذه المبادئ، ولكني لا أجد لها نصوصاً في ميثاق الأمم المتحدة ولعلها من أحكام (القانون الدولي).

والواقع الذي ينبغي أن تضاء الساحة التي تحيط به، وأن يعيه الرأي العام العربي والدولي، أن (أريتيريا) ليست، ولاية من ولايات أو أقاليم أثيوبيا. وإن ضمها إلى ما كان يسمى (التاج الأثيوبي) كان انتهاكاً لحق الشعب الأريتيري، في تقرير مصيره والاستقلال والسيادة على أرضه، وهي

(أريتيريا) التي تقول المصادر المتاحة، إنها منطقة أفريقية تطل على (البحر الأحمر)، ويمتد ساحلها عليه لمسافة ٦٧٠ ميلاً، تجاور السودان من الشمال وأثيوبيا من الغرب، والصومال من الجنوب. مما يظهر أنها منطقة منفصلة بطبيعة موقعها، عن أثيوبيا.

ولا يتسع مجال هذه الكلمة للدخول في تفاصيل ضمها إلى أثيوبيا، ولكن لا بد أن نشير إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية، قد شاركت، أو لعلّها قد تزعمت الدعوة إلى هذا الضم التعسفي لقاء أن تمنحها أثيوبيا قواعد بحرية وبرية وجوية في أريتيريا. وبعد الانقلاب على الأمبراطور هيلا سيلاسي وانحياز قادة هذا الانقلاب إلى الاتحاد السوفيتي، بحيث أصبحت أثيوبيا دولة تدور في فلك هذا الاتحاد، وتعتمد في تسليحها، من جهة وإمداداتها العسكرية من جهة أخرى على روسيا، لم يتغير الوضع بالنسبة لأريتيريا، بل اشتد الضغط عليها في مواجهة الثوار الذين لا يزالون يواصلون محاولتهم لتخليص أرضهم وشعبهم من استعمار أثيوبيا. وكان الاستيلاء على (ميناء مصوّع)، انتصاراً استراتيجياً خطيراً، لم تستقبله أجهزة الإعلام العربي بما يستحقه من اهتمام، وحتى اليوم لا نجد في الصحف أو في نشرات الأخبار العربية، ما يدل على المتابعة فضلاً عن الدعم، وهو ما ينتظره الأريتيريون، الذين يعتبرون أنفسهم جزءاً من الأمة العربية بلغتهم، ثم بعقيدتهم الإسلامية، التي تقاومها أثيوبيا حتى في الحبشة نفسها.

وقد يحسن الآن أن ننصح القارئ بإلقاء نظرة على الدول العربية المطلة على البحر الأحمر من الجانب الإفريقي، لندرك العلاقة الاستراتيجية الخطيرة بين خلاص أريتيريا من سلطان أثيوبيا، وعروبة مضيق باب

المندب، الذي ينتظر التفاتة عربية واعية، قد تغيّر الكثير من مواقف الدول العظمى نحو قضايا العالم العربي.

وإلى أن تتاح للقارئ إحاطة بموقع أريتيريا على البحر الأحمر وأهمية ميناء مصوّع الذي يدور حوله أخطر صراع بين الشعب الأريتيري، وأثيوبيا، والقوى الربضة خلفها، أرجو من جانبي أن أوافيه في كلمة تالية، بإضاءة أكثر اتساعاً وشمولاً، عن مضيق باب المندب، والدول العربية على ضفتيه ومسؤوليتها عن التخطيط لمستقبلها معه على ضوء المتغيرات التي سوف يشهدها العالم في القرن الواحد والعشرين، الذي أخذنا نعايشه منذ بداية العقد الأخير من هذا القرن.

في أجواء هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين

من مكرور القول أن وجود إسرائيل في قلب الوطن العربي مدين لما ظلت تلقاه الصهيونية من دعم هذه الدول أو تلك التي لم تتردد في أن تتنكر لجميع مبادئ العدل، وأن تتحلل من التزامها نحو جميع الأعراف والقوانين، في سبيل تكوين وطن قومي للصهيونية في فلسطين العربية، وليس مما يجدينا شيئاً اليوم، أن نستعيد إلى الأذهان المراحل التي اجتازتها الصهيونية العالمية، منذ كان الوطن القومي المنشود «فكرة»، «وأملاً»، إلى أن أصبح واقعاً مريراً.

ومع ذلك يظل من مسؤوليات الضمير العالمي، وهو يشهد ويسمع مشكلة هجرة عشرات الألوف من يهود الاتحاد السوفيتي إلى فلسطين، أن يدرس مسلك إسرائيل كدولة منذ أراد لها الباطل أن توجد حتى اليوم ليجد أنها كانت دائماً ولا تزال الدولة الخارجة على القانون دون رادع، والتي تجد رغم كل تمردها على الأعراق والقوانين، دعم الدولتين العظميين بالمال أو السلاح، ثم بالقوى البشرية المدربة القادرة على أن تضيف إلى قوتها المزيد من القدرة على التمرد والعدوان.

واليوم لا يزال من مسؤوليات «الضمير العالمي» أن يواجه موقف وتصميم الاتحاد السوفيتي على هجرة هذه الألوف من اليهود إلى

فلسطين... وأن يتذكر أن إسرائيل عجزت عن أن تسلك مسلك دولة، وسبيلها الوحيد للاستقرار هو الاعتداء والعدوان، والاشتباك مع الدول العربية التي تتاخم حدودها، والتهديد المستمر المتجدد للسلام في الشرق الأوسط. وبهجرة عشرات الألوف اليوم يضيف الاتحاد السوفيتي إلى هذه الدولة الخارجة على القانون عنصراً يدعم ما تمارسه من قمع وإرهاب.

ومما يؤسف له أن الاتحاد السوفيتي وهو الدولة التي فجر رئيسها قضية حقوق الشعوب في الاستقلال والسيادة على أرضها... هو الذي يعمل بفتح باب الهجرة بهذا الحجم على دعم تخطيط إسرائيل لابتلاع الأرض التي تحتلها، وللتطلع إلى تحقيق حلم إسرائيل من النيل إلى الفرات.

ومن المفروغ منه أن من مسؤوليات الإعلام والدبلوماسية في العالم العربي، أن تبدأ مواجهتها مع الاتحاد السوفيتي، بموقف دولي حاسم يضعه أمام مسؤوليته المباشرة عن دعم العدوان، بفتح باب الهجرة لعشرات الألوف من اليهود إلى فلسطين، ويضع ـ في نفس الوقت ـ الضمير العالمي أمام مسؤولياته التي لا ينبغي أن يتجاوزها في هذه الفترة من مسلسل المتغيرات العالمية، وفي ذلك إضاءة جديدة تتيح رؤية حقيقة هذا الكيان الذي لا يزال يصول ويجول ويعيث فساداً في الأرض، على حساب ما يمتص من دماء الأبرياء وما يدوس من المقدسات وما يمارسه من القمع والإرهاب.

في أجواء هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين بروتوكولات حكماء صهيون

ذلك الذي عقدوه في مدينة «بال» في سويسرا، وبرياسة (هيْرتْزِلْ). وربما كان هو أضخم المؤتمرات عددَ شخصياتٍ، إذ بلغ عددهم ثلاثمئة شخصية يمثلون خمسين جمعية (صهيونية) كانت منتشرة في مختلف أنحاء العالم. . . وفي هذا المؤتمر توصلوا إلى وضع ما عرف باسم (بروتوكولات حكماء صهيون). وكان أغرب ما تقرر بين الأعضاء، أن (السرية المطلقة) يجب أن يتمسّك بها كل عضو. . . حتى على اليهود (العبرانيين الذين يختلفون مع أهداف الصهيونية) فلا يجوز إطلاقاً أن يطلع عليها أو يعلم بها أي يهودي، حتى ولو كان من أكابر الشخصيات المرموقة. . .

وظلّت هذه السرية الكثيفة تغلّف نصوص البروتوكولات فترة من الزمن، ولكنها لم تطل، إذ تسرّبت ـ في قصة يطول شرحها ـ إلى يد سيدة فرنسية (ليست يهودية) كانت صديقة لصهيوني من أعضاء المؤتمر، ومن أعضاء الجمعية (الماسونية) في باريس. . . وما كادت تطلع عليها حتى أدركت خطورتها البالغة على سلام العالم. وحين اكتشفت أن غالبية أعضاء المؤتمر يقيمون في روسيا، ويخططون لتخريب النظام الذي كان

سائداً فيها. أسرعت إلى روسيا، وسلمت كامل النسخة التي اختلستها من محفظة صديقها الكبير، إلى أمير من أمراء الأسرة الحاكمة وهو (أليكسي نيكولاي نيفيتش). ولم يقم هذا الأمير بعرضها على الإمبراطور، إذ قدّر أنه لن يهتم بها بما فيه الكفاية. ولذلك سلّمها إلى أحد رجال الفكر والعلم ليطلع عليها ويتصرف من جانبه في النسخة، بالطريقة التي يستحسنها.

وكان ما اكتشف هذا العالم المفكر، في نصوص هذه البروتوكولات رهيباً وخطيراً بكل معيار. ليس بالنسبة للعالم ككل، وإنما على الأقل بالنسبة لنظام الحكم الإمبراطوري في روسيا... فقد كان أقل ما فيها: ـ (سقوط روسيا في أيدي عملاء البروتوكولات)، على أن تحكم بنظام (الراعي والقطيع). ونشر كل مبدأ هدّام لنظامِ الحكم... والعمل في نفس الوقت، على تصدير هذه المبادئ إلى (العالم)، على أيدي عملاء تسيطر عليهم قيادات البروتوكولات. ومنها (القضاء على الخلافة الإسلامية العثمانية) ثم العمل على إسقاط جميع الأنظمة الملكية في ألمانيا والنمسا ورومانيا وأسبانيا وإيطاليا. وأخيراً وهو الأهم: ـ (قيام دولة إسرائيل في فلسطين. وهي الدولة التي تُقرر البروتوكولات، أنها المسؤولة عن العمل لسيادة العالم ـ كل العالم ـ في يومٍ ما ـ تحت تاج ملك من نسل داوود).

أما عن الوسائل التي تقررت في هذه البروتوكولات لتحقيق هذه الأهداف... فإننا نقدمها في كلمة تالية إن شاء الله.

ليس في المعلومات التي أقدمها إلى القارئ عن بروتوكولات حكماء صهيون جديد لم يسبق له أن سمع به أو عرفه. ولكن الجديد عنها هو أنها رغم علاقتها بما يتلاحق من تصرفات إسرائيل، منذ زرعها الاستعمار

دولة في القلب العربي، وكلّها تؤكد خروجها الصارخ على القوانين والأعراف الدولية وغير الدولية... رغم ذلك فإن القيادات العربية، وهي المسؤولة عن توجيه أجهزة الإعلام، لم تُعن بالاستفادة من الحقائق الرهيبة فيها عن التخطيط المدروس لتخريب سلام العالم، والعبث بقيمه وموروثاته الخلقية والدينية... لم تعن هذه القيادات، بالاستفادة منها، لتوعية جماهير الأمة العربية والإسلامية، ومحاولة تحصين أجيال الشباب فيها ضد ما خططت له هذه البروتوكولات، لاستدراج هذه الأجيال إلى بؤر التهتك، والاستهتار، في كثير من بلدان العالم المتقدم أو الثالث معاً، ولا غرض أو هدف إلا التخريب المدروس للسلام، وللقيم، والأخلاق، وصولاً إلى هدف الصهيونية الأعظم وهو (سلطان صهيون) ليس فقط على فلسطين أو الأرض العربية، وإنما على العالم... كل العالم.

وهذا كلام قد يأخذه الكثيرون ممّن لم يستوعبوا التفاصيل عن هذه البروتوكولات، على أنه مبالغات وتهويلات، أو مادة دعائية تستهدف تشويه صورة اليهود، من منطلق العداء الذي ترسّخ عبر القرون، في وعي كثير من شعوب العالم ضدّهم... بينما الحقائق التي تؤكد أن ما خططت له هذه البروتوكولات، من أعمال التخريب ـ على مستوى العالم ـ يتم تنفيذه فعلاً، وليس منذ وُضعت هذه البروتوكولات فقط، وإنما على جميع الأمم والشعوب. وكل ما فعله الحكماء الذين وضعوا البروتوكولات هو: (التقنين) الذي يحصر المتناثر أو المَنسي من الأهداف، حرصاً من الحكماء على أن تظل المسيرة منطلقة في طريقها المرسوم، وصولاً إلى ذلك الهدف الأعظم المنشود.

ويقول تاريخ هذه البروتوكولات إن زعماء الصهيونية ـ وهم الحكماء ـ

وفي مواجهة تزايد حركة موجات الكراهية والنفور التي يبدو أنها تفاقمت في روسيا خاصة وفي أوروبا بوجه عام، إنهم ـ شرعوا يعقدون مؤتمراتهم السريّة في أكثر من بلد أوروبي... وهي مؤتمرات توالت ـ وفي أقصى درجات السرية ـ منذ عام (١٨٩٧). ولكن ربما كان المؤتمر الذي حقق نجاحاً رضي عنده المؤتمرون هو ذلك الذي عقده (الحكماء) في القدس ـ ولأول مرة ـ في الرابع عشر من شهر أغسطس عام (١٩١٥). وكان مؤتمرهم الذي انتهوا فيه إلى وضع بروتوكولاتهم هو وللقارئ أن يتساءل كيف يستطيع الصهاينة ـ حكماء هذه البروتوكولات ـ أن ينفذوا مخططاتهم المدوّنة في هذه البروتوكولات... وهم ـ كما هو معلوم ـ أقليات أينما حلوا من بلدان العالم... هم أقليات في فرنسا، وفي إنجلترا، وفي مجموعة البلاد الاسكندينافية، ثم هم أقلية في روسيا القيصرية، وأقلية حتى اليوم في الاتحاد السوفيتي... وللعلم أيضاً، ونحن نرى دعم الولايات المتحدة الأمريكية لإسرائيل... ولليهود في أميركا... فإنهم أقلية في أميركا... بل أقلية ضئيلة جداً، بالنسبة للطوائف الأخرى في كيان الشعب الأميركي.

ولكن كونهم أقليات في هذه البلدان، أو أينما وجدوا من بقاع العالم، يجب أن لا يصرف نظرنا عن حقيقة أن كونهم أقليات يجعلهم يتكتّلون، ويدعم كل منهم الآخر دعماً هو سبيل بقائهم المتميّز ورغم جو الكراهية والبغضاء الذي يطوّق حياتهم.

يضاف إلى ذلك أن ما يثير الحقد والكراهية في نفوس الناس ضدهم، هو إيمانهم المطلق بالتوراة، التي يجدون فيها أنهم (شعب الله المختار)... وأنهم سادة البشر كافة... بل اعتقادهم أن (كل الأرض) بما عليها من بشر وحيوان ونبات، إنما خلقت ووجدت لهم وحدهم دون

خلق الله. فمن طبيعة الأشياء... أن يتناقض ذلك مع ما لكل شعب من كبرياء ترفض مثل هذه الخزعبلات.

والآن... إلى القارئ بعض ما يقوله البروتوكول الأول: ـ

الفرق بين سياستنا ـ نحن اليهود ـ وبين سياسة (الأمميين) ـ وهم جميع شعوب العالم ـ أن الأمميين هؤلاء يعتمدون في أنظمة الحكم الشائعة والمتبعة على مبدأ الاستشارة، وتبادل الرأي حول القضايا التي تواجه مسيرتهم... أما نحن فقد ثبت لدينا أن خير النتائج التي تتحقق في الحكم، إنما تجيء عن طريق القمع والإرهاب.

في الأطوار الأولى من حياة المجتمعات، كان الحكم الفصل هو (القوة) ثم جاء القانون. وليس القانون في حقيقته إلا قناعاً يخفي وراءه القوة التي يتمتع بها ويمارسها الحاكم إذا عرف كيف يسخّر القانون لأهدافه... وهذا يؤكد وجهة نظرنا في أن الحق يكمن في القوة وحدها.

أمّا ما يسمّى بـ (الحرية السياسية)... فليس فيه من الحقيقة شيء... وإنما هو مجرد فكرة كنا نحن الذين زرعناها في عقول عامة الأمميين، ونحن الذين نروِّج لها... لأنها (الطعم) الذي نصطاد به العامة... ونحن لا نشك في أن سلطان الكثير من الدول القائمة لا بد أن ينهار كلما اتسع انتشار وباء (الحرية) هذا... والنتيجة بعد ذلك هي الفوضى وعدم الاستقرار والمنازعات والاختلافات، التي تتفاقم وتستشري... فتتطاحن شرائح المجتمع... بل تندلع النيران بين هذه الشرائح، وقد تمتد إلى الدول الأخرى... المجاورة أو البعيدة، لأنّ طبيعة هذا الوباء، أن ينتشر، على أوسع نطاق.

وفي ذلك سبيل انتصارنا... وفي نفس الوقت سبيل انهيار هذه الدول وبالتالي زوالها من الوجود.

ويتساوى عندنا أن يتسلل الضعف والخور إلى الدولة داخلياً... أو أن تستهلكها الحروب والمنازعات، التي تساعد على أن ينتصر عليها عدو خارجي... كل ذلك يؤدي إلى تحقيق هدفنا وهو أن تقع الدول في قبضتنا.

ولا بد أن ندرك دون أي تفريط أو تهاون، أن السياسة لا تتفق مع شيء اسمه الأخلاق إطلاقاً ولذلك فلا بد لطالب الحكم من الالتجاء إلى المكر والحيلة والرياء والخداع.

إن الأخلاق، وما يسمونه الفضائل الإنسانية ليست في السياسة إلاّ نقائص... تنخر في معمار الحكم... وهي التي تستطيع في النهاية أن تبلغ منه، ما لا يبلغه ألد الأعداء والخصوم. وحقنا... وبالتالي انتصارنا، يكمن في أن ما يسمّى (الحق) ليس إلا فكرة مجرّدة قائمة على غير أساس.

نحن الذين دعونا الأمميين ونشرنا بينهم شعارات (الحرية والآخاء والمساواة)... وبذلك جعلناهم (ببغاوات) تصرخ، وتردد هذه الشعارات... ثم تلجأ إلى الاعتداء على كل الحريات باسم الحرية والتحرر... وكان ذلك هو سبيلنا للقضاء نهائياً على حقيقة الحرية.

ولقد انتصرنا... وسوف نظل ننتصر... ما دام الأمميون يستقبلون ما ننفثه في عقولهم من السموم والأوهام.

ولكن يجب، أن لا نتهاون إطلاقاً، في أن تظل بروتوكولاتنا هذه طي الخفاء... إلى أن يأتي ذلك اليوم ـ الذي لا بد أن يجيء ـ الذي نقبض

فيه بيد من حديد على مقدرات العالم من أقصاه إلى أقصاه.

وأبادر إلى طمأنة القارئ، بأني لا أنوي أن أستعرض له ما جاء في جميع البروتوكولات، لأن ذلك يطول من جهة، وقد يبعث على الملل من جهة أخرى... ولكن لا بأس ـ فيما أرى ـ أن يأخذ فكرة عن بعض ما جاء في البروتوكول الثاني. الذي نجد فيه: ـ.

في كل حرب تنشب بين الدول، لا بد أن تتمخّض ـ إلى جانب الخسائر في الأرواح والممتلكات ـ عن عجزٍ اقتصادي يشمل الميزانية كلها فيعرّض مركزَ الدولة المالي للاضطراب، وربما إلى ما يشبه الزلزال، الذي يمس مصالح وأقوات معظم أبناء هذه الدول... وهنا تتاح لنا الفرص الذهبية التي تمكننا من أن نصل إلى أهدافنا الخفية... إننا نسرع إلى التلميح باستعدادنا لتقديم مساعداتنا ـ فنحن كما هو شأننا دائماً، نملك ونهيمن على مصادر المال وأسواق الأسهم والمصارف الدولية ـ وقبول هذه المساعدات ـ ولا بد من قبولها إذا لا سبيل غيرها لتغطية العجز وتدارك الحالة المشرفة على الانهيار ـ هو الذي يضع هذه الدول تحت رحمتنا... وأن الدول كلها تحت رقابة الملايين من عيوننا ـ وليسوا بالضرورة يهوداً ـ وهذه العيون تترصّد كل تطور في الأوضاع، نعمل من جانبنا على الاستفادة منه لصالح مخططاتنا... وأبسط النتائج أن تكون المساعدات التي قدمناها هي القانون الذي يحكم مقدرات الدولة كلها.

فمن هنا يتاح لنا أن ننظم حركة الانقلابات على الحكم، ليصل إلى كراسي الحكم رؤساء خانعون، وخاضعون لتوجيهاتنا... فيهم خصال العبيد... نأمرهم فيطيعون... وبذلك يُمسخون ليصبحوا قطع رقعة شطرنج، يديرها ويلعب بها مستشارونا وعلماؤنا، الذين يدرسون في اللعب

بالحكام، على ضوء خططنا السياسية وتجاربنا عبر التاريخ، إلى جانب المتابعة اليقظة للأحداث.

والأمميون ـ عامة الناس ـ أكثر انغماساً في أساليب تضليلنا... وهم الذين نترك لهم الحبل على الغارب، يفرحون ويتمتعون، بوهم تفوقهم وذكائهم... علينا أن ندعهم يعيشون في أحلامهم، بملذات وملاه نبتكرها دون توقف أو انقطاع... أما الذين يسمّون (المثقفين) من حصاد الجامعات ومؤسسات التعليم، فإن سبيلنا إلى أدمغتهم وعقولهم هو (الصحافة) التي لا يهيمن عليها غير علمائنا، ـ من وراء ستار ـ وهذا سوف يجعل الطبقات المثقفة من الأمميين تختال زهواً بعلمها، وستقبل إقبالاً نهما على (المعرفة) التي يقدمها في الحقيقة الغائبة عن أذهان هؤلاء المثقفين، علماؤنا ـ وهم وكلاؤنا وعملاؤنا ـ ... ونحن لا ننسى بطبيعة الحال أننا نحن الذين أعددنا، وعملنا على نجاح (داروِن) و(كارل ماركس) و(نيتشه)، كما لا ننسى الأثر المدمر للأخلاق والقيم ونظم الحكم، الذي كان حصيلة جهود هؤلاء العلماء، في حياة الأمميين وفكرهم واتجاهاتهم الفكرية، التي تبدو أو تتقرر كقيادات فكرية في مسيرة المثقفين ونشاطهم.

وكل ذلك يتطور... ويستفحل وتكون نتائجه في صالحنا نحن بالتأكيد. وأهم ما يثبت ذلك، أن الأمميين لم يعرفوا كيف يستفيدون من قوة وقدرات الصحافة العظمى... وكانت النتيجة أننا خططنا وبذلنا الكفاية من الأموال والجهود لاحتواء وامتلاك هذه القوة... وتم لنا ذلك فالصحافة العالمية أصبحت تحت سلطاننا. وبهذه الوسيلة القوية نشرنا نفوذنا ـ مع حرصنا الدائم على أن نبقى وراء الستار ـ وعن طريق الهيمنة على الصحافة، وهي مجال الإعلان عن السلع والأسواق، استطعنا أن

نكدّس (الذهب)... والذهب عن طريق الصحافة هو الإمبراطورية الخفية التي توجّه مقدرات الشعوب.

ولكن أهم ما يجب أن نحرص عليه، هو السرية المطلقة، تحجب هذه البروتوكولات عن أي مخلوق، حتى لو كان من أكابر اليهود.

أيام الجنادريّة

(١)

أيام الجنادرية التي أصبحنا نشهد فعّالياتها منذ ستة أعوام يمكن أن نقول بثقة لا تخالجها أو تصفر فيها رياح التزلّف والمجاملة، إنها أصبحت الأيام التي لا تنسى، وليس فقط، في المملكة، بل في الساحة الفكرية العربية كلّها، ومن الخليج إلى المحيط... وهي لن تنسى من جهة، ولن يطيب لجماهير المثقفين التي تتجمّع في ساحاتها الرحبة أن تتوقّف أو أن يطرأ ما يحمل على العدول عنها أو نسيانها من جهة أخرى... والسبب الأهم في تقديري الشخصي أنها المتميزّة بالأجواء المفتوحة للكلمة الهادفة، التي يستطيع المفكر أو فلنقل (المثقف) أن يقولها أو أن يسمعها، فيدرك من مضامين القضايا التي تطرح من منابرها، النماذج الحية والمستنيرة للحوار حول هذه القضايا، التي يتاح في ساحات الجنادرية وحدها أن يطرح الرأي ونقيضه، وأن تتلاحق التعليقات بالقبول والترحيب، أو بالرفض وما يعجبه ويتخلله ـ أحياناً ـ من النبرة الغاضبة الهادرة... وفي الحالتين، تسطع وتتألق روح (الجنادرية) التي لم يحدث قط أن سرّبت تنبيهاً أو تحذيراً، يحد من مدى انطلاق الكلمة في حدود نوع من

العقلانية والاعتدال البعيدين عن التطرف ـ وعلى الأخص منه ذلك الذي يبلغ حد (الاستعداء)، الذي خلت منه منابر الجنادرية دائماً والذي أثبتت الجهة المعنية في أجهزة الدولة، أنها لا تلقى بالاً لهذا النوع من تجاوز طبيعة الحوار الفكري الذي يُفسَح له المجال في بعض الصحف لأنها ـ وأعني أجهزة الدولة ـ تدرك أنه حوار الغرض منه الكشف عن الجوهر، وليس بين المتحاورين من لا يدرك هذا الجوهر، هو الذي يلتزم المحاور بمحاولة جادة للوصول إليه.

وفي هذا العام، وهو السادس من أعوام الجنادرية أحالت ظروف عائلية قاهرة دون أن أكون بين من شهدوا اليوم الأول من المهرجان، وهو الذي يتاح فيه لجميع المدعوين أن يشاركوا ويشرّفوا برياسة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبد العزيز نيابة عن خادم الحرمين الشريفين عاهلنا العظيم الملك فهد بن عبد العزيز، ولكني عايشت جماهير المدعوين من أكابر رجال الفكر في المملكة، ورصفائهم من مختلف بلدان العالم العربي، ورأيت في وجوههم كما سمعت في أحاديثهم من عبارات الإعجاب الذي يصل إلى حد الدهشة البالغة، ما جعلني أذكر مهرجانات السنوات الماضية التي كان فيها سمو الأمير عبد الله بن عبد العزيز نموذجاً مثالياً للترحيب برجال الفكر، بل لإفساح المجال لهم ـ وهم في مجلسه الخاص ـ بأن يطرحوا الكثير من القضايا والأفكار، وأن يسمعوا منه الكثير من الدعم بالموافقة على ما يطرح مع التوجيه الهادئ واللبق، البعيد عن التحيّز أو الانحياز لاتجاه معيّن، ممّا يضع ذلك الحشد الكبير من رجال الفكر والسياسة والأكاديميين، أمام بانوراما واسعة ومشرقة لحرية الفكر وحرية طرح القضايا، والجهر بالرأي، والرأي الآخر دون تحرج أو حرج. . . وذلك ما يؤكد أن ساحة الجنادرية، ومنابرها، تحتضن بحميمية

وعفوية وحب، شتات الفكر العربي الذي قد يكون من النادر أن يوجد له نظير.

وقد أخذ عليّ بعض الزملاء ومن علموا أني موجود في غرفتي بالفندق، أني لم أحضر بعض الندوات في قاعة الملك فيصل للمؤتمرات... ولكنهم يلتمسون لي العذر، وعذري أو اعتذاري الأول هو متاعب السن، وتخاذل القدرة على الموالاة... وأنا أعلم أني قد خسرت الكثير، ولكن، مع ذلك كان التعويض في النشرات الخاصة التي تصدرها يومياً لجنة العلاقات العامة والمراسم بالمهرجان، ولي بهذه المناسبة أن أقول إنها نشرات رائعة الإخراج طباعةً ومواضيع وقدرة على الإحاطة والشمول.

ومع هذه النشرات في حقيبتي الآن، ومع تعليقات الصحف، التي كانت تتابع فعاليات المهرجان يوماً بيوم، سيتاح لي أن أتحدث عن (أيام الجنادرية)، وأن أعايش بعض ما يتيح لي الوقت معايشته من الآراء والأفكار التي طرحتها المنابر، وأرجو أن يغفر لي القارئ إذا قلت، إن ما سأبدأ به من هذه المعايشة، هو المسرح، الذي لاحظت أن المهرجان قد منحه مساحة واسعة بدأت بالجلسة الأولى والثانية يوم الجمعة، ثم بجلستين حضرت الثانية منهما يوم السبت ١٤١٠/٨/٦هـ الموافق ٣/٣/ ١٩٩٠م. وكانت بعنوان (نحو مسرح إسلامي) واشترك فيها الدكتور نجيب الكيلاني، وغاب عنها الدكتور سمير سرحان. ومعذرة للذين لم أذكر أسماءهم، فهي في النشرة التي لا تزال مطوية في حقيبتي.

لقد أحسست، أن (المسرح) قد أُعطي من ساحة الفكر في الجنادرية، أكثر مما كنت أتوقع، مما جعلني أتساءل: ترى، هل يقدّر لنا أن نرى

المسرح بمفهومه الدقيق. . . وإذا كان هذا يعني وجود (المسرحية) والنص المسرحي، فإن ذلك يعتبر خطوة تقدميّة في حياتنا الفنيّة طال انتظارها، كما طال (النحت) حولها.

وبهذا الإحساس، أتحفّز للكتابة عن هذا الموضوع، في إطار «أيام الجنادرية». . . فإلى لقاء.

أيام الجنادرية

(٢)

ويحسن بي بداية أن أعترف بأن اهتمامي ومتابعتي لما كان ينشر في الصحف والملاحق، عن مسرحيات تمثل في مسرح الجامعة، أو في فروع الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون... كان هذا الاهتمام أو المتابعة ضئيلاً إلى حد أني كنت أشعر بعدم ضرورة القراءة، فضلاً عن استيعاب ما يقال... وإن كنت أشعر أن رعيلاً من الشباب مولع بالمسرح ويتشوق إلى وجوده ويبذل الكثير من الجهد بل والمعاناة، لوجود هذا المسرح، بأي ثمن.

وتخونني الذاكرة اليوم، فأكاد لا أذكر تفاصيل عرضٍ لمسرحية، قلت لمخرجها أو بطلها أو كاتبها ـ لا أذكر الآن ـ أن المحاولة قائمة، والجهد الذي بذل يؤكد التطلع الذي أرجو أن يثمر، وإن كنت أعجز عن تصور أي عمل مسرحي ليس فيه إلاّ الرجال... وتعاودني في كل مناسبة أقرأ فيها عن تمثيل مسرحية في جامعة أو غيرها، ذكرى الأستاذ أحمد السباعي رحمه الله، فقد كان مؤمناً بدور المسرح في تنوير الجماهير، وبالتالي إيقاظ مشاعرهم، وبالتالي توجيههم نحو تحقيق الكثير من الآمال

والأحلام، التي كان رحمه الله يرى أنها لن تتحقق إلاّ بإضافة العمل المسرحي إلى مصادر ثقافتهم المدرسية أو الأكاديمية أو حتى الحرة... وكان الأستاذ السباعي من أكابر مطوّفي الحجاج المصريين، ولذلك كانت له رحلاته السنوية تقريباً إلى القاهرة، بل وإلى الريف المصري، ولا شك أنه كان من رواد مسرح رمسيس، ومسرح الريحاني، ومسرح الكسّار، وغيرها إلى جانب (الأوبرا)... فكان من طبيعة طموحه المتوافر أن لا يرى ما يمنع أن يوجد في المملكة مسرح، إن لم يكن بمستوى هذه المسارح الكبيرة والعريقة ـ نسبياً ـ فبمستوى يبدأ صغيراً محدوداً، ثم يكبر مع الأيام، وذلك هو خط سير تلك المسارح الكبيرة بداية ونهاية.

وقد بلغ من اقتناع الأستاذ السباعي، بل إيمانه، بضرورة وجود هذا المسرح أن أخذ على عاتقه بناء وتشييد مسرح... وأين؟؟؟ في مكة المكرمة!!! وسمعت من صديق للطرفين أن الأستاذ قد بنى وشيد المسرح في جرول واستقدم له مخرجاً من مصر يدرّب الراغبين من الشباب على تمثيل مسرحية، لم أحاول أن أعرف إن كان هو الذي ألفها أم غيره من زملائه. وكَوْنُ المسرح في مكة بالذات، جعلني أرى النهاية التي لا بد أن يصل إليها هذا المسرح... فلم أتردد في أن أزور الأستاذ شخصياً في مكة، وأن أدير معه الحديث ضاحكاً، ومستبعداً أن يكون قد شيّد مسرحاً. فضحك وقال قم بنا... وكان... ودخلت البناء... المشيّد بالإسمنت والحدِّ المسلّح... ورأيت ما يسمى (الاكسسوار)، ثم المناظر المرسومة على الكانفاه أو الورق المقوّى بأحجام كبيرة مما لا يعني أقل من أن الأستاذ لم يبق عليه إلاّ أن يعلن عن افتتاح المسرح، وأن يستقبل جمهوره... وإذْ كانت الساحة المخصصة للنظارة صغيرة نسبياً... وأبديت ملاحظتي، ليقول ضاحكاً: لا تنسَ أن هناك (الماتينيه)

(والسواريه)... فالذين لا يجدون مقاعد في (الماتينيه) يجدونها في (السواريه).

وعندها... لم أجد ما يمنع أن أنبّه الأستاذ رحمه الله، إلى أن وجود مسرح، وفي مكة المكرمة، مسألة تبدو لي مستحيلة تماماً... وأخشى أن يصدر إليه أمر بإغلاق المسرح وبالانصراف تماماً عن الفكرة من حيث هي وإلى الأبد.

ـ «فال الله ولا فالك»... كانت الكلمة التي سمعتها منه... ولكن الذي حدث فعلاً، أن تلقى رحمه الله أمراً بعد أقل من شهر بأن يقلع تماماً عن شيء اسمه مسرح... وانتهى مسرح السباعي... وحتى اليوم.

ومن هنا يمكن القول، ودون تجنّ على أحد أو هضم لحقوقه، أن الأستاذ أحمد السباعي رحمه الله، سوف يظل (رائد) المسرح في المملكة العربية السعودية... وهو رائد ليس فقط بما قد يكون قد ألّفه هو أو أحد زملائه من مسرحيات أعدت فعلاً للعرض، بل بما أنفق من ماله لبناء ذلك المسرح، وهو كثير بمعيار تلك الأيام، ثم بما ذهب إليه من استعداد وإعداد للعرض الذي لم يتم.

وفي أيام الجنادرية، أتيح لي أكثر من الاستماع إلى ندوة الجلسة الثانية عن المسرح يوم السبت ١٤١٠/٨/٦... فقد كان لي لقاء بالأستاذ «راشد الشمراني» الذي علمت أنه كاتب مسرحي، وقد سبق له أن كتب عدة مسرحيات مثلت وعرضها التلفزيون فعلاً... وقد طمعت أن أرى مسرحيته التي فهمت أنها ستعرض في القاعة الكبرى في الجنادرية... ولكني لم أستطع حضورها للأسف الشديد... وإن كنت قد رأيت (بروفة) لها في إحدى قاعات فندق قصر الرياض ثم تكرّم فزوّدني بنسخة من نص

المسرحية عندما رجوته أن يمن عليّ بذلك.

وعكفت على قراءة النص، قراءة متأنية، أغراني بها اسم المسرحية وهو (ديك البحر) إذ ظللت أتابع الأحداث صفحة بعد أخرى إلى أن انتهيت إلى (ديك البحر)...

ولا بد لي من وقفة مع هذا النص، الذي أبادر فأقول إن أهم ما أعجبني فيه أنه مكتوب بلغة عربية فصحى، من جهة، وخالية من الأخطاء النحوية أو اللغوية من جهة أخرى.

أما عن موضوع (ديك البحر)... وما أراد أن يقوله كاتب النص... أو ما أرادت أن تقوله هذه المسرحية، فلا بد لي أن ألتمس سبيلاً إلى انتظار القارئ لمقالٍ تال في الموضوع.

أيام الجنادرية

(٣)

ديك البحر

اصطحبت نص مسرحية (ديك البحر) في رحلتي إلى عنيزة، ليس فقط للكتابة عنها، بل لأقرأ النص للمرة الثالثة بكثير من التأني، والرغبة المخلصة في الخروج بمفهوم يرضي ما أزعمه لنفسي من قدرة متواضعة على الفهم والاستيعاب. ولن أدهش أو أضيق إذا وجدت أن كثيرين ممّن شاهدوا عرض المسرحية في القاعة الكبرى في الجنادرية، أو ممّن أتيح لهم قراءة نصها يضعونني في قائمة فريق من المثقفين أو أشباههم ـ وأنا منهم ـ الذين فاتهم ركبُ المعاصرة، ليتركهم حيث وضعهم عجزُهم عن اللحاق بهذا الركب.

وكما سبق أن قلت، إن ما لفت نظري وأعجبني أن النص مكتوب بلغة فصحى (ومصحّحة) من الأخطاء المطبعية. وإذا كنت لم أقف عند النص الشعري الذي كتبه الأستاذ محمد الثبيتي فلأني توهّمت أن هذا النص، مجرد مداخلة تؤطِّر الحركة الفولكلورية التي اعتمدها الكاتب وارتكز عليها في إعطاء المشاهد عنصر الترفيه الذي يخفّف من سحب

الغموض التي تتلاحق وتتكاثف، كلّما أوغلنا في حياة سليمان الذي تتمحور المسرحية حوله وتأخذ سبيلها إلى التشابك مع شخصيات القرية، ومنهم ـ أبطال المسرحية إلى جانب سليمان ـ أبو حريقة، والسنبوك، وبياض وعربي.

ومع أن المسرحية تبدأ بزفة (ختان) سليمان، فإنها تأخذنا إلى تفاصيل تلمح إلى أجداد سليمان، ثم تنطلق، وعبر الرقصات الفولكلورية المتوالية والمتنوعة، التي أعتقد أن المخرج قد قضى وقتاً طويلاً في التدريب عليها، مع قرع الطبول الذي يبدو أنه من الإيقاعات التي يتقنها الذين تولّوا الملاءمة بينها وبين الرقصات... تنطلق إلى (تزويج) سليمان من (دلال الشريفة)، الذي يبدو سليمان رافضاً لفكرته أصلاً، فتتعالى صرخاته ومنها: (أفيقوا يا حمقى واسمعوني... اسمعوني) ولكنهم لا يلقون بالاً إلى رفضه وصرخاته، بل يتزاحمون عليه ويرغمونه على ارتداء ملابس خاصة بالزواج تحت إشراف (أبو ساعية). ولكن ينجح سليمان في الإفلات منهم... فينتابهم الخوف منه.. ونجده يتهمهم بأنهم قتلوا جدّه... خنقوه... وفي زحمة الرقص وقرع الطبول... ينهض سليمان من سقطته ليقول: (أنتم سفاحون مع سبق الجهل والذل... أنتم أيها المجرمون وراء هلاك جدي... وستبوءون بغضب من الله يا عبيد الهوان وسيعلم الذين (سكتوا) منكم أي منقلب سينقلبون... وأنا أعلنها أمامكم... سأذهب ثانية لأصطاد... وأنتم جميعاً ستكونون على الشاطىء لتروا بأعينكم... فيذهب إلى عرض البحر، ويعود حاملاً صندوقاً يعطيه للأطفال... ثم يرجع إلى البحر يمشي ويمشي حتى يغيب تماماً عن الأنظار... وفيما هم يتابعونه ماشياً، يقوم (أبو ساعية) بفتح الصندوق... ليجد فيه (الديك)... الذي سمع المشاهدون صياحه... وعندئذٍ يغني الأطفال هذه

الأبيات للأستاذ الثبيتي، التي أعتقد أنها قالت أخيراً ما أرادت المسرحية أن تقوله:

كوكو كوكو... بان النور

صاح الديك فوق السور

كوكو كوكو... بان النور

وحين يختلط الأمر على المجموعة، بين سرطان البحر وبين الديك... يصرخ أبو حريقة ليقول: ـ.

ـ لا... لا... لا... هذا ديك البحر

ويفاجئنا (أبو ساعية) بقوله: ـ (يا أحبائي... قررت أن أتزوج أنا بدلال الشريفة)... وتزفه القرية كلها بكل حماس ناسية أنهم كانوا يريدون لها أن تتزوج من سليمان... وتنتهي المسرحية بأصوات الأطفال وهم ينشدون: ـ (كوكو... كوكو... صاح الديك فوق السور... كوكو... كوكو... بان النور).

وبعد...

فقد قلت للدكتور الغذامي الذي شاهد العرض في الجنادرية، وكان معجباً بلغة المسرحية ولم يرفض ما قلته إنها من مواليد (أدب الحداثة)... وإنها أقرب إلى مسرح اللامعقول الذي يتعذّر أن توغل في معنى يريده الكاتب، دون أن تستبعد عن ذهنك الكثير من (المعقول)... ولكن مقال الدكتور «نذير العظمة» المنشور في العدد الأخير من اليمامة عن (ديك البحر) كان مفاجأة وقفت عندها طويلاً، إذ ذهب مع (ديك البحر) إلى (بيرانديللو) والمسرحية المرتجلة، التي لا يتقيد الممثل فيها بالنص المكتوب، كما لا يهم أن يتقيد المشاهد بنص ما... لأن النص المسرحي

في الجوهر هو عدة نصوص... (١) نص المؤلف) و(٢) نص المخرج) و(٣) نص الجمهور أو الصالة)...

ولا أستطيع أن أساير الدكتور نذير العظمة فيما كتب عن المسرحية المرتجلة على أساس من نظرية بيرانديللو لأني لا أعرف شيئاً عن بيرانديللو ونظريته أولاً... ولأنّي لا أفهم تعدد النصوص إلاّ بمنطق الدكتور الغذامي وفريق النقد النصوصي الحديث، الذي أعتقد أن الخوض فيه من جانبي يعتبر مجازفة لا أحمد عواقبها.

ويبقى... أن أقول إن (ديك البحر)... ربما كان انعقاد البطولة فيها وتمحورها على سليمان يجيء من حادث (سليمان خاطر) وهو الجندي الذي قتل أو أطلق النار على مجموعة من اليهود في سيناء وفي موقع (طابة) على التحديد، إذ جعلت بعض الصحف في مصر من سليمان خاطر بطلاً في وزن عبد الناصر وغيره من الزعماء المصريين... ترى هل أراد الكاتب، أن يبخِّر بطولة سليمان خاطر، وأن يذروها في الهواء حين تنتهي إلى أسطورة ديك البحر؟؟؟

ذلك ما يمكن أن يقول عنه شيئاً، الأستاذ راشد الشمراني...

الانتفاضة هي الحل

في مواجهة ما لا يزال يتفاعل عن هجرة اليهود السوفيت إلى فلسطين، وليس في كل ما ينبض به هذا التفاعل من الجانب العربي، ما يشير إلى أن الاتحاد السوفيتي، أو البيروسترويكا التي طرح جورباتشوف مبادئها وأهدافها... يمكن أن تتراجع عن فتح باب الهجرة لكل مواطن سوفيتي، ومن المواطنين هؤلاء اليهود الذين لا يكره أحد في روسيا أن ينزاحوا عن الأرض وإلى الأبد... نتساءل ماذا يمكن أن يجدي طرح القضية على مجلس الأمن؟؟؟ وما الذي يمكن أن يتمخّض عنه موقف الولايات المتحدة الأمريكية التي تذرّعت بحق اليهود في الهجرة إلى إسرائيل وليس إلى أي بلد آخر، والغرض كما هو واضح، هو توطيد وتحقيق هدف استيطان وابتلاع الأرض المحتلة والقطاع، وفي ذلك سبيل إسرائيل للوصول إلى هدفها الأعظم المقرر في ما تحمله العبارة المكتوبة على مدخل الكنيست وهي (إسرائيل من النيل إلى الفرات).

ولن نضيف جديداً إذا قلنا إن الاتحاد السوفيتي، وتحت راية البيروسترويكا، لا يختلف عن الولايات المتحدة الأمريكية، في دعم وجود إسرائيل في الأرض العربية، ولن يتراجع عن هذا الدعم، رغم كل ما نتلهّى به من ظاهرة عدم تبادل التمثيل الديبلوماسي بينه، ومعه الدول التي كانت تدور في فلكه، مع إسرائيل... وليس من يجهل أن هجرة بضعة

ألوف من اليهود في كل سنة من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل، كان دعماً بالقوى البشرية المؤهّلة تأهيلاً عالياً، لا ينبغي أن نستبعد أنه من الوسائل التي جعلت من إسرائيل، رغم ضآلة حجمها دولةً متقدمة، ليس فقط بصناعتها العسكرية، بل بصناعات أخرى متميزة تملأ أسواق نيويورك ولندن وباريس، هذا إلى جانب صادراتها من الحمضيات، التي تجدها على كل مائدة من موائد الفنادق الكبرى في العالم.

فهجرة اليهود من الاتحاد السوفيتي إلى إسرائيل ليست شيئاً جديداً. . . وإنما الجديد هو كثافة هذه الهجرة، بعد أن قرر جورباتشوف حق المواطن السوفيتي في السفر أو في الهجرة وكذلك في العودة إلى الوطن عندما يشاء. ومن جانبنا نحن، تتعالى أصوات استنكارنا وتنديدنا، وتتلاحق شكاوانا (لطوب الأرض) أو للأمم المتحدة، والدول الأوروبية، دفاعاً عن (الأرض المحتلة وقطاع غزّة في فلسطين). . . وليس لدينا بعد ذلك شيء يمكن أن يزعج الاتحاد السوفيتي الذي فتح باب الهجرة على مصراعيه، أو يمكن أن ينبه الولايات المتحدة إلى ما يمكن أن يسفر عنه موقفها، لأن الواقع أنه لا موقف لنا، أكثر من هذا الذي تمتلئ به أعمدة الصحف من كلام لنا أن نسميه بحق (كلام جرايد).

ولكن هؤلاء الذين وصلوا فعلاً إلى فلسطين من اليهود السوفيت، وأصرت أميركا على أن يتجهوا إلى إسرائيل فقط، رغم تشوق غالبيتهم إلى الهجرة إلى أميركا أو إلى أي بلد في أوروبا، هؤلاء يواجهون بطبيعة الحال الانتفاضة التي فوجئوا بها، ولم يقل لهم أحد إنها مستمرة وقد دخلت عامها الثالث، وليس هناك ما يشير إلى أنها ستتوقف أو تنتهي أو أن تستطيع قوات القمع والإرهاب الإسرائيلي أن تنهيها.

هذه الانتفاضة، لو أتيح لها أن تنتشر حتى في الأجزاء التي احتلت في عام ١٩٤٨، والتي يبدو أنها أقل انتشاراً هناك حتى الآن، والتي قد تحرص إسرائيل على توطين المهاجرين الجدد فيها لتخفف عنهم مشاعر الرهبة والخوف من أعمال الانتفاضة، ثم لو أنها في الأرض المحتلة تجد المزيد من الدعم بالمال، الذي يدفع عن المنتفضين عائلة الحاجة إلى الغذاء أو «الجوع» فإنها هي التي تضع الحل الأمثل والأكثر تأثيراً، ليس فقط بالنسبة لهؤلاء الوافدين بل بالنسبة لكل من تحاول إسرائيل توطينه في فلسطين.

في الصور التي نراها في المجلات الأمريكية، نرى من هؤلاء المهاجرين من يبدو عليهم أنهم قد هاجروا بنسائهم وأطفالهم، وفي مظهرهم ما يدل على أنهم لم يكونوا فقراء أو معدمين وقد هاجروا إلى إسرائيل، وفي حسبانهم أنها الفردوس الموعود، فإذا واجهوا الانتفاضة بكل ما ينبغي لها من عنفوان وإصرار ومتابعة، فإنهم سوف يُنذرون الأفواج التي تتهيأ للهجرة وهذا وحده الذي سوف يوقف الهجرة من جهة... ويطهر الأرض المحتلة من الذين استوطنوها من جهة أخرى... والمسألة من هذا المنظور، مسألة استمرار الانتفاضة، زمناً لا بد أن يطول، ولن يستطيع قمع إسرائيل وإرهابها أن يصنع شيئاً ما دام سلاح الانتفاضة هو حجر الأرض.

الفردوس الموعود. . . مفقود

ونستغني عن الشرح والإيضاح، إِذْ المعلوم أن الفردوس (الموعود)، هو الأرض الفلسطينية المحتلة. . . وعموم هذه الأرض دون تفريق بين ما تم احتلاله في عام ١٩٤٨م، وما تم اغتصابه في كارثة العرب عام ١٩٦٧... وهي فردوس موعود، تتكامل فيه مجموعة من العناصر التي ظل يحلُم بها كل يهودي على وجه الأرض، ليس بينها إطلاقاً، الرياضُ الغنّاء، والأنهار الجارية، والرخاءُ إلى جانب الأمن والأمان، وإنما العناصر التي يحلم بها هذا اليهودي دائماً وأينما يكون، هو (حائطُ المبكى) والمجتمع اليهودي ـ رغم اختلاف منابته والبلدان التي هاجر، أو هُجّر منها، ثم اللغة العبرية، التي يُفرضُ على المهاجر تعلُّمها وإتقانُها إذا لم يكن يعرفها، إنْ لم يكن لشيء، فليتاح له أن يفهم ما يسمع في الإذاعة، وما يُشاهد في التلفزيون، وما يُطبع ويُنشر في الصحف. . . فالفردوس من هذا المنظور هو أن يكون ـ ولأول مرة في تاريخه الطويل ـ في كيان دولةٍ يهوديةٍ اسمها «إسرائيل».

ولنا أن نغض النظر أو نتجاهل ما تنشره الصحف العربية عن الهجرةِ المضادة من اليهود الذين ضاقوا بالحياة في إسرائيل فهاجروا إلى أميركا أو إلى أوروبا. . . وأن نفرض أن هذا مجرد دعاية وكلام. ولكن هؤلاء اليهود السوفيت، الذين فتح لهم جورباتشوف باب الهجرة، إلى حيث

يشاؤون، بينما طوقت الولايات المتحدة المنافذ وضربت الأسوار، وأصرّت على أن يتجه المهاجرون إلى إسرائيل دعماً لفكرة استيطان الأرض المحتلة. هؤلاء اليهود السوفيت، وإن كانوا يتسابقون إلى (الفردوس الموعود) فإنهم مواطنون سوفييت، كانوا يعانون ما كان أو ما لا يزال يعانيه المواطنون السوفيت من الوقوف في الطوابير طلباً للمواد الغذائية مثلاً، ولكنهم مع ذلك مكفولون حمايةً على الأرواح... ومأوى يسكنون إليه بعد ساعات العمل، وحضانات للأطفال والتزاماً بالتعليم دون مقابل، إلى آخر ما نسمع أن نظام الاتحاد السوفيتي يؤمنه للمواطنين.

فماذا سوف يجدون في إسرائيل؟؟؟

في مقدمة ما يصدمهم، ويوقظهم من حلمهم الذهبي، هذه الحجارةُ التي تحصبهم بها أيدي الصبية والأطفال والصبايا والنساء العجائز منهن والشابات. فإذا لم تكن الحجارة، فنظرات الكراهية والبغض والحقد التي تقول إن المصير في الأرض المحتلة التي يستوطنونها هو هذا الذي يواجهونه، عند الجار ـ إن وجد ـ وعند بائع المواد الغذائية، وعند أرصفة الشوارع التي يتنقلون عليها... وقد يكون الأهم، هو هذه الأرتال من القوات المسلّحة بالأسلحة الثقيلة التي تجوب الشوارع والطرقات، وتطلق الرصاص العشوائي، وتجري وراء طفل، أو بُنية صغيرة وكل ذلك إضافة إلى كل ما يذاع عن تهديدات الدول العربية التي لم تخفّض بعد من نبرة العداء ولا تزال تتوعد الوجود الإسرائيلي كلّه، وتفسح المجال للزمن ليمتد عشرات السنين تنتهي حتماً إلى (نهاية) دولة إسرائيل...

ولا يغفل المهاجر اليهودي السوفيتي واقعاً آخر، هو أن قوة هذا الذي يسمّى إسرائيل مستمدة من الولايات المتحدة الأمريكية في الدرجة

الأولى... كما لا يغفل عن ترسانة الأسلحة المتوافرة في إسرائيل والتي لن تتأخر عن تصديرها إليها أميركا عند اللزوم... ولكنها تتساءل ـ وأعني هذه الأفواج المهاجرة ـ ماذا عن العرب المحيطين بهذا الجزء من فلسطين أو من الأرض العربية؟؟؟ هل هم مستغرقون في نوم عميق؟! وراضون تماماً بوجود هذا الجسم الدخيل الذي سمّوه إسرائيل... أليست جميع الدول العربية حول إسرائيل، ـ مجاورةً أو بعيدة ـ تكدّس هي أيضاً أنواعاً من الأسلحة، يظهر يوماً بعد يوم أنها تتطور... وأنها لا تغفل أبداً عن حساب (المدى أو ما يسمى "Range" الصواريخ والطائرات من موقعها في بلادهم إلى تل أبيب... ثم كم سيصل عدد اليهود ـ حتى بعد هجرة مئات الألوف من الاتحاد السوفيتي أو من أي بلد آخر... كم من الملايين، في هذه البحيرة العربية من السكان... والطوق العربي من البلدان.

بين هؤلاء الروس السوفيت مثقفون كبار... وعلماء... وأساطير سياسةٍ وفكر سياسي لن يفوت عليهم أن يروا كل هذه الحقائق، في الأرض التي يستوطنونها أولاً... وفي الأراضي العربية المحيطة بهم ثانياً... وفي ترسانة الأسلحة التي تتطور عند العرب ثالثاً.

هؤلاء... وحتى عامة المثقفين والمؤهّلين سوف يدركون، أن الفردوس الذي وعدتهم به أحلامهم، إذا كان فيه (حائط المبكى)، فليبك عنده من يشاء... ولكن ليذكر دائماً أن (الفردوس الموعود)... في أرض فلسطين مفقود... مفقود...

مصير الانتفاضة على عواتق الدول العربية

صفّقنا طويلاً وكثيراً وعبر ما يقرب من ثلاث سنوات، ونحن نشاهد على شاشات التلفزيون مشاهد الانتفاضة، وما تواجهها به قوات الإرهاب والقمع الإسرائيلي... ولعل بعضنا عجز عن أن يحبس دموعاً تنذرف، وهو يسمع أو يرى أطفالاً يلقون مصارعهم برصاص تلك القوات، التي أتساءل أحياناً كيف لا يخجل الواحد منهم، ويشعر بحقارة آدميته، وهو يصوب رصاص بندقيته إلى صدور أطفال ونساء... لأجيب: إنهم شرائح من آدمية (مصنوعة) كالآلة، نزعوا من تكوينها جميع المشاعر الإنسانية، التي لا يخلو منها حتى القردة ووحوش الغابات.

وتخرج علينا الصحف اليوم (الأحد، الثامن والعشرين من شهر شعبان ١٤١٠)، بأن مجلس الشيوخ الأمريكي بكل أعضائه ـ من الديموقراطيين ـ والمفروض أنهم شخصيات (متكاملة العناصر الآدمية والإنسانية) ـ قد أجمع أعضاؤه على قرار يعتبر القدس عاصمة لإسرائيل التي لا أشك، ولا يخطر ببال مخلوق في العالم أنهم لم يشاهدوا على شاشات تلفزيوناتهم، مشاهد الانتفاضة وجماهيرها من النساء والأطفال، تصرعهم رصاصات أولئك الذين أسميهم شريحة من (الآدمية الآلية) المجردة تماماً من مشاعر الإنسان... بل من مشاعر وحوش الغاب... ترى هل استطاعت أميركا أن تصل بقدراتها التكنولوجية إلى استلال واستلاب مشاعر الإنسان حتى لدى أعضاء مجلس

الشيوخ الذي يصدر قراراً باعتبار القدس عاصمة لإسرائيل؟؟؟

وفي غمرة هذه المشاعر هذا الصباح، قرأت مقال الأخ الأستاذ تركي عبد الله السديري بعنوان (حتى آخر طفل)، طرح في نهايته سؤالاً يقول: (إلى متى يصمد هؤلاء)؟؟؟ ثم يضيف: ـ (هل المطلوب الآن أن يموت آخر مقاتل في الانتفاضة الفلسطينية حتى يتحرك العمل العربي وهو ما لن يحدث)؟؟؟

وأحسست أن هذا هو السؤال الذي أصبح كل مواطن عربي مسؤولاً، ليس عن طرحه على ساحة السياسة العربية بامتدادها المترامي المعروف، بل عن المطالبة الملحة، وبعيداً عن التنديد، والاستنكار، والشكاوى لدى الأمم المتحدة ومجلس الأمن، بأن يحمل الأطفال والنساء، سلاحاً غير حجر الأرض... أن يحملوا السلاح الذي تملكه وتتمخطر به تلك القوات في الشوارع والطرقات، وتركض به خلف أولئك الصبية والنساء.

حرصت الانتفاضة منذ بدأت على أن تتجرد من البندقية... أن تعطي العالم حقيقة إنسانية نادرة المثيل، وهي أن قتل الإسرائيليين ليس الهدف... وأن هذه الحجارة مجرد تعبير إنساني، كان المظنون أن يفهمه العالم، ومنه أعضاء مجلس الشيوخ، وغيرهم من جماهير الأمة الأمريكية... ولقد سقط المئات من النساء والأطفال... وأودع السجون ألوف... واتضح أن بعد هذا النضال (الإنساني المهذّب والحضاري) أن العالم لم يفهم... وأن الذي لا بد أن يفهمه ولا يفهم سواه... هو هذه البندقية... وهو هذا الرصاص... وهو التفاتة مختلفة وحاسمة، وصريحة، وجريئة، تتولاها الدول العربية بكل ثقلها... لتستمر الانتفاضة بمفهوم جديد... وحتى آخر طفل.

تصريحات جورباتشوف

التصريحات التي تناقلتها وكالات الأنباء، وعرض مشاهدها التلفزيون للرئيس السوفيتي جورباتشوف، القائلة برفض استيطان المهاجرين الروس للأرض المحتلة، وأن الاتحاد السوفيتي لا يزال على موقفه الرافض لتصرفات إسرائيل. . . هذه التصريحات تبدو، وكأنها طمأنت الدول العربية إلى أن هذه الهجرة، ستتخذ مساراً غير هذا الذي خططت له إسرائيل، ولا يجهله الاتحاد السوفيتي.

وفي مواجهة هذا الارتياح والاطمئنان و(ارتخاء التوتر) لدى الدول العربية ـ كما نراه في وسائل الإعلام، تعود بنا الذاكرة إلى الحقائق التي لا ندري كيف يسدل عليها الستار في عالمنا العربي الكبير.

من هذه الحقائق أن نسبة اليهود الروس في دولة العدو قبل نزوع الهجرة الأخير تبلغ أكثر من ثلاثين في المئة، وأنهم جميعاً هاجروا إلى إسرائيل في أعقاب احتلالها للجزء الذي احتلته في عام ١٩٤٨.

وما قد لا يعلمه الإنسان العربي الذي لا تزال بعض دوله وأنظمته تطنطن لصداقته مع الاتحاد السوفيتي أن جمهرة الفنيين والتكنولوجيين والعلماء الذين تبني عليهم إسرائيل ما تسميه تقدمها (التكنولوجي)، هم من هؤلاء اليهود الذين دفع بهم الاتحاد السوفيتي في أعقاب العدوان عام

١٩٤٨، وما زال يدفع بهم إلى يومنا هذا رغم كل ما يدعيه أو تدعيه بعض الدول العربية من صداقة بين الطرفين.

وحجة العرب أن الاتحاد السوفيتي يقف إلى جانبهم في قضيتهم القائمة مع إسرائيل وأن هذه الدولة الكبرى في العالم قد زودتهم بالأسلحة التي يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم تجاه العدوان.

وهي حجة يقابلها سؤال يجب أن يطرحه كل عربي يعي خفايا قضيته المصيرية الكبرى،وهو، لماذا ظل الاتحاد السوفيتي يرفض حصول العرب على أسلحة هجومية تعيد إسرائيل إلى صوابها وتشعرها بمركز القوة الذي يستطيع العربي أن يتكلم منه وعبره؟؟، بدلاً من هذا المركز الهزيل الذي تتوالى فيه اقتراحات التسوية والتي يؤلمني جداً أن أسميها اقتراحات (الاستسلام).

والإجابة معروفة ساطعة كالشمس، وهي ـ رغم كل محاولات التغطية والتستر ـ أن الاتحاد السوفيتي حريص على استمرار الوجود الإسرائيلي، ـ وجود دولة إسرائيل ـ نفس حرص الولايات المتحدة الأمريكية ومن يدورون في فلكها من دول الغرب... كل الفرق بين الاثنتين هو: أن الولايات المتحدة، بمقتضى دستورها ونظام الحكم فيها ـ لا تتردد في أن تذهب في حرية التعبير إلى الحد الذي يثير العرب، ويرضي ملايين اليهود في أميركا، ثم هذه الملايين التي أتاحوا لها أن تكون (دولة إسرائيل). بينما يختلف الاتحاد السوفيتي بأن له القدرة على تزييف الحقائق، ويمارس اللعبة ـ دون خسائر ـ عبر الكثر من الضحك على العقول بشعارات لا تزال ترفع، ولا تزال في الشرائح العربية المثقفة من يؤمن بها ويصر على الالتزام بمضامينها.

مع ظهور جورباتشوف، ومبادئه، التي مغنطَتْ عقل العالم، لا بد أن ندرك نحن ـ في العالم العربي ـ أن فكي الكمّاشة، الأمريكية، والروسية، مطبقان على مصيرنا، ولا سبيل للخلاص إلاّ بأن نعرف لأنفسنا ذاتيتها المستقلة، التي تعمل على أن تكون الأمّة التي ترى وتدرك حقيقتها كما أرادها الله لها في كتابه وسنة نبيّه... وذلك ما لا نزال غافلين عنه رغم كل ما نتصايح به من وعظ، وما نردده من محفوظ التراث، وموروث التقاليد.

لعبة تزوير التاريخ

وهي لُعبة يتهم بجرمها، ـ وفي نفس الوقت يمنح الثناء والتقدير للبراعة في إتقانها، وتمريرها على جماهير المعنيين باستنكار ما وراء الأحداث، التي يدونها المؤرّخ، في مجتمعه المحدود، أو في المجتمعات البشرية التي يرحل إليها، كما كانت الحال فيما قبل القرن العشرين. . . أو قبل تفجر ينابيع الاتصالات الحديثة، التي انتقلت معها عملية التدوين من قلم الكاتب، إلى أقلام محرري الأخبار والعاملين على جمعها وحشو أفواه المذيعين، في الراديو والتلفزيون بها في لحظة حدوثها.

ولكن مع هذا الطارئ على مهمة أو عمل المؤرّخ، فقد كان له سبيلُه إلى أن يدوّن نفس الأحداث، وأن ينشرها كتباً أو محاضرات، أو مقالات، ولكن بإضافة ذكيّة، هي التعليق والتحليل الذي يتيح له أن يقول للقارئ ما يظل ـ في كثير من الأحيان ـ تزويراً يسوّغه أن الحادث أو الشخصية في هذا الحادث، لها مجموعة من شرائح المجتمع الكارهة أو الحاقدة، أو ربما لها في نفس الوقت مجموعة أخرى معجبة، محبة. . . تلك ترى أن الشخصية تستحق أن توضع على المشرحة وأن تستخرج أحشاؤها، وتلافيف دماغها والمشرِّح هو المعلق المحلل، الذي ينشر ويعرض ما يرضي مشاعر الكراهية والحقد، أما الأخرى ـ المعجبة المحبة، فترى أن الشخصية، قد ظُلمت وانتُهك أو ابتُذل كل ما بذلته من جهد لصالح

المجتمع التي كان يديرها في كيان هذا المجتمع. وإن من حق المعلق والمحلل أن ينصفها، وأن يتسلل إلى الأقبية والأنفاق والخزائن، ليظهر الحقائق التي ـ إن لم تُعدِ للشخصية كرامتها ـ فإنها تعطي المعجبين والمحبين، ما يرضي مشاعرهم، ويطمئنهم إلى أنهم لم يكونوا منحازين إلى خطأ ولا متحزبين لوهم.

وفي الحالين ـ بالنسبة للمؤرّخ، الذي انتقل إلى التعليق والتحليل ـ يظل في نفق المتهمين بالتزوير والتلفيق، والجرأة على الحقيقة. فإذا حاولت أن تلتمس الأسباب التي تهبط بالكاتب (المؤرخ أو المعلق أو المحلل) إلى هذا الدرك من الحقارة والصغار، فلن تجد إلا سبباً هو الأهم والأكثر فعاليةً وتأثيراً، وهو ما أسميه (استجداء الشخصية بطل الحادث) وهو استجداء من نوعيةِ السيفِ ذي الحدين... بمعنى: أن الثناء والإعجاب وإغداق سجايا وخصال البطولة والقدرة على حادث وشخصية ما في عهد ما فيه ـ بالنسبة للكاتب وهو المؤرخ من الجدوى (رضاً أو عطاءً أو تقريباً). كما أن القدح والاستلاب واقتناص الأخطاء والمثالب، على حادث وشخصية أخرى في عهد ما، فيه بالنسبة للكاتب أو المؤرخ، نفس الجدوى من الرضا أو العطاء أو التقريب الخ... لأنها (القاعدة الذهبية). التي تتلخّص في أنك تمدح الشخصية وتثني عليها، فلك العطاء والرضى... وتقدح في الشخصية التي تعلم أنها (انتهت) وأن إظهار مساوئها، يدعم الشخصية التي أغدقت عليها ما أغدقت من المديح والثناء، وعندئذٍ فإن لك أيضاً نفس القدر من العطاء والرضى.

وأنا أكتب هذه الكلمة اليوم بعد أن غُصت لبضعة أيام، في تاريخنا الإسلامي العربي وفي ما فاضت به قرائح أعاظم شعرائنا، في العصرين

الأموي والعباسي، إلى بداية العصر العثماني، لأجد من أغدقت عليهم المدائح، التي لم يستحقوها قط. . . ومن دُلقت على أم رؤوسهم أنتن الأقذار من السخط والاحتقار، وهم لم يستحقوها إلا إرضاءً لخصومهم.

وتلك مهزلة من مهازل وجودنا طوال أربعة عشر قرناً من الزمان، باستثناء عهد النبوة والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ولا بد أن أستثني من عهد الخلفاء، فترة من عهد سيدنا ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، الذي كان في انحيازه إلى بني عبد شمس بداية ما شهده التاريخ الإسلامي العربي ولا يزال يشهده حتى اليوم من اضطرابات وزلازل وأهوال.

عن ذكريات ريتشارد نيكسن

ومن الذي يمكن أن يكون قد نسي، ريتشارد نيكسن الذي ربح انتخابات الرياسة الثانية للولايات المتحدة الأمريكية بأغلبية ساحقة مذهلة، ثم استهدفته الصحافة، وأخذت تغرز في عنقه، أشرس وأحدّ فكوك كمّاشاتها التي سلّحتها بها قضية اقتحام مقر الحزب الديمقراطي بأجهزة التصنّت، وهو المقر الذي وقف عملاقاً رهيباً في ساحات الرأي العام العالمي باسمه (ووترغيت). وانتهى أمر رئيس أمريكي، ربح الانتخابات ـ مرتين ـ بدون المألوف من مساعدات اليهود، إلى تلك النهاية المحزنة، وهي الخروج طريداً من البيت الأبيض، تسنده من الانهيار، أو السقوط على وجهه فيما أعده له أعداؤه من بحيرات الوحل، كلمة (العفو) التي أصدرها على مسؤوليته، وربما لأول مرة في تاريخ الولايات المتحدة، الرئيس فورد، وهي التي استطاعت أن تحمي نيكسن، من المثول أمام القضاء، وأمامه ذلك الديناصور الرهيب، ليس فقط من قضية اقتحام سرّية اجتماعات الحزب الديموقراطي في مقره (ووترغيت) بل عشرات أو مئات من القضايا الوليدة، أو التي توالدت وتراكمت من هذه القضية، التي استطاعت الصحافة، أن تصنع منها أخطر حدث عالمي تتسلّل أخباره، ثم تتطور في كل مجتمع، بل في كل بيت، في طول العالم وعرضه.

وحمل عدد الأسبوع الماضي من مجلة (تايم)، أوسع تحقيق، أو

تلخيص لذكريات أو مذكرات نيكسن بعنوان (لم أستطع أن أجد سبباً للحياة) يشرحه الناشر قائلاً ـ: (رئيس الولايات المتحدة السابق، يصف مأساة منفاه، وصراعه لاستعادة وجوده).

والتلخيص لكتاب تلقفته الأسواق ولا شك أنه سيلقى من الرواج، ما تستحقه مذكرات رئيس، إن كانت قضية (ووترغيت) قد أخرجته من البيت الأبيض... فإن علاقاته الدولية، الواسعة وإنجازاته السياسية التي كان الأوحد الذي استطاع أن يحققها رئيس أمريكي، ومنها استعادة العلاقة مع الصين الشيوعية، التي أدت إلى استعادة وجودها في الأمم المتحدة، ومجلس الأمن، ثم تخفيف حدة الحرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي بلقائه مع ذوي الأنياب الزرق، ثم ذلك الانسحاب من (سايجون) بهزيمة كانت هي وحدها السبيل إلى إنهاء تورط أميركا في حرب فيتنام... إن كل ذلك يدخل نيكسن في تاريخ أضخم الأحداث في القرن العشرين... لقد غادر سدة الرياسة، أو أرغم على مغادرتها، ولكنه كان قد هيأ لنفسه مقعده المتميّز المرموق في بهو عظماء التاريخ.

ولقد قضيت أكثر من أربع ساعات متقطعة في قراءة التحقيق، أو التلخيص للكتاب الذي تتلقفه الأسواق في العالم، واستوقفني، أكثر من تعبير عن مشاعره أو إصراره على أن يظل في حلبة الصراع، رغم ما عرف، وما تكشفه الأيام، بعد خروجه من البيت الأبيض من العناصر التي تتجمّع وتتكاثف، حوله ولا غرض لها إلاّ إغراقه في تلك البحيرات من الوحل... ومع أنه اليوم يدرج إلى الثامنة والثمانين من عمره، فإنك لا بد أن يدهشك وقوفه شامخاً مستعداً للمزيد من الصراع، ومن الحرص على البقاء... على الحياة... قوياً وفي نفس الوقت قادراً على أن

يستفيد من هزائمه وأن يستثمر انتصاراته. . .

يقول إنه قد دفع ما بلغ مليوناً وثمانمئة ألف دولار ـ خلال ستة عشر عاماً، أجوراً للمحامين الذين كانوا يعالجون القضايا التي ما زالت تعيش في المحاكم، ومنها المحكمة العليا. وهو يعترف أن دخله من مرتّبه كرئيس سابق، وما يتبعه من مخصصات، يغطّي النفقات الضرورية، ثم يقول: (والآن. . . بعد أن التأمت جراح الجسد والروح، أصبحت مهيّأ للتصدي لأهم تحدٍّ واجهته، وهو «شفاء الذِّهن». . . وكان هذا هو العامل الحاسم في اتخاذي قرار كتابة ذكرياتي. . . ويضيف: إن التفرغ لكتابة هذه المذكرات قد حقق أغراضاً متعددة. . . إذ هي تزوّدني بجانب من الدخل الذي أحتاجه. . . وهي تَحَدٍّ ذهني ضخم يستلزم كل قدراتي في الإبداع. . . إن كتابة كتاب هو أكثر الممارسات التي تمنح الذهن القدرة على التركيز والإبداع. . . والأكثر أهمية، إنها تصدنا بالعلاج الذي نحتاجه للشفاء الروحي الكامل. . . بحيث أتيح لي أن أضع (ووترغيت) خلف ظهري.

وبعد فقد طلبت استيراد الكتاب من لندن، وسأفرغ لقراءة الكثير من فصوله. . . ولكن لا بد أن أقول إن التلخيص الذي قدمته مجلة تايم للكتاب، رائع، أتمنى أن يفرغ لقراءته المثقفون، والشيوخ منهم على الأخص. وهو في نفس الوقت قصير لا يستغرق أكثر من ساعتين في قراءة متأنيّة.

موقف عربي موحّد لمساندة العراق

منذ سمع العالم تصريحات الرئيس العراقي، صدّام حسين، عن قدرة العراق على صدٍ حاسم لأي محاولة يقوم بها العدو الإسرائيلي للاعتداء على العراق بذريعة إجهاض إمكانياته القادرة على حرق نصف إسرائيل. . . منذ تلك اللحظة، والعالم يسمع التصريحات المتلاحقة تصدرها الولايات المتحدة، والدائرون في فلكها، وعلى الأخص بريطانيا، وهي تصريحات لم تخل من التهديد الصريح أو «المبطن» بالوقوف إلى جانب العدو. إلى الحد الذي اندفع معه المؤيدون لإسرائيل في الكونغرس، إلى المطالبة باللجوء إلى «الخيار العسكري» ضد العراق إذا لزم الأمر، بل إلى الحد الذي لم يمنع المتحدثة باسم وزارة الخارجية الأمريكية، أن تقول ما يفهم منه، إن مواجهة من يدقون طبول الحرب، واستخدام الأسلحة الكيماوية ـ وهي التي هدد باستعمالها الرئيس صدام حسين ـ يجب أن تكون بقاعدة دق طبول (تدميرها).

وبطبيعة الحال، (تدميرها) لا يشمل إسرائيل التي لم يبق في العالم أحد يجهل أنها تملك القنبلة الذريّة، وكذلك الأسلحة الكيماوية. . . وإنما المقصود به العراق الشقيق.

وأجد نفسي، في أجواء هذه البروق الخاطفة من هنا وهناك، مضطراً

للاعتراف بأني أحسست بما يشبه فرحة الأطفال حين يسمعون (مدافع العيد)، وأنا أسمع وأقرأ تصريحات الرئيس صدام حسين، أو تهديداته بالقدرة على حرق (نصف إسرائيل). وربما كان ذلك لأننا منذ انتصارنا في حرب أوكتوبر، وما تبعها وتولّد منها ونتيجة لها من أوضاع ومواقف، ورغم اتفاقيات السلام واسترداد سيناء أصبحنا، ـ ومرة أخرى ـ نقف من قضيتنا الكبرى مع العدو وخلفه أميركا بالذات، الموقف الذي يمكن أن يوصف بأنه موقف أو وضع (اللاحرب واللاسلام).

أما إنه موقف (اللاحرب) فلأنه ليس حرباً تتم بها تصفية من أي نوع، وليس سلاماً تستقر معه الأحوال، وتتجه في ظلاله شعوب الأمة العربية إلى ما تتطلع إليه من أمن واستقرار... ليس حرباً يعرف معها العربي طريقه إلى المعركة... وليس سلاماً يعرف معه طريقه إلى المصنع والحقل.

لا حرب ولا سلام، وإنما هو رغم كل الجهود التي تبذل للوصول إلى مؤتمر دولي للسلام، هو تربص في فراغ... وانتظار في غير ما طائل، والتوقع الدائم لمجهول، لم يتضح ـ ولا يوجد ما يشير إلى أنه سوف يتضح ـ ما هو حده من السوء إن كان سوءاً، وما هو حده من الخير إن كان خيراً.

والحرب نزيف دموي رهيب دون شك... ولكن حالة اللاحرب واللاسلام التي عدنا إليها في هذه المرحلة من مسيرتنا على الصعيد الدولي، لا تقل عن نزيف الحرب استهلاكاً للطاقة والجهد... ولا بد أن ندرك ـ وبوضوح تام ـ إن هذا الوضع المتميع أو المهتز، أو (الضائع)، يطفي جذوة الحزم، ويخمد مشاعر العزّة والآباء والكرامة، ويميت مكامن الإحساس، بالصدمة التي لا تزال مصدر أوجاعنا وحريق وجداننا، ما

دامت الأرض المحتلة، محتلة، وما دام العدو يؤكد بكل غطرسته وعنفوان استهتاره، أنّه (لن) يفاوض، إلا على أساس أن كل ما احتل، هو أرض إسرائيل بما في ذلك القدس، التي تدعم الولايات المتحدة، بمجلس شيوخها أو نوابها، دعواه، بأنها عاصمة دولته وإلى الأبد.

مما قيل ويقال، إن العرب أضعف من أن يحاربوا، وكان انتصارهم في حرب أكتوبر (فلتة) لن تتكرر، وإنما الذي يتكرر، هو الاستمرار في احتلال ما احتُلَّ... وهم ـ العرب ـ أضعف أيضاً من أن يسالموا... فإذا سمعنا اليوم أن العراق الشقيق، ينذر (بحرق نصف إسرائيل) إذا ما فكّرت في التعرض لسلامة وأمن العراق... وإذا وضعنا في حساباتنا وتقديرنا أن عمليات التسلح لدى الدول العربية، تتطور، وتتضخّم، وتقول مؤشرات كثيرة إنها أصبحت لها القدرة على أن تصد أي عدوان، وأن تكيل الصاع صاعين، فإن لمثلي أن يرى وجهاً آخر للصورة... وجهاً مشرقاً يطمئننا على أن مفتاح الحرب يمكن أن يكون في أيدينا، وأن مفتاح السلام أيضاً ليس بعيداً عنّا، ولكنه السلام الذي، لن يندغم أو يموج في معنى الاستسلام.

والعراق الشقيق، ينتظر انعقاد مجلس جامعة الدول العربية، على مستوى المندوبين الدائمين، أو على مستوى وزراء الخارجية، وهو يدعو لهذا الاجتماع وينتظره، ليس من موقف الرغبة في التماس مخرج للأزمة التي نشأت عن التهديد بحرق نصف إسرائيل، وإنما من موقف إيمانه بأن الدول العربية اليوم، غيرها بالأمس... إنها اليوم، في الموقف الذي تتحسّب له الولايات المتحدة الأميركية، التي لن تتخلّى عن دعم إسرائيل طبعاً، ولكنها لن تتجاهل في نفس الوقت، احتمال أن يحرق العراق نصفها، إذا ركبت رأسها فأقدمت على أي اعتداء أو عدوان.

البحر الأحمر، بحيرة عربية

ولا يحوجنا القارئ، أن نغوص في أعماق البحث أو البحوث، عن الزمن الجيولوجي الذي تم فيه هذا الانفلاق أو الانفصال بين قارة أفريقيا في الغرب، وقارة آسيا في الشرق، كما لا نحتاج إلى التفاصيل التي تذكّرنا بأن هذا البحر الذي يمتد بين القارتين لمسافة ٢٤٠٠ كيلومتر، وبالنسبة للمملكة العربية السعودية وحدها فإن «ساحلها على هذا البحر يمتد ليستوعب معظم المسافة بين القارتين، لا نحتاج إلى شيء من ذلك، ولكن أهم ما أصبح يلح علينا بالالتفات إليه، والنظر مع هذه الالتفاتة إلى مستقبل التطورات والمتغيّرات الدولية التي لا بد أن نتوقّعها، ليس فقط في الصراع بين الدولتين العظميين، الذي لن ينتهي رغم كل ما أفرزته موجة تغيّر (الجلد الإفعواني) في الحكم الشمولي أو الشيوعي.

ليس في هذا الصراع بكل تعقيداته وأخطاره التي ظل العالم يتوجّس لها أو منها، وإنما فيما ينبغي أن تتحمله الدول العربية على ضفتي هذا البحر، من مسؤوليات دقيقة ـ ولي أن أقول إنها «خطيرة» ـ ما دامت لإسرائيل على هذا البحر أيضاً ثغرة، كانت سبباً فيما لن يُنسى من أحداث. وسوف تظل سبباً لمثل تلك الأحداث على المدى الطويل، وعلى ضوء الاستراتيجية التي تبنيها الولايات المتحدة، لحليفتها، ولهذه الثغرة بالذات، في مواجهة الاحتمالات الكثيرة التي تراها هذه الاستراتيجية في

اللحظة التي تبرق فيها شرارة الحرب العالمية الثالثة التي لن يقدم على التخلي عن التحسب بل والاستعداد لها أي من القوتين العظميين، على ضفتي هذا البحر، الدول العربية، ومنها أريتيريا بمينائها (مصوع) الذي ينتظر حركة دعم جادة، ليكمل امتداد الخط العربي على الضفة الأفريقية، بحيث يستكمل البحر الأحمر تكوينه السياسي كبحيرة عربية.

وبعد قناة السويس، التي ينطلق عبرها الاتصال بأوروبا والغرب، يوجد مضيق باب المندب، الذي ينطلق عبره الاتصال بالشرق على أقصى مداه.

هذا المضيق تطل عليه من الضفتين «الدول العربية»، التي تملك ـ أو ينبغي أن تملك ـ القدرة على التحكم فيه والسيطرة عليه، ليس لإغلاقه أو قطع الاتصال عبره إلى الشرق أو الغرب، وإنما للتعامل مع مقتضيات الاستراتيجية الجاثمة في إسرائيل، وهي حليفة الولايات المتحدة، أو الحليف الاستراتيجي في الشرق الأوسط. وأعني بالتعامل: «الوصول إلى حق الدول العربية، على ضفتي البحر الأحمر، في أن تحسب القوى المتصارعة (العظمى منها وغير العظمى) حساب هذه الدول، وأن تدرك أن لها هي أيضاً استراتيجيتها في الحفاظ على أمنها وسلامها من جهة، وعلى الأمن والسلام الدوليين من جهة أخرى.

لا أعرف الآن شيئاً عن القوات البحرية العربية في هذا البحر على امتداده، ولكني أتطلّع إلى أن تكون القوات البحرية للدول العربية في هذا البحر، قوات،تستطيع أن تتواجد عند اللزوم... وأن تتواجد على الأخص، في مواجهة تلك الثغرة التي تتسلل منها إسرائيل، والتي تعمل الآن جاهدة، وبتخطيط دقيق، مع أثيوبيا، لتضمن نوعاً من التواجد الذي يتاح له أن يتحرّك على أي موقع في المضيق عند اللزوم.

وبعد... فإن ما يتلامح في ذهني من احتمالات للمتغيرات المقبلة على عالم ما بعد التسعينيات، يحملني على أن أطرح هذا الذي يتلامح، مؤمناً بأن ذلك هو واجب الكاتب، يلح عليه أكثر مما يلح الكلام عن الشعر أو عن الإبداع في النقد، وما يتفتّق عنه الذهن من وقفات عند قضايا أعتقد أنها لا تجد من القراء إلاّ أولئك الذين يعايشون الفراغ والهباء.

ولا يحوجنا القارئ أن نغوص في أعماق البحوث عن الزمن الجيولوجي، الذي تم فيه هذا الانفلاق في الأرض ليفصل بين قارة أفريقيا في الغرب، وقارة آسيا في الشرق... كما لا نحتاج إلى التفاصيل، التي تذكرنا بأن هذا البحر الذي يمتد بين القارتين لمسافة طولها ٢٤٠٠ كيلومتر ـ والمملكة العربية السعودية وحدها يمتد ساحلها على هذا البحر ليستوعب معظم المسافة بين القارتين ـ لا نحتاج إلى شيء من ذلك، ولكن ما أصبح يلح علينا أن نلتفت إليه، ومع هذه الإلتفاتة، النظر إلى مستقبل التطورات والمتغيرات الدولية، التي لا بد أن نتوقعها، وليس فقط في الصراع بين الدولتين العظميين، الذي أعتقد أنه لن ينتهي، رغم كل ما أفرزته حركة (تغيير جلد الثعبان) في الحكم الشمولي الشيوعي. وإنما فيما ينبغي أن تتحمله الدول العربية القائمة على ضفتي هذا البحر، من مسؤوليات دقيقة ـ ولي أن أقول «خطيرة» ـ ما دامت للعدو الإسرائيلي على هذا البحر تلك الثغرة التي كانت سبباً، فيما لن ينسى من أحداث، وسوف تظل سبباً قائماً لمثل تلك الأحداث على المدى الطويل، وعلى الأرض على ضوء الاستراتيجية التي خططت لها الولايات المتحدة الأمريكية، وتركت لإسرائيل مجال تنفيذها، في مواجهة الاحتمالات الكثيرة التي تراها هذه الاستراتيجية لانفجار الحرب العالمية الثالثة، التي لن يقدم أي من الدولتين

العظميين على التغافل عنها والتحسب لأخطارها، بل والاستعداد لها بحرب النجوم، وبالأسلحة المتربعة في البحر، وعلى امتداد سطح الأرض.

على ضفتي هذا البحر «الدول العربية»، ومنها (أريتيريا) بمينائها بالغ الأهمية (مصوع) الذي ينتظر من الدول العربية دعماً جاداً ومجزياً، ليكمل امتداد الخط العربي على الضفة الغربية، بحيث يستكمل البحر الأحمر تكوينه السياسي كبحيرة عربية.

وبعد قناة السويس التي ينطلق عبرها الاتصال بأوروبا والغرب، وهي منشأة تملكها ملكية مطلقة جمهورية مصر العربية الشقيقة، يأتي (مضيق باب المندب) الذي ينطلق عبره الاتّصال بالشرق إلى أقصى مداه.

وصحيح أن قناة السويس حفرها الشعب المصري الشقيق، فمن حقه وحده الهيمنة عليها. بينما مضيق باب المندب منفذ طبيعي لم يصنعه الإنسان، ولكن الحقيقة التي ينبغي أن لا تنسى أو تغفل عنها مجموعة الدول العربية على ضفتي البحر الأحمر، ثم على المضيق نفسه، أن هذا المضيق بطبيعته هذه، وموقعه الفريد، وأهميته البالغة يعتبر عربياً ومياهه تعتبر مياهاً إقليمية عربية، إذا أخذنا في الاعتبار أن عرضه البالغ ٢٦ كيلومتراً ينقسم بين الدول العربية على ضفتيه، والمياه الإقليمية لكل دولة أصبحت اليوم ١٢ كيلومتراً والدول العربية على ضفتي المضيق، هي الجمهورية العربية اليمنية، وجمهورية اليمن الديموقراطية في شرق المضيق، وجمهورية جيبوتي (العربية) في غربه، وعلى أساس هذا الواقع الجغرافي، فإن المضيق محكوم بالسياسة التي تنتهجها هذه الدول، إضافة إلى عدد من الجزر التي تعتبر نقاطاً استراتيجية خطيرة. ومع أن أثيوبيا، تجد نفسها مخنوقة إذا نجحت أريتيريا في الاحتفاظ بميناء مصوّع فإن

إسرائيل، وهي تدرك خطورة موقع المضيق، والدول العربية على ضفتيه، وعلى الأخص بعد حرب العاشر من رمضان عام ١٩٧٣، عندما أغلقت القوات اليمنية والمصرية المضيق في وجه الملاحة الإسرائيلية، إسرائيل تعمل جاهدة على مساعدة أثيوبيا على أن يكون لها وجود قوي، على المضيق ينطلق من عدة جزر أثيوبية صغيرة، ليقاوم أي محاولة لإغلاق المضيق في وجه إسرائيل أو غيرها.

من هنا فإن النظرة إلى البحر الأحمر باعتباره بحيرة عربية، وإلى مضيق باب المندب باعتباره مضيقاً عربياً، يمكن إغلاقه عند اللزوم، وإلى إسرائيل، وأثيوبيا، كمصدر خطر على أمن وسلام الدول العربية، فإن الدول العربية مطالبة بأن تكون لها استراتيجيتها الهادفة إلى الحفاظ على أمنها وسلامها، وعلى الأمن والسلام الدوليين من جهة أخرى.

ولا أنكر أني لا أعرف شيئاً عن القوات البحرية للدول العربية في هذا البحر على امتداده، ولكني أتمنى أن تكون هذه القوات قادرة على التواجد في البحر، وفي المضيق، وعلى أن تصد خطر إسرائيل على هذا البحر، وعلى المضيق، وهو خطر تمليه استراتيجية الحليف الأمريكي عندما يتطاير شرر الحرب العالمية الثالثة، التي لم تقع حتى اليوم، ولكن حساب القوتين يظل يؤكد أنها سوف تقع في يومٍ ما، قد يطول انتظاره، ولكنه يظل يبسط جناحيه على الأرض والبشر، رغم كل ما يخالجنا من تفاؤل، وما نرجوه من أمن وسلام للقادم من الأجيال.

نظرة الفنّان أحياناً؟!

ليست نظرة الفنّان إلى الناس والحياة دائماً نظرة صائبة مرضية. ولا أنسى، كم كان يفجعني صديق فنان، بنظرته إلى الجمال... وبنظرته أيضاً، إلى الطهر والبراءة في الأطفال... نظرته إلى الجمال، يمكن أن نمررها، إذ قد تكون نتيجة لعقدة أفرزها حادث ما في علاقته بجميلة... بل قد تكون نوعاً من منطق الاقتناع، بأن هذه الروعة التي تشع في المحيا، وذلك الدلال الذي يراقص القلب والوجدان، ستار، للمجهول الغامض المستتر من حيث الفتنة، وتوحّش الرغبة في الامتلاك والتسلط حتى الإذلال... فإذا سمعته يرى في هذا الجمال الذي يبهر الأبصار قبحاً وشوهاً، فإن عليك ـ أو لك ـ أن تحتوي الخلفيات في ذهنه، والمنطق في فلسفته. وعندئذٍ، يسعك، أن تمرر قسوة النظرة، وأن تعتبرها نوعاً من (التشريح) النفسي، الذي يولع به الفنّان أحياناً، كما يولع الجرّاح أو دارس الجراحة بتشريح جثث الموتى.

أما نظرته إلى الطُّهر والبراءة في الأطفال ـ وأعني الأطفال في مراحل الرضاع، والحيوان إلى مراحل الحركة والمشي ـ فإني لم أكن أطيق، ما يفضي، ويفيض فيه من نظرة لا أجد ما توصف به إلا أنها سوداء منحرفة عن المسار الطبيعي والسليم.

البراءة وطهر النفس، وعفوية التصرف أو تلقائيته، هي أول ما يطالعك

ويملأ مشاعرك بالحب في وجه الطفل. . . إنك لا تملك وأنت تتأمل ذلك النقاء الذي يموج في نظراته إلا أن ترى مشاهدَ من عالم لا يسعك، إلا أن تسلّم بأنه عالم السلام والحب والصفاء. . . فما أكثر ما طال بيني وبين صديقي الفنّان، ومعه أمثاله في مراحل مختلفة من مسيرة الصحبة والرفقة، من الجدل حول تلك النظرة السوداء بالنسبة لبراءة الأطفال وعفويتهم. . . من جانبي لا أطيق أبداً أن أتصور أن هذا المحيا البريء ينطوي على المكر والخداع والخبث واللؤم الخ ما تنفثه تلك النظرة السوداء المنحرفة لدى هذا الفنّان ـ الشاعر ـ أو ذاك.

عندي أن تلك النظرة السوداء الظالمة ـ إذ يمر عليها الفنّان، ليست إلا حصيلة تراكمات (الأنانة) التي ابتكر لها فلاسفة علم النفس اسم (سوليبسيزم) (Solipsism) التي تقول: لا وجود لشيء في حياة الإنسان إلاّ (الأنا). فهو يرى الحياة بمنظار هذه (الأنا) التي ترى أن الجمال، والبراءة والطهر. . . وما إلى ذلك من معاني السمو وإبداع الخالق، كلها تنحصر فيه هو، بمفهومه ومنطقه الأناني الخاص، الذي يرفض أن يكون لهذه المعاني وجود في (غيره هو) وبالتالي فلا وجود لها من الأطفال، أو أن وجودها فيهم، ليس أكثر من قناع يخفي وراءه المكر والخداع واللؤم.

ولم يكن صديقي الذي أتحدث عنه هو الوحيد أو الفريد في هذه (الأنانة). . . إذ وجدت فيما قرأت من أعمال الشاعر الفنان (عبد الرحمن شكري) أحد أفراد الثالوث الذي حرّك موجة الدعوة إلى تجديد الشعر العربي، في مواجهة كلاسيكية شوقي وحافظ. . . وجدته يقول بـ (إني أرى على وجوه الأطفال ما تكنه نفوسهم من بوادر الجشع، والبخل واللؤم، بل والقسوة أيضاً. . . ولكن ضعفهم وقلة حيلتهم تسدل على هذه الملامح حجاباً مضيئاً رقراقاً كالسراب).

وفي سيرة حياة هذا الشاعر الكبير، أنه انطوى على نفسه، واختار العزلة عن المجتمع سنين طويلة. . . ولا شك أن العوامل التي اضطرته إلى هذا الموقف من المجتمع ككل، هي قبل كل شيء الشعور بالذات ـ في مواجهة حملة المازني والعقاد عليه ـ وهو نفس شعور (الأنانة) بتراكماته، إلى حد تعذّر معه عليه أن يرى غير نفسه هو، وحدها، ولا شيء غيرها.

حين قرأت هذا الذي كتبه الفنّان الشاعر عبد الرحمن شكري، عن وجوه الأطفال، مر بذاكرتي صديقي الفنّان، ومعه غيره ممّن استغني ـ ويستغني القراء ـ عن ذكر أسمائهم، الذين لم تكن نظرتهم تختلف كثيراً عن نظرة المرحوم عبد الرحمن شكري، وليس فقط بالنسبة للأطفال وإنما بالنسبة إلى الجمال، ومعاني السمو وإبداع الخالق، حتى في الشجرة، أو الحقل، أو السماء الصافية.

كانت حجة بعضهم أنهم (تجريديون)، يرون الأشياء في هيكلية بنائها، التي لا تختلف مهما تعددت الشخوص، والمخلوقات. . . فهم قبل أن يكرعوا من كؤوس الإبداع وروعة الجمال يخترقون (الأديم). . . يسلخون هذا الأديم، لتظهر لهم الأمشاج والعروق، وخلفها الهيكل العظمي بكل بشاعته المقررة ومبعث الرهبة فيه.

ولي أن أتساءل، ويتساءل معي القراء، كيف يتفّق هذا التجريد، مع طبيعة الفنّان. . . مع ما نفترضه له من المشاعر الرقيقة، والإحساس المرهف، والتفاعل الدائم مع موضوع الجمال.

واسمع بعضهم يجيب: تلك حقيقة الحياة، التي تراها عين التجريد، إذا كان صاحبها فنّاناً أصيلاً وأجد نفسي أرد، بأنها عين (الأنانة) (Solipsism) التي تقول: (لا وجود لشيء غير الأنا).

الزحام. . . وطريق إلى المجد

ليس بيننا من لم يجرِّب الشعور أحياناً بـأنه يدب في مسيرة الحياة وحيداً. . . ويتخبط في مجاهل الصحراء، ولا من يُرشده إلى الجادة. . . نحو الهدف والحقيقة هنا عجيبة. . . مذهلة.

وهي: أن أهم العقبات التي تعرقل مسيرتك. . . هي الزحام. . . التزاحم في الدرب، رغم الشعور بأنك تسير وحيداً. . . وتتخبط في مجاهل الصحراء، ولا من يرشد. . . ولا من يسمعك. . . أو تسمعه.

ومع ذلك فهو الزحام. . . التزاحم في الدرب. . . ملايين البشر يسيرون نفس الدرب. . . وكل منهم يعيش نفس الشعور. . . الشعور بأنه يدب في مسيرة الحياة وحيداً.

فلست وحدك إذن أمام العقبات والصعاب

هناك الملايين. . . ألوف الملايين، يغذوّن السير مثلك. . . وفي نفس الدرب. . . وإلى نفس الهدف.

هذا يجعل مسيرتك محفوفة بالأخطار. . . كأي خطر يداهمك وأنت في الزحام

وحين يشتد التزاحم والتَّداقُّ بالأكتاف من حولك. . . قد تشعر بالرهق والضيق، بحيث تتمنى لو يتاح لك أن تستلقي في أي مكان، حتى ولو

كان رصيف الشارع... قارعة الطريق.

ولكن... هنا تبدأ لحظة الصفر... لحظة العد التنازلي في مسيرة الكدح والكفاح... مسيرة الخطر... وهي في نفس الوقت بداية انطلاقك إلى ذروة النجاح.

اللحظة التي تشعر فيها بالرهق... بلحظة الصفر في انهيار قواك... هي نفسها اللحظة التي تتقرر فيها قدرتك على أن تصل إلى الهدف.

ليس هناك من يمنعك أن تستلقي حيث تشاء... ولكن سترى أقدام الملايين تمشي... ولن ترى وجوههم... فهي متجهة إلى هناك... إلى الهدف.

وتستطيع أن تقاوم كل التراخي... كل الرهق والخور في عزيمتك، وأن تواصل المشي في الزحام... وعندئذٍ، سوف تجد أن كل خطوة ـ مهما تعثرت ـ مهما أعاقها الزحام تقرّبك من آخر الشوط... من الأمل الكبير.

ومن يدري... فقد لا تطور بك الطريق... قد يصاحبك ما لم تكن تحلم به من التوفيق؟!

واقرأ سير العظماء في تاريخ الإنسان لترى أنهم... هكذا شقوا طريقهم إلى القمم والذرى.

ابتسامة اليوم

كان اليهودي الشرقي ـ حزقيل ـ واقفاً يتسول... بينما كان أعضاء الكنيست يدخلونه من الباب الكبير... واقترب أحد الواقفين مع المتسول يقول:

ـ انظر هذا شامير نفسه... أسرع... استعطفه أن يعطيك شيئاً. فهو رئيس الوزراء واعترض حزقيل طريق شامير... ولكنه سرعان ما تراجع، ووجهه أصفر كالميت.

وسأله صاحبه:

ـ ماذا؟؟؟ ماذا بك تكاد تموت... ألم يعطك شيئاً

ـ يعطيني؟؟؟ يا لك من غبي.

ـ ماذا تقصد؟

ـ ما كدت أستوقفه... وقبل أن أمد يدي أو أنطق بكلمة سمعته ينق كالضفدع الكبير وهو يقول:

ـ أسرع... أيدك على شيكل... لبناء هيكل سليمان.

هوى النفس

وأعتقد أنه لا يحتاج إلى تعريف. يكفي أن نعلم أنه حين يلتف على العقل، ويطوق أحكامه يصبح هذا العقل أسير هذا الهوى يسيّره الهوى كيف يشاء... فذلك واقع كل أسير محكوم... والحزن، أو هو المؤلم الرهيب، أن يصبح هذا العقل شر أعداء الحق.

وما أكثر ما دمّر الهوى، من معطيات الحضارة، من فكر وجمال... بل وما أكثر ما أسقط من معاني العدالة والحق، فأفسح المجال واسعاً ممهداً لظهور الطغاة، وحملة كرابيج الظلم والاستبداد والاستعباد، في المجتمعات البشرية، التي ما زلنا نجهل سر خضوعها الذليل وإذعانها الخانع المستسلم؟! مع أنها ـ وحدها ـ تملك القوة التي تستطيع أن ترفع عن كاهلها كرابيج الطاغية، وأثقال استبداده وفجره.

كل ما نراه أو نسمع به، من صراع شرس بين الحق والباطل... بين الخير والشر... ليس في حقيقته إلاّ صورة من صور الهوى... هو النفس.

ولا ندري كيف عجز العلم، طوال تاريخ البشر على هذا الكوكب، أن يستكنه الطريقة التي ينتصر بها هذا الهوى... هوى النفس... على العقل... وعلى منطق الأشياء... بل حتى البديهيات.

الأغرب من ذلك، إنه كالنار، يجفّف القلب. . . وكالعلَق يمتص من الوجدان أجمل ما فيه من رحيق المشاعر النبيلة، ونوامي الحب والحنان. . . وكالمعول يدمّر ويهدم معاقل الإحسان والرحمة. . . وكالغول يأكلُ كل شيء. . . حتى شرف الكلمة، وكبرياء النزاهة، وكرامة الصدق والخلق النقي.

ولا سبيل للتخلص من شرور هوى النفس هذه. . . من هذا الوباء الرهيب، إلا بأن يحاول المرء ما استطاع، أن يفتح في القلب، وفي العقل نوافذ مهما كانت صغيرة، تطل على آفاق ومكامن الخير والقيم والمثل التي جاءت بها رسالات السماء. . . وأن نتعمّق ما جاء في كتاب الله الكريم لنرى من آفاق الخير، والحق، والعدل، والإحسان، ما لو استوعبناه وعقلناه، لحققنا من الانتصار على هوى النفس. . . وما أكثر ما يحيط بنا من الشر والبلاء، من إفراز هذا الهوى.

كلّما اتسعت أمامنا هذه الآفاق. . . كلّما ضاقت الثقوب التي يتسلّل منها هوى النفس.

وكلما أتيح لك أن ترى حقيقة الحياة، وكم هي تافهة. . . تطفئها هبّة من قدر محتوم، كلّما تضاءلت، وتراجعت، فرص انتصار هذا الهوى.

بهذا وحده يتبلور معنى الآدمية الخليقة بالحياة. . . كما أرادها الله.

ابتسامة اليوم

أرسل «كوهين» ولده، ليشتري له قطعة جبن. . . فاشتراها الولد بسعر الكيلو عشرة «شيكلات».

وما كاد يسمع كوهين «عشرة شيكلات» للكيلو، وليس للقطعة منه، حتى صفع جبهته بيده وصاح:

عشرة شيكلات... عشرة يا ظالم

ـ ولكن القطعة التي اشتريتها، لم أدفع إلاً شيكلاً واحداً فقط

ـ ولك وجه تتكلم... وصوت يجادل... إن كنت لا تستطيع أن تعيدها... فضعها في الثلاجة... وإياك... إياك أن تذوقها... قبل أن تنخفض الأسعار.

* * *

زار أحدهم مستشفى للأمراض العقلية... ودخل حجرة رأى فيها مريضين كل منهما مستلقٍ على سريره... فسأل الطبيب عن سبب مرض أحدهما فقال الطبيب:

ـ لقد خطب فتاة... فرفضت أن تتزوجه فأصيب بحالة جنون.

فسأل الزائر عن المريض الآخر فقال الطبيب:

ـ أمّا هذا فهو الذي تزوج تلك الفتاة.

العلاقة العضوية. . . بينهما

والضمير إلى أميركا وإسرائيل، اللذين لم يعد مخلوق في العالم يجهل أن العلاقة بينهما بلغ من تطورها وتلاحمها، أنها أصبحت (عضوية). . . بمعنى استحالة الفصل بينهما، حتى على المدى الطويل.

ولكن، (كيف)؟ وما هو سر التلاحم إلى هذا الحد؟؟؟

من أهم ما يجب أن يوضع في الحساب والتقدير، أن (إسرائيل) هذه التي احتلت الذي احتلّته من فلسطين، ليست في الأرض التي احتلتها، وأقام المتآمرين أميركا وبريطانيا دولتها باسم «إسرائيل».

إسرائيل الحقيقية القادرة على المستحيلات. في توجيه سياسة أميركا، هي الموجودة في الولايات المتحدة، وفي نيويورك على الأخص.

فهي فعلاً، (دولة داخل الدولة).

دولة لها رجالها، ليس فقط، في سوق المال والاقتصاد والإعلام، بل حتى في أهم وأخطر المرافق وأعني، (البنتاجون) ووكالات الفضاء ومصانع الصواريخ. . . ثم في وزارة الخارجية بكل الخفي، والظاهر من أسرارها، إضافة إلى الأمم المتحدة، ومجلس الأمن ثم الاستخبارات والأمن القومي.

ورجالها هؤلاء، أمريكيون جنسية عريقة، بحكم أنهم متحدرون من آباء يهود وأمهات يهوديات، إن لم يكن منذ تنامي الولايات المتحدة

ونشأتها، فمنذ مئة وخمسين عاماً على الأقل وهي الفترة التي اشتد فيها ضغط روسيا وأوروبا على اليهود، بحيث اضطروا إلى الجلاء والهجرة إلى البلد الذي ظلّت تهاجر إليه أفواج من مختلف شعوب الأرض.

ولكن شعب الولايات المتحدة ـ وهو مكون من شعوب مهاجرة أصلاً ـ لم تتكون في نفسه تلك العقدة المتوارثة والراسخة في قلوب الأوروبيين ـ والروس منهم خاصة ثم الألمان ـ وأعني عقدة كراهية (اليهود) واحتقارهم، والرغبة الملحة في الخلاص من وجودهم بينهم، إلا في حواريهم ومناطق سكناهم الخاصة بهم دون غيرهم... ومن هنا يكاد لا يوجد إحساس الحقد أو الكراهية عند الأمريكي... ومن هنا أيضاً استطاع اليهود أن يتسلَّلوا إلى جميع مرافق الحياة دون عوائق من أي نوع.

والظاهرة التي لم يتنبه إليها الأمريكي إطلاقاً وحتى اليوم، هي أن اليهودي، ـ حتى عظماءهم ـ لا ينسى أبداً أنه يهودي، وأن له (أرض الميعاد) التي يعيش ويموت بحلم العودة إليها لبناء هيكل سليمان... وملك سليمان. ولذلك فاليهودي في أميركا هو في الحقيقة (مواطن) إسرائيلي... لليهود أينما وجدوا، ولإسرائيل بعد أن أصبحت دولة في فلسطين بالطبع.

ومن الحقائق التي يجب أن لا نتجاهلها، أو أن نستهين بها، أن اليهودي في أميركا حريص على التفوق، ليس في التعليم فقط وإنما في التصرف في المال وأسواق المال... ولكنه في التعليم، قدّم أكابر العلماء في الطبيعة والرياضيات العالية، ويكفي أن نذكر منهم (آينيشتاين)، الذي ولد ألمانياً، وعاش بين ألمانيا وسويسرا، ونال جائزة (نوبل) أيام حياته في أوروبا... ثم عندما طارده هتلر وجرّده من ممتلكاته، هاجر إلى أميركا،

بنظرياته التي لا تزال تمد علماء الفضاء، والذرّة، بالأسس التي ينطلقون منها إلى معظم المخترعات والمبتكرات في أسلحة الدمار والدفاع والهجوم الخ.

ولا حاجة بنا إلى ذكر كيسينجر، فقد وطّد له نيكسُن، ثم دراساته أصلاً في (هارفرد) المكانة العالمية، التي لا يزال يتمتع بها، وهو كما نعلم يهودي ألماني هاجر به أبوه إلى أميركا بعد الحرب العالمية الثانية.

ولا بد أن نضيف إلى عناصر الدولة اليهودية ـ داخل الولايات المتحدة الأميركية ـ عنصراً آخر لا يقل خطراً، عن العناصر الأخرى، وهو (المرأة) اليهودية... ولا أقف عند نجمات التمثيل والسينما في هوليود، وإنما أتجاوزهن إلى علب الليل، والمسارح، والملاهي الليلية بأنواعها ثم المطاعم الكبرى، ومثلها كبريات الفنادق... المرأة اليهودية هنا، هي منبع الجمال والفتنة، التي تعصف بألباب الرجال... بحيث لا يشعر الأمريكي، بمعنى للحياة أو طعمها أو نكهتها إلاّ بوجود هذه الجميلة اليهودية حوله في كل ملاذ للراحة أو العبث.

إن هذه المرأة، من أعظم وأخطر مكونات الدولة اليهودية داخل الدولة العظمى ـ الولايات المتحدة الأمريكية.

ومن هنا لنا أن نقول دون أي تجاوز، إن إسرائيل ليست في فلسطين فقط وإنما كيانها الأعظم في أميركا.

فالعلاقة بينهما عضوية... لا سبيل ولا أمل في انفصامها، إلاّ بكارثة علمها عند الله، ولكن ليست كارثتهم في ألمانيا النازية بعيدة عن الأذهان.

ابتسامة اليوم

قالت الزوجة لزوجها. . . وهي تراه لا يتكلم، ولا يلتفت إليها ـ أراك ساهماً. . . في أي شيء تراك تفكر الآن. ؟؟؟

ـ المرأة الذكية هي التي تستطيع أن تدرك، ما لا يقوله الزوج.

قالت: والرجل الذكي؟؟؟

ـ الرجل الذكي لا يتزوج أصلاً يا حبيبتي.

حسن الخط ـ والآلة الكاتبة

ليس وحده الذي دار بيني وبينه نقاش عابر (ومكتوب) عما عانيته من تعثر في قراءة رسالته، وإنما هو واحد من عشرات أو مئات الألوف من أبنائنا، الذين يكتبون بما أصفه ـ مازحاً، بخط الدكاترة الذين يكتبون وصفاتهم بخط لا يمكن أن يقرأه إلاّ الصيدلي. . . وأنا أعتبر قدرة الصيدلي على قراءة خطوط الدكاترة، نتيجة لتدريب طويل تلقاه مع المواد التي تلقاها في علم الصيدلة.

وتهون مشكلة الكتابة بخط يصعب على مثلي قراءته، إذا انحصرت بين اثنين ـ صديقين مثلاً ـ يتكاتبان، أو حتى بين ثلاثة أو أكثر. . . ولكنها تصبح مشكلة بالغة التعقيد ولها وزنٌ من خطورة، حين نجدها في نص حكم محكمة شرعية، أو نص توكيل، أو حجة إفراغ أرض تصدر عن دوائر كتاب العدل. . . فالحكم الشرعي في قضية من القضايا، يحمل وزنه الخطير لأنه حكم شرعي، ونص التوكيل، أو الصك الشرعي بملكية أو بيع أو رهن أو تنازل الخ. . . يحمل نفس الوزن أو ربما الأخطر، لأنه يصدر بإثبات حقوق على طرف لطرف من متعاملين في بيع وشراء أو حق لمدعٍ به في وقفٍ أو نحو ذلك من الصكوك.

ولا أجد في نفسي حرجاً أو تحسباً أن أتوجه بهذه الكلمة إلى صاحب

الفضيلة معالي وزير العدل الشيخ محمد بن إبراهيم بن جبير، راجياً أن يأمر بالاطلاع على معظم ما بأيدي جمهور المتقاضين، من أحكام شرعية، أو صكوك ملكية أو توكيلات، ليحاط فضيلته علماً بأن قراءة معظمها يكاد يتعذّر إلا بعد كثير من الجهد ومحاولة «تصوُّر» الحرف أو الجملة المكتوبة بخط اليد.

صحيح، أن كتابة هذه الوثائق بخط اليد تقليد قديم التزمت به المحاكم ودوائر كتاب العدل. وربما كان هذا هو السبب في عدم تجاوزه أو العدول عنه، ولكن معالي الوزير الجليل قد اطلع دون شك على خطوط كتاب الأحكام والصكوك، قبل أربعين أو خمسين عاماً، . . . إني أرى بعضها بين محفوظاتي، فأجد أن كتّابها كانوا يعنون أشد العناية بحسن الخط، وصحة الإملاء إلى الحد الذي يجعل من الوثيقة (تحفة) من تحف (حسن الخط). والفرق كبير جداً بين خطوط كتاب الأحكام والصكوك في هذه الأيام، وبين تلك التي نعرفها قبل أربعين عاماً.

ولا أستبعد إطلاقاً أن معالي الوزير لا يرى ما يمنع الاعتماد على الآلة الكاتبة (الحديثة) التي تستغنى عن (مزيل الحبر) لتصحيح الأخطاء التي قد تحدث نتيجة للسرعة. وأرجّح أن بقاء تقليد كتابة الأحكام والصكوك باليد، وقد أوشك أن يصبح مثل خط الدكاترة، هو الافتقار إلى (كتّاب الآلة الكاتبة). والواقع أن كتّاب الآلة الكاتبة، قليلون جداً في المملكة، حتى لقد سمعت أن معظم كتّاب الآلة في دوائر ومرافق الدولة مُستقدمون أو متعاقدون من أبناء الدول العربية الشقيقة. . . بل سمعت، أن بعض دول الخليج، تدفع لكاتب الآلة (الجيد) راتباً يصل إلى أربعة أو خمسة آلاف ريال، إضافة إلى مميزات العقد أو حوافزه ومنها السكن والعلاج الخ.

ومعالي رئيس ديوان الخدمة المدنية، يعلم الكثير، عن الأعداد الضخمة من طلاّب الوظائف، ومن حملة مؤهلات جامعية، الذين لا يجد الديوان لهم وظائف إلاّ في بلدان أو مناطق نائية أو بعيدة عن الحواضر الكبرى... فهل يتعذّر أن يقترح معاليه افتتاح معاهد للتدريب على الآلة الكاتبة العربية والإفرنجية، وأن يتاح لمن يتم تدريبه ويحقق النجاح بالنسبة المطلوبة، أن يوظّف، وبراتب أكبر من الراتب المقرر للمؤهل ليحل محل العشرات أو هم المئات من الذين يستقدمون من البلدان العربية الشقيقة.

أعتقد أن المحاكم، ودوائر كتاب العدل وحدها سوف تستوعب مئات من هؤلاء، وفي الحواضر الكبرى، وهذا إضافة إلى المئات في الدوائر ومرافق الدولة على أوسع نطاق.

ثم هناك، مشكلة التسجيل في (الدفاتر) الضخمة في المحاكم ودوائر كتاب العدل، التي يمكن أن تستبدل بأجهزة الميكرو ويف والكومبيوتر، التي لن تشغل أكثر من خزانة صغيرة تستوعب وثائق ومستندات عشرات السنين.

ولكن هذه خطوة متقدمة، وأكتفي اليوم بالآلة الكاتبة فقط... ولا شك عندي أن معالي وزير العدل الجليل، يرحّب بالرأي، الذي أقدمه من منطلق إيماني بضرورة التجديد والتطوير.

ابتسامة اليوم

قال أحد هواة الغناء والطرب، بعد أن أدّى أغنية بصوته، لصديقه

ـ هل لاحظت، كيف كان صوتي يملأ أرجاء القاعة؟؟؟

ـ فعلاً... والدليل أن أكثر المستمعين قد خرجوا ليفسحوا المجال لصوتك.

الاستجابة لمشاعر الحنين

ممّا يتعذّر، إن لم يكن مستحيلاً، أن تتيح لنا وسائل الإعلام المقروءة أو المسموعة، أو المرئية، أن نرى ما يقع في الألوف من المنازل، في طول المملكة وعرضها وهي تستقبل الذين صدر أمر خادم الحرمين الشريفين، عاهلنا الحبيب، الملك فهد بن عبد العزيز بإطلاق سراحهم من السجون، خلال هذه الأيام أو الليالي العشر من شهر رمضان. . .

أن نرى الأمهات يحتضن أبناءهن، ودموع الفرحة، في عيونهن، أو أن نرى الزوجات ومعهن الأطفال، أولاداً وبنات، يتزاحمون على الأب، الذي يدخل عليهم، بعد ليال وأيام، انقضت، وفي القلوب مشاعر الحنين، وفي العيون دموع الرجاء، فإذا بالفهد الحبيب، وفي قلبه أسمى مشاعر الأبوة، وأنبل ارتعاشات الضمير، وأصدق وأرق نبضات الوجدان، تستجيب لمشاعر الحنين، ولحرقة دموع الرجاء، فيطلق سراح الأب، ليدخل على أهله وأطفاله. . . يحتضنهم، وكل منهم يضع رأسه على الصدر الذي عاد بعد غياب، وعلى الألسنة والشفاه، ضراعتها إلى الله سبحانه أن يديم لهم، حياة فهد بن عبد العزيز وأن يمنّ عليهم، ومعهم الملايين من المواطنين، بأن لا يحرمهم من نظرة هذه الأبوة التي يندر نظيرُها، في العالم على رحبه، لأنها الأبوة المثالُ والقدوة، وليس فقط بما يتوالى ويتلاحق من عطائها في يوم أو شهر، أو سنة، وإنما على مدار

الأيام والسنين في عهده الحافل بما يؤكد ـ وباستمرار ـ تلاحم مشاعره وأحاسيسه، ونبض ضميره ووجدانه، مع مشاعر وأحاسيس كل فرد، على هذه الأرض، بكل ما أسبغه الله عليها من القداسة والطهر وما رسّخه سبحانه في نفوس أبنائها من الكرامة وعزّة النفس، والإيمان العميق بعقيدة التوحيد، يرفع العاهل العظيم رايتها في الآفاق، مذكراً، بأن كل ما أغدق الله علينا من النعم، إنما هو عطاء هذه العقيدة، قبل كل شيء.

وحين يتعذّر أو يستحيل على أجهزة الإعلام عندنا أن، تتيح لنا وللعالم رؤية الكثير، الذي تحقق، على يد العاهل الحبيب، فإن الذي لا يتعذر، ويسهل أن يسطع إشعاعاً يصل إلى كل ذي بصر وبصيرة، هو (الحُب) الذي كان ولا يزال الأساس القائم بينه وبين كل فرد، في كل أسرة من المواطنين. وهو حب نادر المثال أيضاً، إذ ما أعجب ما تسمعه، من مواطن أو مواطنة، في المملكة، حين يقول ببساطة وعفوية، وهو يواجه مشكلة ـ أي مشكلة ـ فهد بن عبد العزيز، موجود والحمد لله، أبرق إليه، وسترى أن عنده ـ بعد الله الحل والفرج. . . وتلك حقيقة، إذ ما أسرع أن يتلقى المواطن الرد على برقيته أو خطابه، وفيه الاستجابة السخية الكريمة، ما لم يكن المختص بالحل هو (الشرع) أو (القضاء).

وأقرأ منذ أيام، أن رئيس الإدارة الروحية لمسلمي الاتحاد السوفيتي، (المفتي طلعت تاج الدين)، قد صرّح لمراسل الأهرام، أنه قد تلقى هدية قيّمة من خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز وهي مليون نسخة من المصحف الشريف، وسوف يتلقى دفعات أخرى بالطائرات خلال الربيع والصيف من هذا العام، وسوف يتم توزيعها على المسلمين في الاتحاد السوفيتي، وكلهم متعطشون، إلى اقتناء نسخة من الكتاب الكريم.

وليس الخبر جديداً عليّ، إذ سبق أن نشرته الصحف عندنا، ولكن الجديد فيه هو أن يصرّح رئيس الإدارة الروحية لمسلمي الاتحاد السوفيتي، بخبر الهدية القيِّمة، مما لا يعني أقل من أن ملايين المسلمين في هذا الجزء من العالم، قد سمعوا بالهدية القيِّمة، وبما سوف يتلاحق تلقيه منها في الأيام المقبلة.

ويحسن بي، وأنا أقرأ هذا الخبر أو التصريح، أن أقف أمام مشروع طباعة المصحف في المدينة المنورة، وقفة تعظيم فيها إلى جانب الإعجاب، والتقدير، نظرة استكشاف للمستقبل البعيد للعلاقة والوشيجة التي سوف يرسّخها المصحف الكريم ـ وهو يتواجد في أيدي المسلمين ـ بينهم، وبين أرض الحرمين الشريفين اللذين يقوم الملك فهد بن عبد العزيز بأضخم وأعظم توسعتين لهما في تاريخهما عبر القرون.

ومشروع طباعة المصحف، عظيم بكل معيار، ونادر النظير والمثال بكل معيار أيضاً، إذ يتجاوز ما تتم طباعته، الملايين من النسخ في كل عام، إلى جانب طباعة معانيه بعدة لغات، وهذا إلى جانب النسخ الصوتية لمشاهير القراء، في ملايين من أشرطة الكاسيت.

ترى هل يدرك من يسمع عن المشروع، وهو بهذه الضخامة والشمول، نظرة خادم الحرمين الشريفين إلى وسائل خدمة العقيدة السمحة، ومنها هذا المصحف الكريم الذي يقدّم هدية لكل من يطلبه من المسلمين في جميع بقاع الأرض؟؟؟ إنها نظرة الملك المسلم المؤمن إلى مسؤوليات يلتزم هو بها لخدمة العقيدة، ودعم الوشائج بين المسلمين. . . نظرة ضمير ولهفة وجدان، ونبض قلب عامر بالإيمان.

القوة الأعظم. . . ومفهوم الحضارة

من المؤسف حقاً أن ينحصر مفهوم الحضارة عند إنسان العصر، فيما تملكه قوتان ظهرتا بعد الحرب العالمية الثانية، واصطلح العالم على تسمية كل منهما باسم أو لقب (القوة الأعظم). . . وما تملكه هذه (القوة الأعظم)، أمريكية أو سوفيتية هو وسائل التدمير والتخريب، بمستوى سلَّم العالم كله بأنّه القادر على أن يمحو عن سطح الأرض، مدناً، وحواضر، بل ربما قارات بأكملها. وبهذا استطاعت كل منهما أن تتمتع بسيطرة وعبث بمقدرات البشر، فكان من الطبيعي أن يكون المفهوم الحضاري «الجديد (للقوة الأعظم) هو مفهوم التوحش الذي تجاوز كل صور التوحش في جميع عصور وأحقاب التاريخ.

وهو توحّش عاد بالبشر إلى حياة الغاب، التي كان يعيشها قبل ملايين السنين، رغم التقدم العلمي والتقني. . . وما ابتكره العقل من وسائل الترفيه والرغد. . . ورغم كل ما يسطع في المدن والعواصم الكبرى ـ بل والمدن الصغيرة والقرى ـ من الأضواء.

حياة الغاب، قبل ملايين السنين، ولكنه اليوم غاب (علمي وتقني)، يعصف بحياة الملايين، ويهدر دماءهم لتروى بها الرمال، بلمسة واحدة خفيفة على (زر).

ولكن حين تظهر هذه الصورة البشعة لمفهوم الحضارة أو لمفهوم (القوة الأعظم)، تشرق إلى جانبها صورة أخرى لمفهوم الحضارة، الذي غاب عن الأذهان، أو حجبته سحب الدخان أو ما شبّهوه بنبات (الفطر) أو (المشروم Mushroom).

ومفهوم الحضارة الذي غاب عن الأذهان، في هذا الضباب والدخان، هو المفهوم الذي جاءت به رسالات السماء، وفي مقدمتها كمالاً وسمواً، ونبلَ أهدافٍ، لمصلحة الإنسان في دنياه وآخرته، ومحققة لتطلعه الذي لم يتوقف قط أو ينقطع، هو عقيدة الإسلام السمحة، وشريعته الغراء كما جاء بها القرآن... كما جاء بها هذا التنزيل المحكم، وكما أرشدتنا إليها سنة نبينا رسولِ الله محمدٍ صلوات الله وسلامه عليه.

ونحن، أبناء هذه الأرض الطاهرة... الأرض التي هبط فيها الوحي على رسول الله، ومنها أشرق على الدنيا مفهوم الحضارة، أخلاقاً في نظرة الإنسان إلى أخيه الإنسان، وسلوكاً يقي المؤمن بها أخطار الانزلاق في أوحال الرذيلة والفجور، وعملاً، هو طريق الرزق الحلال... نحن نتحمّل مسؤولية الحفاظ على مثل العقيدة ومبادئها وقيمها، وقبل ذلك مسؤولية الدعوة الصادقة إلى الله نرفع صوتها جهيراً في إرجاء الأرض، يوقظ الضمير الإسلامي من إغفاءته ويعمل على توحيد صفوف الأمة الإسلامية، في مواجهة الغصب، والقهر والعدوان أينما يكون في المكان والزمان. ويتم لنا بهذا الموقف، أن نواجه كل ما يتمخض عنه مفهوم الحضارة لدى (القوة الأعظم) من أساليب ووسائل القضاء على الحضارة، ككل، بلمسة (زر) التدمير الشامل، والأعمى الذي لا يرى المصير الرهيب، الذي انتهى إليه مفهوم الحضارة في عقله ومنطقه، ولا أقول (ضميره ووجدانه) إذ لا وجود إطلاقاً لهذا الضمير والوجدان.

وبعد فرسالات السماء، وفي مقدمتها جميعاً رسالة الإسلام، حملت، ولا تزال تحمل المفهوم الحقيقي والطبيعي لحضارة الإنسان. . . ومن هنا فآن لنا أن نشعر، وأن نعمل على أن تكون حضارتنا في عقيدتنا، هي (القوة الأعظم). . . التي تستطيع أن تخرج بالإنسانية من حياة الغاب في هذا العصر. . . وفي كل عصر على امتداد الزمان، وفي كل مكان.

علّقها على شفتيك

كثيراً ما نواجه ظروفاً، يصعب علينا معها حتى الابتسام... لأن هناك شيئاً، أخطر من وحش يكمن أحياناً في أعماق نفوسنا... يمتص بشراهة متوحشة آخر قطرة من قدرتنا على الابتسام.

نستطيع أن نتبيّن ملامح هذا الوحش أحياناً... ولكن كثيراً ما يختفي ويختبىء في الأعماق أو الأنفاق المظلمة، فلا نراه... ولكننا نشعر بمخالبه وأنيابه تنهش كل أسباب الدعة في حياتنا... بل تسدل على الحياة بكل مباهجها، ستاراً من الشَّوَه والضباب الأسود الكثيف.

وتلك حالة قد لا يجانبني الصواب، إذا زعمت أن الكثيرين يمرون بها ويجربونها... وأخطر ما فيها هو الاستسلام لها.

ولست ممّن يدّعون القدرة على التحليل والعلاج النفسي... ولكني كمجرب فقط، أستطيع أن أزعم أن أخطر ما في هذه الحالة هو الاستسلام لها. ولذلك فأهم ما ينبغي علينا، إزاءها هو مقاومتها... والاستمرار في المقاومة حتى عندما نشعر أن مخالب هذا الوحش وأنيابه تخفّف من نهشها وتمزيقها.

هذا الوحش، هو رواسب العديد من متاعب الحياة ومشاكلها، تتجمّع وتتراكم في الأعماق ثم يتكوّن لها شكل الوحش وفعاليته الرهيبة التي

تمضغ كل ما يتاح من متع الحياة ومباهجها.

قلت: علينا أن نقاوم... ولكن كيف؟؟؟ وتلك هي المسألة فعلاً.

في تجربتي المتواضعة، أن كل ما نحتاجه ـ ببساطة ـ هو أن (نصطنع) الابتسامة... أن نبتسم، وأن نؤكد لأنفسنا أننا على وئام مع ظروف الحياة، كيفما كانت، ومهما بلغت من التعقيد، إذ ماذا بعد؟؟؟ كل ما سوف تتمخض عنه هذه الظروف أو هذه المشاكل، لن يصل إلى أكثر من طبيعة الواقع في هذه الحياة.

قابل كل صديق ـ وحتى كل خصم ـ بابتسامة عريضة مهما كلّفك ذلك من جهد... علّقها على شفتيك، كما تعلّق (النظارة) على أنفك وعينيك.

لا شك أنك ـ في أول الأمر ـ ستشعر أنها ثقيلة باهتة... لا روح فيها ولا حياة... ولكن سرعان ما يذهلك أن تكتشف أنها عملية (حَفْر) ناجحة... عملية (حَفْر) في الأعماق البعيدة من مغاور النفس.

وهذه الابتسامة، لها القدرة على أن تحفر ينبوعاً تتدفّق منه الابتسامات بلا حساب.

وسرعان ما ترى أن ابتسامتك تغري الذين تعاشرهم وتعايشهم من أهل وولد وأصدقاء بأن يبتسموا هم أيضاً.

جرّب هذه الطريقة، وعندما تجيد ممارستها، سوف ينهزم هذا الوحش المختبىء في نفسك... سينزع مخالبه من مغارسها... ولا ندري أين يذهب... فليذهب حيث يشاء ولكن لتبقى الابتسامة معلّقة... أو نابعة من الأعماق نفسها... والأرجح أن ذلك الوحش، إذا ذهب، فلن يعود.

ضوء في السبيل إلى الحضارة

ترى... ما هي القوى الكامنة في كثير من المبادئ والمثل والقيم، التي جاءت بها رسالات السماء؟؟؟ رسالات الرسل والأنبياء؟؟؟ ما هي هذه القوى المكنونة التي يتعذّر دائماً أن تهتز أو تنهزم، في نفوس المؤمنين بها، مهما اشتدت ضغوط الحياة، ورغم ما مرّ عليها من دهور وأزمان، إلى جانب ما عانته من مقاومة ورفض، وقهر وطغيان؟؟؟

ولنأخذ (استقامة السلوك) مثلاً... إنها ممّا دعت إليه ورسّخته في النفوس رسالات السماء، وتوالى الجهد والجهاد للتذكير بها والدعوة إلى التزامها، يقود مسيرتها قوافل الهداة والمصلحين، في كل مكان وزمان... إنها من مبادئ الأخلاق الكريمة التي قلّ أن تجد من يجادل في ضرورة التمسك بها، حتى ولو كان الذي يجادل عاجزاً، أو متعثراً في الالتزام بها. ولا يزال الذين يلتزمونها قانوناً لحياتهم، هم الذين يربحون الجولة في نهاية الشوط.

ثم... هذا (الصدق) الذي نتوخاه، فيمن نتعامل معهم من الناس على أوسع نطاق وقد نخفق في أن نجد من يلتزمونه على صعيد التعامل اليومي في الحياة... ولكن لن تجد من يشك في أنه واحد من أسمى الفضائل التي دعت إليها رسالات السماء... وظل يدعو إليها الهداة

والمصلحون، طوال عشرات القرون من حياة الإنسان على هذه الأرض... والأعجب أن الذين يتحلون بفضيلة (الصدق) هذه، يتقدمون المسيرة إلى الأفضل والأكمل والأجمل ويندر أن تجد لهم عشرات، رغم كل ما يعترض سبيلهم من متاعب ومصاعب وعقبات.

والقوة الكامنة في هذه المثل والقيم، وكلّها هدايا رسالات السماء، هي في الواقع الضوء الذي أنار السبيل إلى (حضارة) الإنسان عبر الأجيال والقرون... والأعجب الذي لم يصل الإنسان إلى استكناه السر فيه، هو أنها لا تزال لها القدرة على الصمود، حتى في مواجهة كل ما انزلق فيه المنطق العقلاني من تمرد، ومجانبة مستهترة بهذه الهدايا القيّمة التي عايشها ـ ولا يزال ـ وجدان الإنسان، وضميره، وتعشّقه للخلاص من مخالب وبراثن التفسخ والانحلال، حتى وهو غارق في وحل هذا التفسخ والانحلال.

وليس المهم أن تعرف هذه الحقيقة... جميع من حولك من الناس يعرفونها... وإنما المهم الذي يتنادى دعاة الإصلاح والخير بالدعوة إليه والتزامه ما أمكن، هو أن (نؤمن) بها، وأن لا يتسلل إلى نفوسنا الشك في صحتها... وذلك لعمري هو السبيل، ليس إلى النجاح في مسيرة الحياة فحسب، وإنما أيضاً إلى تحقيق الذات... تحقيق كرامة الآدمية، في هذا العصر المشحون إلى قمة الرأس أو الأسنان، بعوامل التمزق والضياع، ومنها هذه الهزائم، تضعنا راغمين، أمام قوافل المشرّدين والجياع.

ثم... أيها القارئ العزيز، لا بد أن تحذر أن تقول إنك وحدك في المسيرة، أو في ساحة الصراع... لأن المؤمنين برسالات السماء، ومن تبعهم من الدعاة إلى ما جاءت به من مشاعل أضاءت السبيل إلى الأفضل

والأكمل والأجمل، هم الذين لا يزالون يقودون السبيل إلى مصير الإنسان نحو إنسانيته، رغم كل ما يبدو من استفحال وبطر القوى العظمى، وتلك الدائرة في فلكها من قوى الشر والعدوان.

ولا تقل لي: ـ (أين هم؟؟؟) وأين أثرهم؟... ولكن قل لي: ـ ماذا كان يمكن أن يكون مصير هذا العالم، لو لم يكن هؤلاء، على قلتهم وندرتهم، وراء ما يحول دول الأكثر، والأشد بلاءً... أعني: دون الأعصار...

مستقبلنا مع (زهرة الأرض)

في مقالة بعنوان زهرة الأرض، كان الأستاذ تركي عبد الله السديري، وهو رئيس تحرير هذه الجريدة، يعالج بحرارة كادت تبلغ درجة الاشتعال، رصيد الأحقاد التي تفرز ـ ومنذ زمن طويل ـ هجوم الصحافة في أكثر من بلد، وبأقلام صحفيين وكتّاب ـ بل وشعراء كبار أيضاً ـ على «الإنسان (النفطي) وعصر (النفط)، و«مدلولات جديدة» مثل (البترو دولار) (والإسلام النفطي)، وحول كل ذلك تعقد المؤتمرات «المضحكة» عن النفط، ومنها (مؤتمر النفط والمرأة) و(النفط والطفل)... ومؤتمرات عما فعل بنا (النفط).

وينتهي الأستاذ تركي إلى أن الحقائق على المستوى المادي كانت تعني أن (النفط) هو نعمة الرب التي لا مثيل لها... وقد قلبت حياة الصحارى القاحلة الجافة إلى مزارع ومصانع ومساكن وجامعات... ثم يتساءل: ـ (هذا النفط برصيده الهائل من الإيجابيات العظيمة وبضخامة الدور الذي مارسه، أليس بحاجة إلى إعلام متخصص؟؟؟) ويضيف: (ما مدى اتصال طلبة أقسام الإعلام في الجامعات بهذا المرفق الاقتصادي الهام... كم عدد المتخصصين في الصحف الذين يعالجون شؤونه بدراية واعية؟) وهو يطالب أخيراً وزارة الإعلام ووزارة البترول أن يعملا على إقامة دورات متخصصة عن (النفط) وتكون مشاركة الصحف فيها إلزامية، وتصبح شؤون النفط جزءاً من اهتمام أقسام الإعلام في الجامعات.

ويطيب لي ـ وأنا أقرأ كلمة الأستاذ تركي أن أضيف أن المرحلة التي نمر بها منذ أفاء الله علينا من نعمة بما فتح لنا من كنوز الأرض، تعتبر من أخطر المراحل في تاريخنا الممتد الطويل. . . وإذا كنا لن ننسى ـ ونحن أبناء هذه الأرض ـ أن الله قد منّ ببعثة سيد الخلق، برسالة الإسلام، منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، فكانت هذه الرسالة بداية تاريخ هذه الأمة، بكل ما حفل به من فتوحات وانتصارات، في طول الأرض وعرضها فإن علينا أن نتعمّق ما أسميه اليوم السر الثاني الذي أفضت به هذه الأرض بعد أربعة عشر قرناً من الزمان، بقدرة الله وتوفيقه وإرادته، لتحمّلنا مسؤولية التصرف والسلوك والعمل بما يليق بخصوصية الشخصية التي تتمتع بها هذه الأرض، وهي خصوصية تضفي عليها من الهيبة والجلال، ما تشعر به الأمة الإسلامية، أو ما يشعر به الإنسان المسلم منذ يفتح عينيه فيرى وجه أمه، ويسمع منها وهي تهدهده، ترديدها شهادة أن لا إله إلا الله وإن محمداً رسول الله.

وأجد نفسي ـ ومع طنين هذه الكلمات في مقال الأستاذ تركي ـ أقول: إن الثروة التي منّ الله بها علينا، وحققنا بها كل الذي تحقق من منجزات لا شك أننا قد سبقنا بها حتى أحلام الحالمين، ومنها: «البحر الذي نسبح فيه»، و«الماء الذي نروي منه الأرض»، والإسمنت الذي نبني به الإعمار، [والعطر والإكسسوارات التي تزين أعناق النساء وصالونات المنازل، والسيارات والطائرات]. . . هذه الثروة. . . ومصدرها هذا النفط، تطالبنا ونحن أبناء هذه الأرض بخصوصيتها، وجلال مكانتها، في إطارها نادر النظير، أن نكون نحن المسؤولين عن العمل لتكون الشخصية النموذجية وليس بالنسبة للعالم العربي فقط، وإنما بالنسبة للعالم الإسلامي. وهي لن تكون في مستوى تاريخها ومستوى الثروة التي أنعم

الله بها على أبنائها، إلا إذا أحسنت التصرف بهذا المال، الذي نريد له أن يصنع لنا تاريخاً جديداً يستمد عناصر تكوينه من منطق العصر ومن روح الحضارة، في مفهومها الإسلامي العميق.

والسبيل ـ إضافة إلى التوعية والوعي، اللذين دعا إليهما الأستاذ تركي ـ هو ترسيخ التطلع إلى حقيقة التطور والازدهار والنمو، وحقيقة كل ذلك، هي أن نلتزم بإحسان التصرف في هذه الثروة، وهو التزام لا يقتصر على أجهزة الدولة ومؤسساتها، وإنما يتعداها إلى المواطن الفرد... في حياته وسلوكه، وتعامله، وعمله المنتج، الذي يضيف إلى الثروة قيمتها المضافة بالجهد والكدح، واستهداف الأعظم والأجل اللائقين به كمواطن وكابن بار بهذه الأرض، وهذا التراب.

وقفة مع العيد

ولا أجهل، أن الذين يعيشون هذا العيد، وكاتب هذه السطور منهم بالطبع، يستثقلون أن تكون لأي كاتب نظرة أو وقفة، تخلو من مشاعر الفرحة والبهجة، التي قد لا يوجد ما يمنع أن تبلغ حد (الزغرودة). . . وأعترف أني أميل إلى أن أرضي القارئ، وأن أشعره بشيء من المشاركة الوجدانية، وهو يستقبل كل ساعة من ساعات أيام العيد، بتخطيطه للطريقة أو الوسيلة التي يملأ بها فراغ هذه الساعات، والأرجح، أن أقرب الوسائل هي تلك التي يتيح الوصول إليها، «الظرف الاقتصادي»، الذي يعيشه مع الأسرة، إذا كان قد بلغ المرحلة من العمر التي يكوِّن عندها أسرةً، فيها الزوجة، والأطفال. وعندما أصل إلى «الظرف الاقتصادي» تستوقفني الأخبار التي تنشرها الصحف، عن الأعداد الضخمة، التي يزدحم بها مطار الملك خالد الدولي في الرياض، ومطار الملك عبد العزيز في جدة، من الذين يستقبلون العيد ببرامج الرحيل إلى المنتجعات (المعروفة) في الشرق الأوسط ـ وهذه لمتوسّطي الدخل ـ بينما المنتجعات البعيدة، في أوروبا، وجنوب شرقي آسيا، وربما أميركا أيضاً، تظل من نصيب أولئك الذين يمكن أن نصفهم بأنهم ذوو الدخل (غير المحدود).

وأقول: لا بأس، بالرحيل، على أية حال، وإلى أي منتجع في الأرض، ثم التفت إلى الذين لا يخططون ولا يفكرون في الرحيل، أو

حتى في الخروج من المدينة، إلى ما حولها من المتنزهات، والمنتجعات، وأطرح على نفسي أولاً، ثم على هؤلاء (المرابطين) معي سؤالاً عن (معنى العيد) بالنسبة لي ككاتب، أو مشتغل بالأدب وطلب العلم، ثم بالنسبة للأخوة المرابطين هؤلاء؟؟؟

أما بالنسبة لي ـ ولأمثالي من الكتاب والأدباء ـ وأسميهم أحياناً (رجال الفكر)، فالأرجح، أننا في الأيام القليلة التي تسبق العيد، نشعر به يدبُّ، أو لعله (يَرقِل) فتسبقنا الحافظة، التي اختزنت القليل جداً من شعر المتنبي، بمطلع قصيدته التي هجا بها كافور منذ أكثر من ألفٍ من السنين وهو:

عيدٌ، بأيةِ حالٍ عدتَ يا عيد ... بما مضى أم بأمر فيك تجديدُ

ومنها:

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي ... شيئاً تتيمه عينٌ ولا جيدُ
يا ساقييَّ أخمرٌ في كؤوسكما ... أم في كؤوسكما همٌّ وتسهيدُ
أصخرةٌ أنا؟ مالي لا تحرّكني ... هذي المدامُ، ولا هذي الأغاريدُ
إذا أردت كميتَ الخمرِ صافيةً ... وجدتُها وحبيبُ النفس مفقود

ومثلي في هذه المرحلة من العمر، قد ينطبق عليه أكثر ما في الأبيات الثلاثة بعد المطلع الذي لا يزال يكمن في ذاكرة الألوف، ممّن قرأوا المتنبي، أو حفظوا له بعض قصائده في تلك الأيام التي مضغها الزمان من أيام الصبا والشباب... أما عن حبيب النفس (المفقود) فما أكثر من أطبقت عليهم اللحود من الأحبة ورفاق المسيرة... ثم ما أعجب أن يطبق على ذكراهم أيضاً ركام الأيام والسنين، بحيث يدهشني أحياناً، أن يعجز ـ حتى العيد ـ عن التذكير بهم. وركام الأيام والسنين هذا، ليس مجرّد

تراكمها، وإنما هو ما تزدحم وتُشحن به ذاكرة المرء من دفق المعلومات، وقد أصبحت تجد سبيلها إلى الذهن، عبر الفعالية المتواصلة من الراديو، والتلفزيون، والفيديو ومعها هذا (الفكس) الذي يسَّر لكل من يريد الاتصال متسائلاً أو مستفسراً، أو مُمِداً بالمعلومة، في كل ساعة أو دقيقة من الليل أو النهار. وتلك ـ لعمري ـ صورة بشعة، من أعاجيب النفس الإنسانية، أو هي (نفسي أنا) وحدي، التي يضايقني أنه يسعها، أن تعايش الماضي الممتد مئات أو ألوف السنين في التاريخ، بمختلف أحداثه ودوله وصراعات القوى فيه، ثم في تاريخ الأدب العربي أو العالمي بالكثير من مراحل تطورهما، والأكثر من رجالهما، بينما تعجز ـ إلى حد مخجل ـ أن تعايش ـ ولو للحظات ـ أولئك الأصدقاء ورفاق المسيرة، وزينة أيام الصبا والشباب... بل وأحباب (القلب)، وربما بمعنى أدق وأبعد من الحبيب الذي كان في ضمير المتنبي، وهو على الأرجح ـ عندي ـ: (سيف الدولة الحمداني) الذي لا ننسى كم أبدع المتنبي في مديحه، وكم تعلّقت به آماله في (المجد)... ولم يكن هذا المجد بالنسبة له إلاّ موقع (سُلطوي) مهما كان صغيراً ولو حتى في قرية من قرى حلب وما حولها من الرقعة التي كان يسودها حكم سيف الدولة في تلك الأيام... وقد لا يجانبني الصواب، إذا زعمت أنه وجدَ الفرصة للتدفق بحنينه إلى ساحة سيف الدولة، وهو في ساحة (كافور) الذي لم يجد له وصفَ هجوٍ مقذع أبشع من قوله:

من علم الأسود المخصيّ مكرمة أقومُه البيض، أم آباؤه الصيد
أم أذنُه في يد النخّاس دامية أم «قدره» وهو بالفلسين مردود

والسخرية اللاذعة في (آباؤه الصيد أم آباؤه البيض)، وكافور يعلم أنه

ليس سليل قوم (بيض) ولا آباء «صيد».

ولكن، ترى ماذا فعل الله بالأخوة المرابطين، وقد جمح القلم فتركهم حيث هم من المدينة التي يعيشون فيها؟؟؟ إنهم ـ عندي ـ النموذج الفريد في مجتمعنا... ولكن ماذا سوف يصبحون عندما يتاح لهم ـ إن شاء الله ـ أن يصبحوا من أصحاب الدخل (غير المحدود)... أين نجدهم في إجازة العيد أو غيرها من الإجازات... ربّما في أوروبا وأميركا... بل ربّما في (القمر) وما وراءه من الكواكب والنجوم، التي سمعنا أن الولايات المتحدة، ومعها الاتحاد السوفيتي، ترسلان إلى الفضاء الخارجي مدناً، تتيح لمن يشاء من (أصحاب الدخل غير المحدود) أن يحجزوا في فنادقها ومنتجعاتها غرفاً، وأجنحة تتوافر فيها كل ما لم يسبق أن توافر في الموجود من الفنادق في الأرض.

وبعد:

فلا أخفي أني أجد للعيد فرحتَه في نفسي، وأطرب لأهازيج الأطفال حولي، وأنا أرمق أحفادي، ومعهم أطفال الأصدقاء والأقارب والجيران... ولكن هذه القوقعة التي أقبع فيها طوال سنين مضت، إذ تتيح لي أن أسمع، وأستطيب، ما أسمع وأرى أحياناً، حين أمد رأسي ـ كما تفعل السلاحف، وهي في قوقعتها، فإنها ـ هذه القوقعة ـ تختزن في تجويفها، أصداءَ أعوام خلت، كان فيها الكثير البعد من ذكرياتٍ يخيّل لي أحياناً أنها تشكو وتنوح، فلا أملك إلا أن أردد:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم بأمر فيك تجديد

حسابنا مع الحياة

هناك لحظات في حياتي، وحياتك، يومض فيها سؤال قد لا يعني بالإجابة عنه... وقد ننساه قبل أن نفكر فيما ينطوي عليه. وهو: (هل أنت... أو أنا، مدين للحياة بشيء أم أن الحياة هي المدينة لنا؟؟؟: (هل حسابنا معها متوازن... لها عندنا، مثل ما لنا عندها... أم أن ما لها هي أكثر، والذي لنا لا يزال قليلاً يطالب بالتغطية والتسديد؟؟؟).

المألوف أن نتوهم أن ما لنا عند الحياة أو عليها كبير... ولذلك فنحن نطالبها بالكثير... وعلى هذا الأساس نضع حسابنا وتقديرنا لأنفسنا... والأرجح أننا نبالغ في التقدير، ونتجاهل الكثير والكبير من الأرقام... نسقطها من حسابنا، ونشرع في المطالبة بالمزيد من عطاء الحياة.

ولكن لو أنصفنا قليلاً... لكان من الطبيعي أن ندرك أننا مدينون للحياة بأكثر مما نقدمه لها... وأن علينا دائماً تسوية هذا الحساب، ليس بالإسقاط والتجاهل وإنما بالعمل... بانتهاز كل فرصة لتقديم ما يؤدي إلى التوازن في الحساب.

لا يكفي أن تقول إنك تعمل عدداً من الساعات في وظيفتك... وإن ما تتقاضاه في نهاية الشهر لا يكافىء ما بذلت من جهد... هذا حسابك

مع عملك... وليس حسابك مع الحياة، لأن الحياة تطالبك بأكثر من مجرد المواظبة على الوظيفة... تطالبك بأكثر من قيد الأوراق أو كتابتها على الآلة الكاتبة أو توقيعها إذا كنت في مركز الذين يتخذون القرار ويوقعون.

تطالبك الحياة بالإبداع، والتجديد والابتكار، والمحاولة الدائمة للتحسين. وإذا كان عملك الوظيفي لا يتسع لشيء من هذا، فالحياة مليئة بالفرص، وهي دائماً على استعداد للترحيب بجهدك وبمحاولتك من إبداع وابتكار... وليس ضرورياً أن يكون لديك المال، ما دامت قد توافرت لك الطاقة والنصيب الكافي من الخيال.

أسرتك... أولادك... أصدقاؤك... بيتك الصغير... الشارع الذي يقع فيه هذا البيت... المكان الذي تضع فيه سيارتك... الشارع الذي تنطلق فيه بهذه السيارة... كل هذا وهؤلاء ينتظرون جهدك للتحسين والإبداع، وما دمت (آدمياً) ـ وأعني إنساناً سوياً ـ فإنك تستطيع أن تفعل الكثير.

قد تقول: لم يخطر شيء من هذا على بال... لم أفكر أن هذا ممكن... وليس هذا خطأك... إنه طبيعة الحياة الراكدة التي نشأت عليها أو التي وجدتها حولك منذ نشأتك الأولى... بل ربما هي طبيعة الحياة في أكثر مجتمعات الشرق الأوسط.

ولكنك الآن في مرحلة ترى أنها تعج بالمتغيرات السريعة المذهلة ولذلك فلعلك تحسست شيئاً يدينك من إدراك هذه الحقيقة... فهل تستطيع أن تبدأ في موازنة حسابك مع الحياة؟؟؟

الحرية في كلمة التوحيد

ما أشد ما تحتاج الأجيال العربية الصاعدة إلى معرفة بعض الفروق الهامة بين المبادئ والمثل في عقيدتهم الإسلامية السمحة، وفي شريعتهم الغراء، وبين الأسس والقواعد التي تقوم عليها النظم والقوانين في حياة المجتمعات، ليس في الفترة التي ظهر فيها الإسلام فحسب وإنما في عصرنا الحاضر أيضاً.

في الفترة التي ظهر فيها الإسلام، كانت المجتمعات التي يحكمها النظام الروماني خاضعة لذلك القانون، الذي يحمي جميع الأشراف، ويميزهم من غيرهم، ويعتبر جميع أفراد الشعب وبالأخص من غير العنصر الروماني، عبيداً أرقاء... ليس لهم من الحقوق إلا أن يعملوا لمصلحة السادة، وأن يملأوا بطونهم فقط...

ومع ذلك، فقد وجد من يقول: إن القانون الروماني، قد بلغ أوج عظمته في القرن الخامس للميلاد، لأنه نظم العقود والمعاملات، وإن كان قد احتفظ للسادة أو للعنصر الروماني بكل الحقوق، وحرم غيرهم من جميع الحقوق.

في العصر الحاضر، ما أكثر ما تختلف النظم التي تحكم المجتمعات، ولكن ما أشد أن تظل متخلفة عن روح التشريع الإسلامي... ولنأخذ على

سبيل المثال لا الحصر، النظام الذي تفخر به الحكومات أو الدول الديموقراطية. . . يكفي أن نشهد مأساة التمييز العنصري فيها لندرك مدى تخلفها واهترائها. . . وما أشد ما يتضح هذا التخلف، حيث نتأمل تلك الحرية التي تمنحنا إياها كلمة «التوحيد». . . وتلك المساواة التي تقرر أن ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى وتلك العدالة التي يقف الفقير والغني، أمامها متساوين في جميع الحقوق، فالناس سواسية كأسنان المشط، والقوي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه والضعيف قوي حتى يؤخذ الحق له. . . ورحم الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فهو الذي لا تنسى كلمته لأبي موسى الأشعري عندما ولاه القضاء. . . (سو بين الخصمين في مجلسك وإشارتك وإقبالك).

قد يكون مما يحتاج إليه الجيل الصاعد أن يبصروا بهذه الحقائق نوعاً من التبصير، يمدهم بالقدرة على مقاومة البهرج الخلاب الكاذب الذي تظهر به النظم في مجتمعات العصر التي يشهدون نماذجها في التلفزيون والفيديو وما سوف تمطرنا به أحدث وسائل الاتصال.

عندما يكون الثناء على (سين) ماسّا بجهود (صاد)

و(سين) في هذه الكلمة ترمز إلى الدكتور الضبيب، الذي بدأ الأستاذ محمد رضا نصر الله أضمومة الثناء عليه وتقديره والإعجاب به، بقوله: (يستطيع المرء أن يقول عن (مدير جامعة الملك سعود الجديد، الدكتور أحمد محمد الضبيب أنه استحق مبررات التعيين في إدارة الجامعة عن جدارة).

وأما (صاد) فهو يرمز إلى الدكتور منصور التركي، الذي استقال من مركزه (مديراً لجامعة الملك سعود)، التي اصطلحنا على أن نسميها (الجامعة الأم)، لأنها أولى الجامعات التي تأسست في عاصمة المملكة. ولأن حياتنا أو هي مسيرتنا الثقافية استقبلت خريجيها وحملة مؤهلاتها فكانوا ـ ومعهم بطبيعة الحال زملاؤهم من خريجي الجامعات الست الأخرى، هم الذين صنعوا واجهتنا الحضارية المشرقة، وفتحوا لنا الأبواب إلى كبريات جامعات العالم، يلتحق بها أبناؤنا، للدراسات العليا، التي إذا لم يكن من عطائها سوى أمثال الدكتور العدل، والدكتور القدهي، (في مدينة الملك عبد العزيز العلمية) من أكابر علمائنا لكفانا اعتزازاً. والدكتور منصور التركي شخصية ظلّت تملأ مركزها المرموق طوال سنوات، شهد خلالها وشهدنا معه، هذه المنشآت المذهلة بضخامتها، وبما توافر فيها من وسائل وأجهزة ربما يتعذر وجود مثيلاتها إلا في كبريات المؤسسات

العلمية في أرقى جامعات أميركا وأوروبا. ولقائل أن يقول، إنها منشآت الدولة، وليست علاقة المدير بها، إلا علاقة أي مسؤول في منشآت مماثلة وما أكثر ما شمخ من هذه المنشآت، في العاصمة، وفي الحواضر الكبرى. وهذا صحيح ١٠٠٪، ولكن قد ينبغي أن لا ندير ظهورنا لما بذله المسؤول من جهد المتابعة والسهر والحث على أن يتكامل المنشأ العملاق، بكل ما فيه من إبهار، هو نتيجة للهدف المرسوم، وهو أن تكون الجامعة (الأم) في العاصمة متكاملة العظمة والشموخ، اللذين يرمزان ويعبّران أصدق تعبير عن توجّه سياسة التعليم إلى الأكمل والأفضل والأجمل، وبالتالي الأقدر على أن تقول (للدنيا): هذا ما نهض وتعملق من رمال الصحراء، مركزَ إشعاع يبهر الأبصار.

والجامعة (الأم)، مدينة ـ بعد الله والرعاية المتواصلة والدعم السخي للذين أغدقتهما عليها الدولة طوال ربع قرن ـ لرجلين اثنين تولّيا إدارتها في سنواتها الأولى هما معالي الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، الذي سمعت الثناء على سياسته وإدارته من أكثر من أستاذ في جامعات كبرى، ومبعث الثناء أو ركيزته، أنه كان يمسك بزمام التخريج وأساسه التقرير، من منطلق حرصه على أن يكون حامل المؤهل، جديراً بحمله بعيداً عن النظرة التي تستهدف (الكم) قبل (الكيف)... قال لي أحد هؤلاء، لقد استطاع الدكتور الخويطر أن يرسّخ للجامعة (الأم) ـ وهي لا تزال في بداية نشأتها سمعة، مهّدت لاحترام مؤهلات خريجيها وقبولهم دون تردد في مستويات الدراسات العليا ولكنه لم يستمر ولا أدري الأسباب وكان الرجل الثاني هو الدكتور الفدّا الذي التزم نفس سياسة الدكتور الخويطر.

والواقع، إني لست من الأكاديميين، وقد لا يجانبني الصواب إذا قلت إني لا أعرف عن الدكتور التركي إلاّ ما كان يشع ويسطع عن مكانته العلمية، وعن الجهود التي كان يحرص على عدم التراخي في بذلها، ولعلّي لم ألتق به أكثر من مرة أو مرتين، فليس ما آخذه على الأستاذ محمد رضا نصر الله في ثنائه على الدكتور الضبيب، انحيازاً إلى الدكتور التركي وإنما هو الإنصاف الذي لا بد أن يتوخّاه أي كاتب، فيما يكتبه عن شخصية علمية من وزن عالم كان مديراً للجامعة طوال سنين.

مما اعتبره ماسّاً بالدكتور التركي، أن يقول الأستاذ محمد رضا نصر الله في عرض مطالبة الدكتور الضبيب، بما بدا وكأنه من رواسب «النقص» في عهد الدكتور التركي: (هو مطالب أن يعكس صرامته الأكاديمية على مناهج الجامعة ومخرجاتها الأكاديمية التي ـ تعرضت في السنوات الأخيرة إلى كثيرٍ من «الهوان والضعف» و(أن يعيد إلى الجامعة روحها الثقافية ـ «الغائبة »).

إني أفهم أن يحتفي الأستاذ نصر الله بالدكتور الضبيب، الذي يحتفي به الجميع ولكني لا أفهم أن يجنح قلمه، بعبارات تمس الدكتور منصور التركي، ولا أتردد في أن أقول: إنها في الصميم... وذلك في تقديري ما لا يليق وما لن يرضى عنه الدكتور الضبيب أيضاً.

جهيّر المساعيد ـ ومعايشة هموم المرأة العاملة

قد يجانبني الصواب، حين أزعم أني لم أعد أجد في صحفنا، ما يستوقف أو يثير الاهتمام من المواد والمواضيع التي تعيشها شرائح واسعة وعديدة من المجتمع... وقد يكون السبب هو أني لم أعد أجد الوقت للعكوف على قراءة هذا العدد الضخم من الصحف والمجلات العربية. ثم الإنجليزية، وقبل هذا الركام، الكتب والمراجع التي لا أستغني عن العودة إليها بين الحين والحين، ليتاح لي ـ على الأقل ـ أن أبعث في الذاكرة الكثير مما يلتهمه النسيان أو هو الزمان.

ومع ذلك فإن ما ينشر بأقلام بناتنا، ومنهم الدكتورة ثريا العريّض، ورجاء عالم وجهيّر المساعيد ـ ومعذرة لمن لم أذكرهن فالقائمة ـ ما شاء الله ـ طويلة ـ ما ينشر لهؤلاء يستوقفني، وأجد نفسي حريصاً على القراءة والاستيعاب.

وآخر ما قرأت في (حروف وأفكار هذه الجريدة) مقال للابنة جهيّر المساعيد، الذي عالجت فيه مشكلة المرأة العاملة من عدة زوايا، ومنها تلك الزاوية الحرجة التي يبدو أنها منتزعة من واقع عايشته، وهو يتلخص في قولها: (ليست هناك أم سعودية اختارت خارج البيت على أمومتها، وتركت أطفالها، وطلبت الطلاق من أجل أن تعمل فقط للعمل وحده..

وتعطف على الحالة فتقول: (الوظائف التي تقوم بها المرأة في مجتمعنا المسلم لا يمكن أن تشكل تهديداً لبيت آمن يتوافر فيه الأمن والاستقرار تحت حماية القيم الإسلامية.

ولقد أحسست بنبرة الصدق المخلصة، حين قالت: (هناك أطفال، لولا عمل الأم لعانوا من (الحاجة) و(مدِّ اليد للآخرين). . . إما بسبب وفاة الأب، أو لانشغاله بعد (الطلاق) وترك مسؤولية تربية الأبناء على الأم وحدها. . . والتي لولا الله ثم عملها لأصبحت هي وأطفالها أسرى العوز والحاجة للآخرين. . . وهناك زوجات (عاملات) يسهمن في مساعدة أزواجهن ويتحملن معهم المسؤولية المشتركة. . . ولولا ذلك لمدَّ الزوجُ يدَه للدَّين والسلف. . . وكثير من النساء العاملات ينفقن على (أسَرِهن)، إما لأن العائل هو الأب محدود الدخل ـ أو لديه أسرة أخرى ـ وتضيف الكاتبة قائلة (وهذا معتاد في واقعنا السعودي). . . ثم بعض الأسر فقد عائلها الذي هو الأب. . . وبعد وفاته لم يكن هناك غير البنت الكبرى المسؤولة عن البقية الصغار ولولا عملها لما استطاعت أن تحقق لهم الأمان.

وأجد من واجبي أن أبادر إلى تأكيد أن النماذج أو الصور أو الحالات التي ذكرتها الكاتبة الفاضلة، موجودة، بل وشائعة، بل وتتكاثر يوماً بعد يوم. وهذا إذا كان في العاصمة أو الحواضر الكبرى، فماذا هي الحال يا ترى في المدن الصغيرة والقرى، والمناطق النائية؟؟؟

أعلم أن بين القراء، من يتحذلق ولا يستحسن أن تعرض نماذج للفاقة أو الحاجة بمناسبة ضرورة أن تعمل المرأة، ولكن من الذي يستطيع أن يرسلها قاعدة عامة تقول إن مجتمعنا بجميع شرائحه متكامل الحاجة،

وليس فيه هذه النماذج من الذين تزحف في حياتهم أو إلى بناء أسرهم، ظروف وهموم الحاجة والافتقار.

أغنى بلدان العالم، ومنها أميركا مثلاً، غاصّة بالفقراء، ومثلها إنجلترا وفرنسا الذين نعلم أن عندهم من لا يجدون المأوى إلا في أنفاق قطارات الأنفاق أو على الأرصفة.

فليس عيباً وجود شيء أو حالات كهذه في أي مجتمع... ويبقى أن على من يعلم بالواقع المشهود والمحسوس، أن يعمل على التخفيف منه... أما إزالته كلياً ففوق طاقة البشر.

بناء قواعد السلوك في تربية الأطفال

ما نسميه (القُدوة)، هرم ضخم له القمة التي تنير بما تشعه من أضواء سلوكياتها سبيل الاتجاه إلى الأفضل والأجدر بالاتّباع نهجاً، وسبيل انطلاق لبناء معمار الحياة، ليس فقط بالنسبة لجماهير الأمة، وإنما أيضاً بالنسبة لأولئك الذين لا يزالون يدبون في الطريق إلى مستقبلهم المنشود. وإذا كان هذا من مسؤوليات القمة الشاهقة في حياة الجماهير، فإنه لا يختلف كثيراً عن مسؤوليات القمة في حياة الأسرة، في مختلف شرائح المجتمع.

وهذا يعني أن في حياة كل أسرة من شرائح المجتمع قمة اصطلحنا على أنها (القدوة) التي نطالبها بمسؤوليات القمة، وهي أن تكون لها خصائص القيادة، وإضاءة الطريق بالنسبة للأسرة ـ بغض النظر عن عدد أفرادها ـ ولكن بعيون مفتوحة وآذان مرهفة وفعّالية حازمة بالنسبة لأولئك الذين تتأرجح خطواتهم أو تترنّح، ويفتقرون إلى الوسائل التي تتيح لهم ثبات الخطوة القادرة على أن تسلك السبل ـ سهلة أو وعرة ـ نحو الغاية من مسيرة الحياة.

ولعل الواقع أننا قد درجنا على أن نلقي بركام الأخطاء السلوكية التي يقع فيها أطفالنا، بل وناشئتنا، على عواتق أو رؤوس الخدم والعاملين في

بيوتنا، وننسب إلى هؤلاء ما يسبق إلى ألسنة الصغار من ألفاظ السباب والشتائم القذرة، وقد يصح أن يكون الكثير من هذه الألفاظ الفجة أو غير اللائقة مما التقطته أُذُن الصغير من الخادم أو السائق، أو مما تتقاذف به حناجر بعض العامة في الشوارع والأسواق. . . ولكن قد يكون صحيحاً، أيضاً أن الكثير والخطير من الأفكار والمشاعر والمفاهيم الرديئة، قد التقطه هؤلاء الصغار من (القُدوة) وفي غرف الاستقبال، وخلال ساعات التحلُّق حول ساحة (البلوت) التي قد لا يخلو منها منزل في جميع الحواضر والمدن.

يحكى أن الفيلسوف (ديوجينيس) عاقب والد الفتى الذي أقسم أو قال كلاماً أقسم على صدقه وهو كاذب. . . وحين تصايح عليه الناس، ضحك الفيلسوف وهو يقول: كيف يعاقَبُ من تعلّم الكذب، من القُدوة. . . وهو الأب. ثم أطلقها قاعدة عامة، تقول: (عندما يكذب الطفل، أو يرتكب خطأً، عليك أن تعاقب أباه أو أمه أو المسؤول عن تنشئته وتربيته).

ولنا أن نحمد الله سبحانه على أن التغيّر الذي أخذ يزحف على سلوكيات ناشئتنا لا يزال في بدايته ـ أو هكذا نتعشم ـ، ولكن البداية هي النذير الذي يطالبنا بأن نكون القدوة في سلوكياتنا، وأن تكون هذه السلوكيات النموذج الذي نتطلّع إلى أن نبني عليه مستقبل الأجيال الناشئة، وتلك القادمة في الطريق.

مسؤوليتنا، وكل منا قمة في الهرم، بالغة الحساسية والدقة. . . فهل لنا أن نرجو أن لا ينقلب الهرم، رأساً على عقب. . . أو قمة إلى قاعدة. . . ؟؟؟

وبعد:

فإن ما أسمعه عن تبذل، سلوكيات الصغار، والناشئة من أبنائنا يصيبني بالغثيان، ويحملني على أن أطيل التفكير، فيما ينبغي أن نستهدفه في بناء المستقبل وقواعده هي هؤلاء الصغار.

قمة بغداد... والمجزرة

يوم وقع حادث حرق المسجد الأقصى وكان الذي أقدم عليه مخلوق قيل إنه كندي، ثم استبعدت عنه تهمة العمالة للحقد الإسرائيلي، والقيام بالجريمة لحساب هذا الحقد، بزعم أنه (مختل) الأعصاب... مجنون... ولا أدري بعد ذلك ما الذي انتهى إليه أمره... ولنا أن نرجّح أنه قد تخلص من طائلة العقاب، وأتيح له أو أُمر بأن يغادر إلى كندا دون أن يمسّه القانون بأي عقوبة، بل وحتى لم يودع مستشفى الأمراض العقلية، بفرض صحة ما التمسوه له من دوافع الجريمة ومبرراتها وهي الجنون.

واليوم... نجد جندياً إسرائيلياً مسلّحاً، يقتل ثمانية (عمّال) فلسطينيين... يخرج عليهم، في الساعة التي يتجمّعون فيها للذهاب إلى موقع عملهم، ويفتح عليهم النار من سلاحه فيرديهم قتلى... ومرةً أخرى، يتكرر الزعم القائل إنه (مختل عقلياً)... (مجنون). وذلك هو الباب الذي سوف يخرج منه دون أن تمسّه قوانين إسرائيل في محاكمها بأي عقوبة لأنه مجنون... والمجانين يتمتعون في إسرائيل كما نرى، بحريةٍ من نوع خاص، أهم خصائصه أنهم يرتكبون ما يعن لهم من جرائم دون حساب أو عقاب... ودون أن يسأل (الأمنُ)، في هذا المسخ الذي أريد له أن يكون دولة: كيفَ يُصرَّح للمجانين بأن يرتدوا البزّة العسكرية وأن يحملوا السلاح الذي يقتلون به ثمانية أو ثمانين؟؟؟

وليس من قبيل الصدفة أن يقع هذا الحادث البشع، وما جرّه من اضطرابات، لا تزال تتلاحق، ولا يزال يتساقط صرعاها، قتلى أو جرحى... أن يقع قبل عشرة أيام فقط من موعد انعقاد قمة بغداد الطارئة.

والبيانات الصحفية، وغير الصحفية، التي تتناثر في الأرض العربية من المحيط إلى الخليج تقول إن هذه القمة الطارئة في بغداد تريد (الخروج برؤية موحّدة في مواجهة التحديات المحدقة بالعالم العربي)... ولا تقول لنا هذه البيانات شيئاً واضحاً أو حتى غامضاً، عن عناصر أو جزئيات هذه الرؤية الموحّدة... فإذا أضفنا إلى مضمون هذه البيانات، ما قيل أن الرئيس الجزائري (الشاذلي بن جديد) قد أفضى به، وهو أنه (يشترط للاشتراك في هذه القمة أن تتوافر لها شروط النجاح) بينما حضور الرئيس السوري حافظ الأسد، لا يزال يدور في دوامة الشكوك، والتردد بين احتمالات الانغلاق، أو الانفراج، وعلى الأخص بعد الدعوة التي لم ير الرئيس صدام حسين مانعاً في توجيهها رسمياً على يد وزير العدل العراقي.

في مواجهة كل ذلك، لنا أن نتساءل، ومن منطلق الحيرة وما يشبه الضياع: ما هو الذي سوف تخرج به هذه القمة في مواجهة التشكيلة الواسعة من التحديات، ومنها هذه المذبحة أو المجزرة، التي دلقت الكثير من الزيت على النيران المشتعلة في الأرض المحتلة.

والواقع الذي لن يغيب عن الأذهان أن هذه المجزرة، حين شبّهوها بمجزرة (دير ياسين) فاتَهم أن يذكروا أن مجزرة دير ياسين تلك، لا تزال مستمرة ومتجددة، ولم تتوقف قط، منذ عام ١٩٤٨م وحتى اليوم... ولا

فرق بين أن يتم قتل الإنسان الفلسطيني «بالقطاعي» أو «بالجملة»، فهو قتلٌ، ودمٌ يسفح، والقتلى، إذا كانوا في المجزرة الأخيرة ثمانية عمّال فإن القتلى طوال هذه السنين عشرات أو مئات أو ألوف، كلهم قُتلوا. . . كلهم سفحت دماؤهم رخيصة على أيدي قوات الاحتلال، وبرصاص بنادقهم. . . فما الفرق؟؟؟

فالمسألة إذن، هي موقف الدول العربية من هذا الواقع الرهيب بكل ما في الرهبة من معان يعجز عن تصورها العقل، ولا يجد لها المنطق معادلة تخضع لعبقرية الحل.

ويبدو لي أن السيد ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية، بل رئيس الدولة الفلسطينية قد أتاح لنا أن نقترب قليلاً من اكتشاف ذلك الغائب، الذي طال غيابه، وبدا كأنه يرفض الظهور فضلاً عن الحضور، وذلك حين قال في دعوته إلى القمة الطارئة في بغداد، إنه (سيطلب منها إجراءات ملموسة، وليس بيانات شجب).

ثم يبدو لي أن السيد ياسر عرفات لا يختلف عن أي مواطن عربي في نظرته إلى ما يتدفّق من بيانات «الشجب»، و«الاستنكار»، و(التنديد) أو (التفنيد). . . فهي النظرة الواثقة من أن هذه البيانات، وحتى منها تلك التي تتقدم بها الدول العربية إلى مجلس الأمن، لم تسفر قط، ولن تسفر على المدى والعمر الطويل، عن أي تحوّل أو تغيّر ذي بال على نمط البغي والطغيان، ومنه (المجزرة) الأخيرة و(المجازر السابقة طوال أربعين عاماً). ولا تحتاج المسألة ـ من هذه الزاوية إلى تعليل أو استكناه أسباب. . . إنها معروفة، ومسلّم بها حتى على صعيد الأطفال، فضلاً عن الكبار من الساسة وقادة السفن. وهي باختصار (الولايات المتحدة الأمريكية) التي لم

تزد قط في أي بيان من بيانات البيت الأبيض أو وزارة الخارجية عن أنها تشعر (بالقلق)... وأنها نتيجة لهذا (القلق) تحث حكومة إسرائيل على (ممارسة ضبط النفس).

ولا بد أن يكون للفظ أو كلمة (القلق) هذه، في قاموس السياسة الأمريكية، ومصطلحاتها الديبلوماسية، معنى لا نعرفه نحن، ولا أي عربي، وربما ولا أي مخلوق في العالم الثالث كلّه والعجيب الغريب غير المفهوم والضائع تماماً، أن كلمة (القلق) هذه، هي التي ترضي صنّاع السياسة العربية... ولا تزال ترضيهم... فعسى أن لا تمارس سحرها في قمةِ بغداد الطارئة.

الأطفال. . . ولغة الكاريكاتير

من نعم الله سبحانه على كاتب هذه السطور، أحفادٌ، وحفيدات، ولا أحتاج أن أقول إني أحب الجميع، وأجد فيهم ما يشبع مشاعري فرحةً بهم وعطفاً حميماً عليهم، وإلى جانب ذلك، ما أسميه اكتشاف ميولهم ومواهبهم، وقدراتهم الذهنية، واختلاف اتجاهات هذه القدرات. ومع أنهم جميعاً عُشَّاق متيَّمون للكرة، ولاعبيها، بحيث أصبحوا يعرفون الكثير من التفاصيل عن «الهدّافين»، ومواعيد لعب المنتخب في هذا البلد أو ذاك، ولهم نواد يشجعها أحدهم، ولا يشجعها الآخر، وهذا كثيراً ما يؤدي إلى خلاف يصل إلى حد الشجار بينهم، ولا يحسم المعركة (الكلامية) إلا، تدخل الكبار، بمحاولات الإقناع والإفهام. . .

مع ذلك، فإن منهم من له اهتمام خاص وعناية بالصور الكاريكاتيرية التي تنشرها هذه الجريدة. وقد بلغ به التعلق بهذه الصور، أن أخذ يجمعها في ملف، ومن الذين يعجب بهم بل وفي طليعتهم (محمد الخنيفر)، الذي يبدو أنه أدرك رواج أعماله عند الأطفال فشرع يصدر مجموعات، لم يهمل حفيدي شراءها والعناية بجمعها. . . ولكن كان من نتيجة وفرة هذه المجموعات، أن خفَّ التعلق بـ (الخنيفر)، وأخذ يتجه إلى (الوهيبي) (وشحادة) اللذين لا يخلو عدد من هذه الجريدة من كاريكاتير لأحدهما.

وبطبيعة الحال لا تتسع أذهان الأطفال لإدراك الكثير مما يستهدفه الفنان من المواضيع، ولذلك يجيئني الحفيد، بالكاريكاتير الذي انتزعه من مكانه في الجريدة، مستفسراً عما يريده (الوهيبي) أو (شحادة) مثلاً.

ومن هذه الأعمال، كاريكاتير للوهيبي، جاءني به حفيدي بعد أن اقتطعه من الجريدة وأخذ يسألني عن معنى (التيارات المعاصرة)... فهو يعرف التيار الكهربائي، أو اتجاه تيار الرياح، ولكن لم يستطع أن يدرك (التيار المعاصر)... وأضاف: (هل هو موجود في المكتبات؟؟؟) واستغرقت في الضحك، وأنا أرى سخرية (الفنان الوهيبي)، بالكلمة، التي تتداول، وتستقر في بعض الأذهان ولكن دون أن يتضح مفهومها...

والكاريكاتير عبارة عن صاحب مكتبة، يقف أمامه زبون يطلب أي (كتاب) عن التيارات المعاصرة... وإلى هنا ليس في كلام الزبون أو طلبه ما يبعث على السخرية التي ينشدها الفنان... ولكن حين يضيف الزبون: (وما يهم يكون ١١٠ أو ٢٢٠) تزحمنا الابتسامة أو الضحكة إذ نرى كيف يضيع مفهوم الكلمة، ويساء فهمها... رغم أن الزبون قصد مكتبة... ولم يقصد محلاً لبيع الأدوات الكهربائية.

وهنا تأتي قوة ملاحظة الحفيد، الذي قال: (لو أن الوهيبي أدخل هذا الزبون محلاً لبيع الأدوات الكهربائية، ويطلب (التيارات المعاصرة) التي تقول لي إنها شيء من كلام الكتب، لكان هذا هو الصحيح. وعلى الأستاذ الوهيبي، أن يقول لنا رأيه في الملاحظة... وأن يذكر دائماً أن هناك أطفالاً كثيرين يتابعون أعمال الكاريكاتير، ويفهمونها وربما ينتقدونها أيضاً.

بقيت لي، ملاحظة لا أجد ما يمنع أن أقدمها للأستاذين (الوهيبي)

و(شحادة)... وهي أنهم يبالغون كثيراً في تشويه كاريكاتير الرجال... أو العبث بالشائع من ملامحهم، وهنا أذكر (الخنيفر) وبراعته في تناول كاريكاتير (السيدات والأوانس)... كأنه كان يحرص على أن يظهر المستوى الذي بلغته المرآة من الأناقة والرشاقة، والتعامل مع ما وفرته الحضارة لها من لوازم ووسائل الظهور بالمظهر الحضاري اللائق، رغم الحجاب أو وسائله.

وبعد:

فلا أحتاج أن أقول إن الكاريكاتير فن عظيم جداً... وإنه يستطيع أن يقول ما قد تعجز عن قوله الأقلام، وأن من أسرار وأسباب نجاح الفنّان فيه، اتساع آفاق الثقافة الاجتماعية ومتابعة الأحداث السياسية، إلى جانب الإحساس المرهف بما تنتظره الجماهير من معالجة للأحداث، وأنا، كحفيدي، أو أحفادي، لا يفوتني أن أتأمل الكاريكاتير في الصفحة الأخيرة من جريدة الرياض... رغم هذا الزحف (الشرس) جداً، من الإعلانات.

بين الموروث. . . والجديد

ذكرني بالمعركة الدائرة منذ سنين، بين أنصار (الموروث) الذين يرون في الخروج عليه أو التساهل في التزامه، خروجاً على الأصالة، ومنها التقاليد والأعراف والعراقة، وعلى الأخص في الإبداع شعراً، وقصصاً، ورواية، وبين أنصار الجديد، أو (الحديث) الذين يرون في الأخذ به ومحاولة ارتفاق موجته والإبحار في أثباجه، معاصرةً، تعايش الحياة في مسيرتها المنطلقة إلى مستقبل لا يزال ينطوي على الكثير من المجاهيل التي لن نستطيع أن نفك أو نحل طلاسمها إلاّ بالأخذ بهذا الجديد، والإبحار في ثبجه، ومع حركة اندفاعه الواسعة التي لا يكاد يحدها شيء.

ذكّرني بهذا، الذي اعتبره من وجهة نظري موضوعاً انتهى وانطوى، ورحل إلى ماض بعيد يحسن أن نخفف من محاولة استرجاعه، هذا الكتاب الذي سوف أعنى بقراءته للكاتب الأستاذ عبد الله الخشرمي الذي اختار أن يسمّيه (ذاكرة لأسئلة النوارس) وقد قرأت ما كتبه عنه الأستاذ محمد العصار.

سبق أن قلت للأستاذ الخشرمي، في نادي جدة الأدبي، بعد أن قرأ علينا قصيدة من إبداعه ـ إنه يسرف في الاتكاء على الاستعارة إسرافاً يلف ما يريد أن يفضي به، بما يشبه قشور (البصلة)، إذ تبدو وكأنها تنطوي

على (لُبٍ). . . فإذا بها تظل تعطيك قشورها، قشرة وراء أخرى، إلى أن تجدها بين يديك مجموعة من القشور لا أكثر ولا أقل.

ولا أذكر الآن، ماذا كان رد الأستاذ الخشرمي ولكن لعلي سمعت من زميل له في حوار عن إبداع الأستاذ أني ظلمته ظلماً شنيعاً، لأن اتكاءه على الاستعارة بهذا الإسراف، هو الذي يخلع على عمله حلة الإبداع! وما ضرورة أن نجد (لُبّاً أو ثمرةً). . . ما دمنا نستمتع «بمحاولة» العثور على مضمون. . . لا يعيبه أننا لا نجده. . . إذ لا شك أن هناك من يجد هذا المضمون في عملية البحث عنه وراء هذه القشور. ويكفي ـ من وجهة نظره ـ أن تمتع بلذة أو متعة اكتشاف مجهول، لا يهم أن يوجد أو لا يوجد. إذ ما أكثر ما باءتْ محاولاتٌ لاكتشاف المجاهيل بالفشل، ولكنها في جميع الأحوال لم تخل من متعة. . . ثم أضاف ما بدا لي كأنه نَسَفَ تشبيهي واقع البصلة بقشورها، حين قال: (والبصلة كلها لب).

وللأستاذ الخشرمي قبل هذا الديوان الجديد، ديوان آخر، يؤسفني أني لم أجد الوقت لقراءته ومحاولة الكتابة عنه ـ كما هو المفروض ـ ولكن لي أن أقول إن ظاهرة الاتكاء على الاستعارة لا تزال كامنة إلى جانب الإقلاع المتهوّر، في محيط اللغة، وراء كلمات وألفاظ يصطادها، ولا يجد ما يمنع أن يضعها في سلة القصيدة، دون اهتمام من أي نوع، بما إذا كان ما اصطاده وجمعه في السلة، مما يفيد أو يثري ديباجة العمل. . . ومن هذا المنظور يمكن القول إن الأستاذ الخشرمي، لا يهمه إطلاقاً أن يتعامل مع (المتلقي). . . أن يمنحه شيئاً من هذا الذي جمعه في السلّة. . . وهنا نتساءل: ـ لمن يكتب؟؟؟ وهل هناك متلق يمكن أن ينتفع من الصيد الذي عانى الأستاذ ما عاناه في الأبحار، ومغالبة العواصف والأنواء، في محيط

اللغة الواسع بلا حدود. لاصطياده وجمعه؟؟؟

ولا مانع عندي أن يجد الشاعر، الخشرمي أو غيره، في (النوارس) جَرْساً يطيب له أن يغرى بتأمّله أو ملاحقة سبحه في أجواء البحر. . . ولكن أن تكون للنوارس ذاكرة، أو أن تكون للأستاذ ذاكرة تتحاور مع أسئلتها فنوع من الاستغراق في البعيد الغائب الذي يندر أن يعايشه المتلقي، حيت ولو كان من المتلقي، حتى ولو كان من أصحاب الدارات على (الكورنيش).

وليس هذا مما يمس حرية الاختيار أو يهبط بالاختيار نفسه إلى مستوى (الولع) بالغريب النادر. ولكن هذا يسقط (العفوية) و«التلقائية»، التي لا يصح أن يهرب منهما العمل الفني، ما دام يستهدف العرض في ديوان على جمهور القراء.

أما الأستاذ محمد العصّار، الذي اعترف أني لم يسبق أن قرأت له شيئاً قبل هذا المقال الذي عالج به الأبحار مع الأستاذ الخشرمي في ديوانه، فإني لا أملك إلا أن أهنىء الأستاذ الخشرمي، ورصفاءه من الشعراء الذين يلتزمون موقفهم المتعاطف بحرارة مع هذا الجديد، في محاولة للفرار من «الموروث». . . رغم أن المحيط الذي يبحرون في أثباجه، هو اللغة العربية، وما يتاح لهم أن يصطادوه من الألفاظ، ويوضع في السلة، يظل منتمياً إلى (الموروث). . . وإن كان انتماءً فيه من القلق، ما يجعله دائم البحث عن مكانه، في السطح أو في الأعماق. ولقد خرجت من مقال الأستاذ العصار. . . بزحمةٍ من الضحك، ومن الأسئلة التي تتلخص في: ـ (ماذا يريد أن يقول؟؟؟).

تكنولوجيا معايشة الراحلين

والراحلون حتى اليوم فريقان. كنا وما زلنا نعايش أحد الفريقين، وهو الأعظم قدراً، والأوفر عطاءً، والأبعد زمناً، عن زماننا، وهم الذين استطاعت المطبعة، أن تحفظ لنا ما عكفوا على كتابته وتدوينه من علمهم وفنونهم وآرائهم،وحتى فلسفتهم، واتجاهات آرائهم في النقد، والتقنين والتقعيد للكثير الذي لا بد أن نرجع إليه، كلما أحسسنا بالحاجة إلى الأصح والأدق، وحتى الأجمل والأفضل. . . ولا شك أن المطبعة، كانت اختراعاً لا بد أن يُعد من فنون التكنولوجيا رغم ما كانت عليه من البدائية والبساطة قبل أن تتطور هذا التطور المذهل الذي أصبح يتيح للصحف اليومية أن تقدم الصورة الملونة، ويملأ صفحات الكتب ـ وعلى الأخص منها ما يدخل في مفهوم دوائر المعارف من القواميس ـ بهذه الصور الملونة التي تبهر وتأخذ بالألباب، روعةَ ألوانٍ ودقةَ خطوط الملامح أو الشكل. ومن هنا يمكن القول إن التكنولوجيا كان ـ ولا يزال ـ لها الفضل، في أنها أتاحت لنا معايشة التراث، في لغتنا العربية أولاً ثم في اللغات الأخرى لمن يعرفها ويطلب مراجعها ومكنوناتها.

وبفضل التكنولوجيا، التي تطورت هذا التطور الكاسح، وكل الظواهر والمؤشرات تؤكد أن تطورها لن يقف عند حد. . . بفضلها. . . نعايش فريقاً آخر من الراحلين، الذين أدركوا تكنولوجيا التسجيل بالصوت

والصورة ـ أسود وأبيض في البداية ـ وبالألوان في هذه الأيام... وهو تسجيل لم يكن يتسع له العقل قبل خمسين أو ستين عاماً... ولكنه اليوم حقيقة تكنولوجية تملأ الحياة، في منازلنا ومكاتبنا، وأسواقنا وفنادقنا الخ... وبفضلها أصبحنا نعايش راحلين أثْروا الحياة بفنّهم، وإبداعهم، ثم رحلوا... ولكن التكنولوجيا تتيح لنا أن نعايشهم، وأن نستمتع بفنهم وإبداعهم... ومنهم ـ على سبيل المثال ـ أم كلثوم وعبد الحليم حافظ، ونجيب الريحاني، ويوسف وهبي، وحسن عابدين... ولو كانت أجهزة الإعلام تعنى بتسجيل عطاء العلماء، إضافة إلى الشيخ الشعراوي الذي لا أشك في أن ما سجّل له يقدم لنا النافع الرائع من علمه الغزير ومنطقه الدقيق العميق، في تفسيره للقرآن الكريم، وتُعنى أيضاً بتسويق أو نشر ما يتم تسجيله، كما تسوق قراءات كبار وأعاظم القراء... فإنها تقدم خدمة أعتقد أنها مطلوبة من جهة، وقادرة على مواجهة الكثير مما ينتشر من كاسيتّات علماء بعينهم يقال إنهم من دعاة التطرف والعنف من جهة أخرى.

والفرق بين تكنولوجيا الكلمة المطبوعة نعكف على قراءتها، ساعات أو شهوراً، وربما سنين، وبين تكنولوجيا التسجيل صورة وصوتاً ولوناً وحركة، وما يحيط بكل ذلك من المشاهد والمناظر... هذا الفرق كبير جداُ، والفائدة المعطاة من التكنولوجيا الحديثة أكبر وأسهل تناولاً، وأسرع استيعاباً وتأثيراً، ومن هنا تتم لنا معايشة الراحلين، هذه المعايشة التي نستعيد بها عطاءهم فنستعيد المتعة والفائدة، ونتذكر ما نكون قد نسيناه من التفاصيل.

ومن الذين رحلوا منذ أسابيع عازف الكمان الكبير الفنان أحمد

الحفناوي، الذي يعد من أكابر العازفين، الذين أعلم جانباً من سيرة حياتهم، التي تميّزت بالتعفّف والنقاء، والاحتفاظ بعزّة النفس وكرامة الشخصية، ولذلك فقد تجاوزتْه فرص التقدير، ورحل (مستوراً)... ولا أقول فقيراً... إذ لم يكن يرضى أن يوصف بما يُزري بكرامته وعزة نفسه.

ولقد أتيح لي أن أعايشه لحظات في برنامج في تلفزيون القاهرة، فلا أخفي أن البرنامج انتهى، وقد امتلأت عيناي بالدموع... رحمه الله.

شامير . . . أمام المحاكم المصرية

مع إحساسي بواجب الاعتذار للقراء، عن تدخل هذه الكلمة، عن (شامير ـ رئيس وزراء دولة العدو الإسرائيلي) بين الكلمات التي التزمت بها عن (العمة) في الجزء الثاني من كتاب معالي الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر ـ وزير المعارف، ووزير التعليم العالي بالنيابة، فإني لا أشك أن القراء، ومعالي الدكتور الكريم، لا يجدون ما يمنع أن يمنحوني غض النظر، والعفو عن عدم الموالاة في الموضوع، لأنهم معي على الأرجح في أن خبر (شامير، أمام المحاكم المصرية)، يستحق أن نقف عنده، وعلى ثغورنا ابتسامة عريضة لا بد أن تكون (شامتة متشفية)، إذ ماذا يمكن أن يحمل على مثل هذه الابتسامة، أكثر من أن نتصور هذا (الشامير) واقفاً أمام المحاكم المصرية، متهماً بجرائم، ـ وليس جريمة واحدة. ومن هذه الجرائم (قتل الأطفال) عمداً ومع سبق الإصرار والترصد في الأراضي المحتلة، ومن أهمّها وأخطرها التعدي على أشخاص الأنبياء، وخاصة «النبيَّ محمداً صلوات الله عليه». والدعوى المقامة على (شامير) أمام محكمة جنح عابدين، من المحامي المصري إبراهيم عكاشة، يطالب فيها بتعويض قدره خمسة ملايين جنيه مصري، وحبس (شامير) لمدة ثلاثة أعوام. . . ومن عناصر الدعوى أيضاً، إهانة المصريين بإعلانه أنهم لا يرعون عهداً ـ بالنسبة لاتفاقيات كامب ديفيد و(هم مثل رسولهم محمد

الذي خان عهده وصلحه مع يهود يثرب في الزمن القديم). وهذا إضافةً إلى دأبه في الفترة الأخيرة على تعمد جرح مشاعر المصريين والعرب، بالتسفيه علنا بتدنيس المساجد والكنائس، والتشويش على إقامة الشعائر الدينية بها، بما وفر في حقه الجريمة المنصوص عليها في المادة رقم (١٦٠) من قانون العقوبات... الخ...

ومما يستوقف النظر في مجرى القضية، أن المحكمة قررت تأجيل النطق بالحكم فيها إلى يوم الأحد المقبل ـ العاشر من شهر يونيه ١٩٩٠ ـ وهذا يعني أن الحكم جاهز ولكن النطق به هو الذي تأجل. فإذا أضفنا إلى ذلك أن مصدراً من وزارة العدل صرّح بأن من الممكن تنفيذ هذا الحكم ـ إذا صدر ـ وفقاً لمعاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، في إطار الشق المتعلق بالجرائم والنواحي الأمنية وتبادل المجرمين. فإن لنا أن نقف احتراماً وتقديراً لمنطق القضاء في مصر وقدرته على رؤية الحيثيات ـ من القوانين ـ ليس في الحكم فقط، بل في إمكان تنفيذه، على أساس قانوني.

وقد يقال ـ من منطق اليأس من جهة ومنطق استحالة إمكان إلقاء القبض على شامير وتنفيذ الحكم بحبسه ثلاث سنوات إضافة إلى الغرامة التي يطالب بها المدعي وقدرها خمسة ملايين جنيه مصري من جهة أخرى، لأنه رئيس وزراء دولة، ولا سبيل إلى المجيء به إلى القاهرة لإيداعه (ليمان طره) أو أي سجن من السجون في مصر، ولكن سوف يظل الحكم قائماً وسوف يظل شامير (مطلوباً) وقوات الأمن المصرية مكلفة بإلقاء القبض عليه، ليس في حالة تواجده في مصر فقط، بل حتى عندما يحدث أن يكون في أي بلد سوى إسرائيل، على أساس أنه مجرم

محكوم عليه من محكمة اعتمدت على حيثيات ومرتكزات من القانون.

وهذه الواقعة تذكرني، بمناحيم بيجين، وهو ذلك الذي كان من قَدَرِ الرئيس محمد أنور السادات، أن يوقّع معه اتفاقيات كامب ديفيد، بصفته رئيس وزراء إسرائيل... كان (مناحيم بيجين) هذا مطلوباً من حكومة بريطانيا (حياً أو ميتاً) لأنه المجرم الذي فجّر فندق الملك داود في القدس، فقتل عدداً من كبار ضباط القيادة البريطانية التي كانت تستعمر فلسطين. وهذا إلى جانب جرائم عنف وإرهاب ظل يمارسها ضد الإنجليز، بصفته رئيساً لعصابة أو عصابات الإرهاب و القتل الجماعي. وكان مطلوباً (حياً أو ميتاً) على أساس حكم محكمة يرأسها قضاة بريطانيون، وقد اكتسب صفة القطع بالتمييز في المحاكم المختصة في لندن.

ولكن ما أعجب أن يأتي يوم، يدخل فيه مناحيم بيجين بريطانيا رئيساً لوزراء إسرائيل وأن يُستقبل استقبالاً رسمياً، وتشرب بريطانيا الحكم، وتنسى قتلاها من كبار ضباط جيشها، ولا تثير الصحافة البريطانية القضية أو تذكر الحكم أو تطالب بتنفيذه إلا بسطور هامشية فيها الدُّعابة أكثر مما فيها من الجد.

فهل يكون موقف مصر، من «إسحاق شامير»، المحكوم عليه، من محكمة جنح عابدين، شبيهاً بموقف بريطانيا. «مناحيم بيجين؟؟؟»

المسألة من وجهة نظري تتوقّف على تواجد شامير في الأراضي المصرية... وما تتلقاه قوات الأمن المصرية من أوامر، إذا قُدّر للظروف أن تتيح لهذا المجرم أن يدخل مصر ضيفاً، وبصفته رئيساً لوزراء إسرائيل...

ينطلق خيالي، وأحلامي بعيداً، فأذهب إلى حد أن شامير سوف لن يغامر بالدخول إلى مصر تحت أي ظرف. . . لأنه يعرف، أن القضاء الذي حكم ببطلان مجلس الشعب بكامله. . . وتم تنفيذ الحكم، لن يتردد، في الإصرار على تنفيذ الحكم على المجرم (إسحاق شامير).

وقبل أن أختم كلمتي أتمنى أن أزجي تحية ملؤها الإكبار للمحامي المصري الأستاذ إبراهيم عكاشة، وهو الذي أقام الدعوى أمام محكمة جنح عابدين.

وقفة مع سيد قطب. . . في كتابه معالم في الطريق

الأستاذ الإمام سيد قطب رحمه الله، كان أبرز ضحايا ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وربما كان أولَ محكوم عليه بالإعدام شنقاً، لم تقبل الثورة العدولَ عن تنفيذ الحكم بإعدامه رغم ما يشبه الإجماع على التماس هذا العدول، من دول العالم العربي والإسلامي. . . وكان الثاني هو ذو الفقار علي بهوتو ـ والد «بي نظير علي بهوتو» رئيس وزراء باكستان اليوم.

وقد تم إعدام سيد قطب فعلاً، لتبدأ شعلة علمه في التوهّج ونشر شعاعها في مؤلفاته العديدة، وفي مقدمتها (تحت ظلال القرآن) الذي تكاد لا تخلو مكتبة لمثقف من نسخة منها، يعكف على التزود من مدخور العلم فيها، طلاب العلم، الذي كان حادث إعدام مؤلفها العظيم من أعظم حوافز الانكفاء على مطالعتها.

وللإمام السيد قطب كتاب آخر بعنوان (معالم في الطريق)، لا أذكر الآن إن كان قد نشر قبل (تحت ظلال القرآن)، أم بعده، ولكن الذي أذكره اليوم أن كثيراً ممن يكتبون عن دعاة التطرف والحاثّين عليه، وما تتشقق الأرض في مصر خاصة، وفي غيرها، عن الذين جندوا أنفسهم لهذا التطرف، بكل ما ينسب إليه من عنف وإرهاب، يبلغ حد الإقدام المتهور على الفتك

بأرواح الأبرياء من عامة الناس، باسم جهاد في سبيل الله والإسلام، يبيح تجاوز صلاحية وسلطان أولي الأمر، أو الدولة، أو النظام الحاكم يَعدُّون هذا الكتاب في أوائل الكتب الداعية إلى هذا التطرف.

وفيما يتاح لي أحياناً من مراجعة لمؤلفات سيد قطب، وغيره، وجدت نفسي أمام نص في كتاب (معالم في الطريق)، لا أرى ما يمنع أن أضعه بين أيدي القراء موضوعاً لحوار أعلم أن بين مثقفينا، إن لم يكن بين علمائنا الإجلاء، من يطيب له أن يرشدني إلى الأصح والأدق فيما أخشى أن أكون قد استُدرجت فيه إلى خطأ، أكره أن أظل واقعاً فيه.

يقول الإمام (سيد قطب) في هذا الكتاب: (إن قيادة الرجل العربي للبشرية قد أوشكت على الزوال، لأن النظام الغربي قد انتهى دوره. . . لأنه لم (يَعُدْ) يملك رصيداً من القيم يسمح له بالقيادة).

والذي يفهم من هذه العبارة، (بنصّها)، أن الرجل الغربي هذا كانت له قيادة، ولكنها قد (أوشكت على الزوال) والسبب، هو أن النظام الغربي قد انتهى دوره. . . لأنه لم (يَعُدْ) يملك رصيداً من القيم يسمح له بالقيادة.

وما يتبادر إلى الذهن من هذا الكلام، أن قيادة الرجل الغربي كانت وظلت قائمةً أو عاملةً أو فعّالة ولكنها (أوشكت على الزوال). فما هي ـ في تقدير سيد قطب رحمه الله القيم التي كانت تملكها تلك القيادة، وما هي عناصرها التي (كانت) ثم (أوشكت على الزوال). . . ولا يقول لنا سيد قطب شيئاً عن مقومات وعناصر تلك القيادة، ولكنه (يعلّل) (لو شك الزوال) بأن النظام الغربي قد انتهى دوره. . . ويعلّل لانتهاء هذا الدور بأنه (لم يَعُدْ) يملك رصيداً من القيم يسمح له بالقيادة.

وقوله (لم يَعُدْ) يثبت أنه كان ـ وأعني النظام الغربي ـ يملك رصيداً من القيم التي كانت تؤهله للقيادة، ثم لم (يعد) يملكها.

ولا يقول لنا الأستاذ رحمه الله ما هو الرصيد من هذه القيم؟؟؟ ومتى... في أي فترة من تاريخ قيادته التي (أوشكت على الزوال)؟؟؟ ثم ما هي نوعية هذه القيم؟ أهي قيم روحية وأخلاقية أو دينية مثلاً؟؟؟ وبها تأهّل للقيادة التي أوشكت على الزوال؟؟؟ وبذلك انتهى دوره بعد أن فقد ذلك الرصيد من القيم الذي سمح أو يسمح له بالقيادة.

وما استوقف ذهني وتأمّلي أنه رحمه الله يضيف قائلاً: لا بد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة (المادية) التي وصلت إليها البشرية عن طريق (العبقرية) الأوروبية في الإبداع المادي. وتزوّد البشرية بقيمٍ جديدة جدّة كاملة بالقياس إلى ما عرفته البشرية وبمنهج أصيل وإيجابي، و(واقعي) في الوقت ذاته.

ولكنه سرعان ما ينتقل انتقالة مفاجئة تقريباً حين يعقب قائلاً: (الإسلام ـ وحده ـ هو الذي يملك تلك القيم وذلك المنهج... ثم جاء دور الأمة المسلمة لتحقق ما أراده الله بإخراجها للناس.

وليس بين المسلمين من يشك، في أن الإسلام وحده هو الذي يملك تلك القيم وذلك المنهج... ولكن لا يقول لنا الأستاذ، كيف (جاء دور الأمة الإسلامية لتحقق بإرادة الله بإخراجها ـ ويعني تلك القيم ـ للناس).

هل يعني أنه جاء الآن في مواجهة انتهاء دور النظام الغربي؟؟؟ فما هي ظواهر انتهاء هذا الدور؟؟؟ وكيف تتم مواجهته؟؟؟ وهو الذي قال منذ قليل لا بد من قيادة تملك إبقاء وتنمية الحضارة (المادية)، التي وصلت إليها البشرية عن طريق العبقرية الأوروبية؟؟؟

قد لا يلومني القراء، مثقفين وعلماء، إذا رجوتهم شيئاً من الإيضاح.

نُسخٌ أتاحتها الطفرة

إذا كان هناك من ينسب إلى الطفرة سوءات أو سيئات تسللت إلى المجتمع، فأصبحنا نعاني من ردود فعلها ولكن بغفلة أو غياب ذهن عن خطرها على مستقبلنا على المدى الطويل، فإن من الحق والإنصاف أن لا ننسى أن الطفرة، كانت وراء الكثير الذي يصعب حصره من معطيات التقدم التي لم نكن لنحلم بها لولا ما أتاحته هذه الطفرة من الإمكانيات، التي ندر أن وجدت في أي مجتمع في التاريخ الحديث.

ومن البدهيات التي لا مجال للمماحكة فيها، أن ما نسميه (الطفرة) لم يكن سوى وفرة المال في حدود تعتبر (أسطورية) بالنسبة للمئات، الذين لم يكونوا يحلمون بالألف ريال فإذا بهم يلعبون بالملايين... وهذه الملايين جاءت دون جهد أو معاناة... جاءت قيمة لقطعة أرض موروثة ومنسية، أو اشتريت بما لا يزيد على ألفين أو ثلاثة آلاف.

ووجود الملايين رصيداً في البنوك عاملُ إغراءٍ أو حتى إقناع بالتوسع في متع الحياة ومباهجها، ومنها السفر إلى بلدان كان السماع بها أو عنها شيئاً يشبه حكايا ألف ليلة فما أسهل أن يطير إليها (المليونير)، وأن يرى في هذه البلدان نماذج من الحياة لم يجد ما يمنع أن يتخذها... أن ينقلها إلى بيئته، فالدارة نموذج فيه هذا التقسيم الراقي أو المتقدم من بهو أو

قاعة للاستقبال، ومن غرف للنوم، ولكل غرفة أو غرفتين دورة مياهها، ثم منطقة الطهو والأكل، وقاعة الطعام لعدد موفور من الضيوف، وهذا بالإضافة إلى حمام السباحة الخ. . . وعدد السيارات المترفة، تنتظره بسائقها، والأخرى تنتظر السيدة، وبسائقها أيضاً وللأبناء سياراتهم يقودونها بأنفسهم، وهي قد أهديت لهم إما بمناسبة النجاح، وإما على مجرد وعد بالنجاح. . .

كل هذا ليس أكثر من نَسْخٍ لما رآه صاحب الرصيد الضخم في البلدان التي أتيح له أن يطير إليها وأن يرى هذا النموذج المتقدم أو المتطور للحياة التي يستطيع أن يحياها ما دام المال تحت اليد، وهو يتكاثر وينمو، إذا كان قد هداه الله إلى تجارة، رابحة، وما أكثرها ونحن نراها تملأ المراكز التجارية الضخمة، التي كانت هي أيضاً نُسَخاً لنماذج في بلدان لعلّها لم تصل إلى المستوى الذي نشهده الآن، إلا بعد عقود عديدة من السنين. بينما نحن نشهدها تقوم وتفتح أبوابها، وتعرض الأصناف المتميزة من سلعها، في فترة سنوات تقل عن العشر.

فمن حسنات الطفرة إذن أنها أتاحت لنا أن نَنْسَخَ صوراً (طبق الأصل) لما نراه في بلدان أتاحت لنا الطفرة أن نراها. ولكن مع هذه الحسنات، كانت هناك السوءات أو السيئات ومنها ـ على سبيل المثال ـ الإسراف الذي يبلغ حد (السَّفَه) والتعلق بالمظاهر، إلى حد التخلف العقلي. . . فالفستان الذي تظهر به الفتاة، في حفلة، تُدعى إليها، ولا تقل قيمته عن خمسين ألف ريال ولا بد أن يكون من منتجات باريس، وفستان (الفرح) الذي تتجاوز قيمته المليون من الريالات أو الدولارات، ولا تظهر به العروس إلاّ في تلك الليلة، ثم يعلق في خزانة الملابس (إلى الأبد)

والساعة التي يرتفقها (المليونير)، ولا تقل قيمتها عن مئتي ألف ريال، لأنها مرصعة بالماس وغالي الجوهر... ولا أتحدث عن السيارة التي ترتفق شهراً أو شهرين، ثم تهجر، وتجيء أخرى، وكل منهما من مستوى ما فوق المئة والخمسين ألفاً...

كل هذه سوءات دون شك... كان يمكن أن تُغتفر، ويُغض النظر، لو أن صاحبنا هذا مدَّ يده إلى الرصيد بمبلغ يبني مدرسة، أو عمارة للعاجزات عن دفع أجرة المسكن، أو أقام معماراً أوقفه للإنفاق من إيراده على سبعة طلاّب يدرسون التقنية العالية، التي لن نصل إلى مستوى متطور حقيقي في مسيرتنا بدون توافرها.

أمّا ردود الفعل السيئة على تنشئة الأبناء، فحكاياتها طويلة ومتعددة وهي من عوامل الاستفزاز الخطِير في نفوس المئات أو الألوف الذين يقفون في طوابير طلب العمل، ولا يجدونه رغم المؤهلات الجامعية... وأصف هذا الاستفزاز بأنه خطير، لأنه حين يتراكم تتكون له قدرة على رفض الواقع، وهو ما نرجو أن لا نصل إليه. بفضل الله ثم بحكمة أولي الأمر.

الكفاءات المجمّدة

كأني قرأت متعجّلاً، الكلمة الطيبة التي ينفحنا بها الدكتور محمد عبده يماني في جريدة المدينة المنورة الغراء، وفيها ذلك العدد الذي تجاوز ألفاً وخمسمئة من الذين استجابوا لطلب أحد البنوك، لثلاثين يدرّبون على أعمال معيّنة ثم يوظفون.

العدد الذي أعلن عن طلبه البنك هو «ثلاثون فقط»، فإذا هو يتلقى ألفاً وخمسمئة طلب ومن الذين تقدموا من يحملون مؤهل البكالوريوس، وربما الماجستير.

وهذا باختصار يعني أن عندنا أعداداً كبيرة من المؤهلين جامعياً، أو من خريجي الثانوية العامة، محتاجين إلى العمل ـ أيِّ عمل ـ وبعبارة أصرح، إلى الراتب الذي يُدفع لهم آخر الشهر لقاء قيامهم بهذا العمل.

ولقد كثُر الكلام عن هذه الظاهرة، والتي يمكن أن تسمّى (كارثة)، إذ كيف يمكن أن تتصوّر بِطالةَ هذه الألوف من المتعلمين، في بلادنا، وهي بحمد الله واحدة من أغنى بلدان العالم. . . والأسئلة التي تتراكم في الذهن، ومعها الاستنتاجات والظنون، والتحسّب لما يمكن أن تسفر عنه الظاهرة على المدى الطويل أو حتى القصير كثيرة وجديرة بالاهتمام.

كثر الكلام، كما كثرت ـ في نفس الوقت ـ البيانات من الجهات

المعنية من الأسباب وكلّها أسباب معقولة، ووجيهة، تصيبنا بالبكم، فلا ننبس بكلمة، ولكن تظل المسألة في تعقيدها، وفي الحيرة أمامها... والسؤال عن الطريقة التي نصل بها إلى حل، ثم عمّا هو أهم وأخطر... وهو أن الجامعات تفتح أبوابها في نهاية كل عام دراسي عن ألوف، من الشبان والشابّات، جميعهم، يطلبون عملاً... ولم يعد طلب العمل استكمالاً لترفٍ أو لمجرد المظهر، وإنما لضمان لقمة العيش الشريف ـ ولقمة العيش فقط ـ وليس الزواج أو الفيلا أو السيارة المترفة، فما الذي أعددناه لمواجهة هذه الجيوش الجرارة من الكفاءات التي تطلب عملاً فلا تجده... أو يمكن أن يوجد، ولكن بمفهوم تشرحه بيانات الجهات المعنية.

قال لي أحد الذين دار بيني وبينهم حوار بالهاتف: إنك أنت أيضاً مطالب أن تبحث وأن تقترح حلولاً... لا يكفي أن تكتب عن المشكلة كما فعل الدكتور محمد عبده يماني... قل لنا أو للجهات المعنية، ماذا يجب أن نفعل لمواجهة المعضلة.

وهنا أطيل الوقوف، عند أكابر رجال الأعمال، الذين بلغ من نشاط أو حركة الأموال بين أيديهم أو خزائن بنوكهم، أن يبحثوا لها عن مجالات استثمار في كل بلد، إلا المملكة العربية والسعودية... أو دول مجلس التعاون لدول الخليج العربي... هؤلاء يستطيعون أن يفعلوا الشيء الكثير إذا اتجهوا بنشاط الاستثمار إلى بلادهم... صحيح أنهم لا يجدون بين المؤهلين من جامعاتنا المهارات التقنية أو الفنّية... ولكن من الذي يمنعهم أن يبتعثوا المئات والألوف إلى اليابان وألمانيا وكوريا الجنوبية، ليستوعبوا المهارات المطلوبة، لصناعات خفيفة أو ثقيلة، إذا استغنت عن

استيراد إنتاجها دول متقدمة صناعية، فلن تستغني عنها دول كثيرة، بل مئات الدول، في أفريقيا وحتى في آسيا. . .

ثم هناك فكرة تدور في ذهني منذ فترة طويلة. . . وقد توصف بأنها عفوية، أو حتى بدائية. . . ولكن ما الذي يمنع أن أضعها أمام الجهات المعنية. وهي أن نقسم ساعات العمل في جميع الدوائر الحكومية والمرافق الكبيرة، إلى فترتين، كل فترة أربع ساعات فقط، فالموظف الذي يعمل من الساعة الثامنة مثلاً ينتهي دوامه بعد أربع ساعات فقط ليحل محله على الفور موظف آخر يعمل الساعات الأربع الباقية في نفس العمل. . . أعتقد أننا بهذه الطريقة نستوعب ضعف أعداد الموظفين والموظفات العاملين في أجهزة الدولة ومرافقها في الوقت الحاضر.

بلى. . . فكرة بدائية وعفوية. . . ولكنها نصف الحل لهذه الجيوش الجرارة التي تنفتح عنها أبواب المدارس والجامعات.

الاعتراف بالسلبيات، وشرح القصور

في مقال للأستاذ فهد العريفي، نشرته هذه الجريدة بعنوان (الإذاعة تكسب). كان الثناء و الإعجاب من نصيب الإذاعة... وكان نصيب التلفزيون، مساءلته عن كثير مما يستطيع هذا الجهاز أن يقدمه للمشاهدين، ولكنّه يلتزم تجنّب، ما لا تتجنّبه الإذاعة مع أن الجهازين مرتبطان بوزارة الإعلام. مما يعني أن إفساح المجال في الإذاعة، وتضييقه أو حصره في التلفزيون، ليس خاضعاً لتوجيه معين من الوزارة... وهذا بدوره يحمّل التلفزيون مسؤولية الانكماش الذي يبلغ أحياناً حد الضمور.

وينتهي الأستاذ العريفي، بعد استعراض وجهة نظره في الجهازين، مع الثناء على الإذاعة، والصمت أو سرد الملاحظات بالنسبة للتلفزيون، إلى كلمة استوقفتني بمضمونها الذي أشعر أنه حيوي، والطلب عليه شديد الإلحاح، ولكنه مهجور، جرت الأقلام، على التباعد عنه، لأسباب ـ إذا كانت محسوبة أو ينظر إليها بتحسّب وحذر ـ فإنها في الحقيقة لا وجود لها إلاّ في أذهان الذين يحرصون على أن تظل مقالاتهم، محلاّة بما أسميه (الاسترضاء والإرضاء) والدليل هو التباين بين ما يذاع ويثني عليه الكاتب في الإذاعة، وبين ما يشاهده الجمهور في التلفزيون.

وكلمة الأستاذ العريفي تقول: (إن أمة تعترف بسلبياتها، وتشرح

قصورها، هي أمة جديرة بأن تحيا متعافية، تدرك الداء، وتصل إلى الدواء بدون أن تضع على الجروح غلالة رقيقة تسترها عن عيون الناس، وهي تنغر في اللحم والعظم أجارنا الله).

ولقد ذكرتني هذه الكلمة للأستاذ العريفي، بصديق من بلد مجاور يُعنى بقراءة صحفنا وقد لا يتاح له أن يرى ما يعرض على شاشتنا الصغيرة... قال:

ـ اسمح لي أن أقول يا أستاذ أنتم في المملكة شعب فريد لا مثيل له في عالم اليوم

ـ ماذا تعني؟؟؟

ـ ببساطة يا أستاذ جميع صحفكم، خالية تماماً من أية كلمة عن نقص، أو خطأ أو حتى (جريمة) إلاّ تلك التي تنتهي بما تقضي به المحكمة ويتم تنفيذه من العقاب... باختصار: كل شيء عندكم «تمام التمام» فهل هذا هو الواقع فعلاً؟؟؟

ـ أما أن كل شيء عندنا (تمام التمام) فهو ما نحمد الله عليه... إذ ما أكثر ما يقع في مختلف بلدان العالم، ولا يحدث أن يقع عندنا إلاّ في النادر... ولكننا لا نختلف عن غيرنا من شعوب العالم، في أن النقص، أو الخطأ، أو التقصير، أو حالات الإهمال، وحتى البيروقراطية موجودة... وتستحق أن تتناولها الصحف... ولكن إذا كانت الصحف لا تنشر، أو إذا كان الكتّاب لا يتناولون إلا الجانب المضيء من الحياة عندنا، فالسبب الكامن ـ والمعروف في نفس الوقت ـ هو أننا (تعوَّدنا) أن نترك ذلك للمتضرر، من النقص أو الخطأ أو التقصير، الذي يستطيع أن

يتقدم به إلى المسؤولين، وأن يطالب، أو يتظلم، وقد جرت العادة أن لا تهمل أية شكوى أو ظلامة.

ـ ولكن الجمهور. . . والمسؤولين معهم لا يعلمون شيئاً عما يصل إلى حد الظاهرة المتفشية، أو المنتشرة على نطاق واسع، وواجب الكاتب، أو الصحافة، أن تقول شيئاً. . . أن تنبّه. . . أن تعالج المشاكل، وأن تلتمس لها الحلول.

قلت: وأنا الملم الجلسة وأحاصر الحديث مع الصديق من البلد المجاور:

ـ كل شيء عندنا يا أستاذ هو (تمام التمام). . . والحمد لله على كل حال.

النخلة . . . أي بني

(١)

مما درجت عليه وتعوّدته مع كل كتاب أقتنيه، أو يهدى إليّ، أن أسرع إلى الاتصال بالمجلد المتخصص البارع، لتجليد الكتاب، فإذا كان الكتاب من المستوى الذي يعتبر نادراً في موضوعه ومادته، فإنني لا أتردد في اقتناء نسختين منه، لأني ابتليت في فترة من أيام الشباب، بمن يستعير كتاباً، فلا أراه بعد ذلك إلى الأبد. فأضطر إلى شراء نسخة أخرى إذا وجدتها. . . وما أكثر الكتب التي لم تجد الناشر الذي يعنى بإعادة طبعها، فحرمتُ منها وعشت، ولا زال أعيش الفكرة فيها وعنها، والفرق كبير، بين أن أعايش فكرةً تكاد تبهت أو تتلاشى في الذهن، وبين أن أحتضن الكتاب، وأستغرق في قراءته.

ومن الكتب التي أهديت إليّ، الجزء الأول ثم الثاني، من كتاب: (أي بنيّ) لمعالي الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، وشاءت الصدفة أن يكون المجلّد عندي يوم تلقيت النسخة المهداة من معاليه، فناولته إياها، مع مجموعة من كتب عربية وإنجليزية، منها كتاب بقلم السيدة بي نظير بهوتو، رئيسة وزراء باكستان وعنوانه (ابنة الشرق) تروي فيه جانباً من

قصة حياتها، ومأساة إعدام أبيها، على يد الرئيس (ضياء الحق) الذي انفجرت الطائرة التي تقلّه فقضى نحبه في ذلك الحادث الرهيب. ومنها أيضاً كتاب بعنوان (مدينة واحة عربية) وهو عن مدينة عنيزة، بقلم (ثريا التركي، ودونالد كول) وموضوعه الشيّق، (التغير في مدينة عنيزة) وقد أهدى إلي من الأستاذ محمد الخريدلي، من القيادات الشابة في هذه المدينة، التي قضيت فيها ثلاثة أيام ضيفاً على أعيان أهلها مع من دعوا إليها من جامعة الملك سعود في الرياض.

ولقد جاءني المجلّد بالكتب مجلّدة تجليداً أنيقاً كما هي صناعته وعنايته، فكان الجزء الثاني من كتاب (أي بني لمعالي الدكتور الخويطر، هو الذي وجدت نفسي أختاره قبل غيره، وآخذ في تقليب صفحاته فإذا بي أجد في الصفحة قبل المقدمة عبارة إهداء رقيقة، لا أجد خيراً من أن أقول إنها أخجلت تواضعي، وإني أحسست بالأسف الشديد، على أني دفعت بالنسخة إلى التجليد قبل أن أقرأ هذا الإهداء الرقيق، إذْ كان أقل ما يجب هو أن أتقدم إلى معاليه بعبارة شكر لا تفي بحقه، ولكنها توفّر عليّ ما أشعر به الآن من الحرج والضيق.

والنخلة هي الموضوع الأول في الجزء الثاني من (أي بني). . . ولقد توهّمت في البداية أني سأقرأ عنها عشراً أو عشرين صفحة، فإذا بي أستغرق مع ما يقرب من مئة صفحة عن النخلة التي يسمّيها الدكتور أو يمنحها لقب (العمّة) ثم يمضي يفصّل الأسباب التي استحقت من أجله النخلة هذا الوصف أو اللقب الجميل.

ولقد استوقفني الكثير فيما كتبه الدكتور عن (العمّة). . . ولكن الأجدر بأن يستوقف كل قارئ مُتأنٍّ، هو هذا الأسلوب الذي يفضي به الدكتور

الخويطر عن فكره وآرائه والأسلوب هنا لا يعني الزخرفة وإبداع المعاني فحسب، وإنما هو هذه اللغة، التي أتساءل كيف يمكن أن لا يحتفل بها قراء هذه الأيام، وهم أشد حاجة إلى الجواهر في هذه اللغة التي أبدع الدكتور أيما إبداع، في التمسّك بها، تمسّك بديهةٍ وطبع،وليس تمسك تقعّر وتظاهر.

وينبهنا الدكتور منذ البداية أن كتابه أو الجزء الثاني من الكتاب، سيكون على نمط (حديث المجالس)... «يأتي عفواً، ويجري سمحاً رهواً، لا يصعد حزْناً، ولا ينزل منحدراً يسير مع الطريق المستقيم، ما لم يُغره بالانحناء ما يجهله يتنكبه إلى شعبة منه»... ويذكر القرّاء أن الجزء الأول هكذا كان أيضاً.

فإن «العمة»، من جهة، وروح (حديث المجلس) من جهة أخرى، تغريني بأن أتحدث إلى قرّاء هذه الكلمة، أحاديث فيها ما يمتع... وما يستحق أن تعكف عليه أذهان القرّاء، وهم يستقبلون أيام إجازةٍ طويلة، يشارك الآباءُ فيها أبناءهم، إن لم يكن في رحلات إلى الخارج ففي رحلة مع حديث المجالس وأخبار العمة الحنون.

النخلة. . . أي بني

(٢)

وحين تستغرقني قراءة (حديث المجالس) في الجزء الثاني من كتاب معالي الدكتور عبد العزيز بن عبد الله الخويطر، أجد ذاكرتي، بل ومشاعري تعود بي إلى الأيام الأولى من معايشتي للحرف والكلمة، والأيام الأولى من هذه المعايشة، التي استمرت كل العمر، هي أيام الصبا، وأعني بها السنة الثالثة عشرة وما بعدها من العمر. . . إذ ما يرتفع بعد هذه السن، لا بد أن يُعد في سني وأيام الشباب.

في تلك الأيام، أهداني، الدكتور الأستاذ حسني الطاهر رحمه الله، كل مؤلّفات الأستاذ مصطفى لطفي المنفلوطي. وكأنّه أراد أن يخفّف من تعلُّقي بجبران خليل جبران، الذي كنت أدمن قراءة أعماله، وبلغ من تعلقي به أن أخذت أكتب رسائلَ ومقطوعاتٍ قصيرة، أقلد فيها جبران. . . ولن أنسى فرحتي بهذه المجموعة من كتب المنفلوطي، كما لن أنسى توجيه ذلك الصديق الدكتور حسني الطاهر، وقد كان مساعداً لمدير الصحة العام، وكنت مقيدَ أوراقٍ، لا أكاد أفرغ من عملي في قيد الأوراق أو كتابتها على الآلة الكاتبة حتى أنهمك، أو أعكف منهمكاً، إما في قراءة

جبران أولاً، ثم المنفلوطي وإما في كتابة الرسائل والمقطوعات... وكان توجيه الدكتور حسني، أنه لا بأس بأن أقلِّد جبران فيما أكتب... ولكن عيب جبران أنه ـ مع جمال أسلوبه، وتحليق خياله وانطلاقه في عوالمه المسحورة الساحرة ـ عيبه أنه فقير في ألفاظ معانيه... تنقصه الجزالة والكلمة العربية الفصيحة المنتمية إلى التراث والأصالة... فإذا أدمنت قراءة المنفلوطي فإن ما أكتبه مقلداً جبران في خياله منطلقاً في أجوائه، سوف يُكسبني ما ينقص جبران، وهو اللغة أو الكلمة الفصيحة الجزلة. ثم ما أكثر ما ذَكر ونبَّه ونصح بأن ألتزم كواجب يومي قراءة القرآن الكريم، إذ لا وجود لكتاب في الدنيا يشع ويسطع بسر ومكنون الفصاحة في اللغة العربية مثل ما يشع ويسطع بهما في الكتاب الكريم.

ولعلّها اليوم مناسبة انتهزها لأذكر ذلك الصديق الكريم، ولأعترف أني مدين له بالتوجيه و«اليقظة الفكرية»، رغم أنه كان يكبرني بما لا يقل عن خمس وعشرين سنة... كان طبيباً ومساعداً لمدير الصحة العام، بينما كنت أنا يافعاً، أخطو خطواتي الأولى المتعثرة في طريق الحرف والكلمة... كان من تواضعه، أن يجلس إليّ ويأخذ في أحاديث شتى عن العلماء والفلاسفة وقادة الفكر، فيهز ذهني، ومداركي، بل كان يقرأ لي ما نقله عن الإنجليزية إلى العربية من شعر شيلي وكيتس وبايرون... كان هو نفسه عاشق شعر وفن وموسيقى، ولا أدري إن كان قد ترك مؤلفات بقلمه فيها الكثير مما لا أشك في أنه كان يبدعه... وحسبي اليوم أن أعيش هذه اللحظات مع ذكراه وأن أضرع إلى الله أن يتغمّده برحمته ورضوانه، وأن يجزيه عني خير الجزاء، وأن يغفر لي انقطاعي عنه، بعد أن غمرتني الأيام بمشاغلها وهمومها.

قلتُ، أو استطردت، إلى هذه الذكرى البعيدة، بمناسبة (حديث المجالس) في كتاب الدكتور الخويطر، الذي أجد في أسلوبه وجزالة ألفاظه، وتسلّل معانيه إلى الذهن والنفس هذا التسلّل الدقيق الرقيق، ما ذكرني بتوجيه الدكتور حسني الطاهر، إلى العناية بجزالة اللفظ، وإشراقة الفصحى والحرص على أن أتخلّص مما سمّاه (عيباً) في لغة جبران خليل جبران، بقراءة كتب مصطفى لطفي المنفلوطي، التي أعتقد أن جيلنا في تلك الأيام، لم يكن يجد أفضل منها لتقويم الأسلوب، واللغة وحسن اختيار اللفظ لأداء المعنى.

ولا أعني بالطبع أن أسلوب الدكتور الخويطر، يشبه أسلوب المنفلوطي، أو أن في معانيه مشابه من معاني المنفلوطي، أو أنه متأثر به أي نوع من التأثر، وإنما الذي أعنيه هو العناية البالغة بجزالة اللفظ، والحرص الواضح على أن يأتيك المعنى في إهابه العربي الأصيل.

ولنأخذ مثلاً من الصفحة الأولى في مقدمة هذا الجزء، عن (حديث المجالس)... حيث يقول: (لا يجدُّ بحيث يملُّه غيرُ الجاد... ولا يمعن في الهزْل فلا يجدُ فيه الجادُّ حصةً له... يحاول أن يكسب هذا، دون أن يفقد ذاك... همّه أن يرضي ويفيد).

ثم عن عدم ذكره مصادر بعض المعلومات ـ خاصة التراث في الأدب العربي في الجزء الأول يقول: (لعدة أسباب: أحدها أنني لم أرد أن «أجفل الشباب» بأن هذا كتاب علمي أكاديمي فتثقل (طينته) عليهم. ووضع المصادر في الهوامش يخرجه عن «عفوية» حديث المجالس... ثم يقول بعد التفاتةٍ في الماضي عن الاختلاف بين الجيلين: (هذا الجيل الراكض اللاهث هو الذي أخاطبه، ليقفَ ويلتفتَ خلفَه، ويرى ما كان عليه أبوه

بمحيطه وآلاته، ومعداته، ودوابّه ومساكنه وعاداته، بأفراحه وأحزانه... بآلامه ومُتَعه... بوجدِه وعدمه... بتفكيره وانطباعاته... ويقارن بين ما كان والده عليه... وما هو نفسه عليه... ويقول لما حباه الله به (الحمد لله رب العالمين).

أما عن العمّة، وما يقرب من مئة صفحة عنها، في الجزء الثاني من (أي بني) فموعدنا كلمة تالية إن شاء الله.

النخلة . . . أي بني

(٣)

وما كتبه الدكتور عبد العزيز الخويطر عن النخلة، فيما يقترب من مئة صفحة، يحملني على أن ألتمس سبيلاً إلى الهرب، من بقية فصول الجزء الثاني من كتابه (أي بني). وقد يحسن بي ألاّ أخفي أني رجّحت أن الدكتور الخويطر، قد كرّس من وقته جانباً كبيراً لدراسة النخلة وحدها فضلاً عن هذه الفواكه التي يأخذ في الحديث عنها في الفصل الثاني من الكتاب بعنوان (مما تنبت الأرض)، الذي ألمح فيه أسماء مواقع في الحجاز، ـ وفي الطائف ـ خاصة، بَعُد عهدُنا بها، وبالطائف، بعد أن أقتحم بيوتنا، (مكيّف الهواء) بالتبريد فلم نعد نهرب من لهب (الجوزاء) وما يليها من فصول أو شهور الصيف، كالأسد والسرطان والسنبلة إلى الطائف، وإنما الهرب، حتى من الغرف المكيّفة، إلى أوروبا أو أميركا، حيث المطلب يتغير من (برودة الهواء)، التي يحققها هذا المكيّف على أحسن وجه في بيوتنا، إلى أنواع متنوعة من المتع التي تظل ميسورة وموفورة في تلك البلدان، ولا سبيل لوجودها، لا في المصايف ولا في المشاتي عندنا.

ولقد استوقفني الكثير من الذي عنى بالكتابة عنه. وعن النخلة بالذات، إلى حد جعلني أتساءل، كيف لا تطالب كلّيات الزراعة في جامعاتنا، بأن يمنحها الدكتور جانباً من وقته للحديث عن النخلة، مما لا أستبعد أن العلماء الذين يحاضرون في فنون الزراعة، يرحبون به ـ بل يتمنونه ـ ليدرك طلابهم من أبنائنا، هذه العلاقة الحميمة ـ أو التي ينبغي أن تكون حميمة ـ بينهم وبين النخلة. . . وهي (العمّة) كما طاب للدكتور أن يسميها. وأن لا يفوته الدعاء بأن يبقيها الله لنا وأن يكثر من أمثالها، وأن يحسّن نسلَها.

والعلماء في كليات الزراعة، يعجبهم دون شك، أن يسمعوا من الدكتور أن (النخل قبائل وأفخاذ، وعوائل وأفراد، تنضوي مجموعة تحت مسمى «نوابع»، وهي أحسنها، ومجموعة تحت اسم «السلّج» وثالثة تحت اسم «الدقل». ونجد في الهامش أن (أبا حنيفة الدينوري في مؤلّفه ـ كتاب النبات ـ ذكر أن كل ما لا يعرف اسمه من التمر فهو «دقل» واحدته «دقلة». ومع تقديري لعلم العلماء في كليات الزراعة في جامعاتنا، فإني أستبعد أن تكون لهم هذه العناية بمعرفة أسماء قبائل وأفخاد النخل، وعلى الأخص، حين يصنّف الدكتور مراحل أهل التمر، فيقول: (بعضها يؤكل خرافاً بسراً ومنصّفاً أو رطباً. . يؤكل طريًّا أو يكنز في الثلاجات أو مضغوطاً، وبعضها لا يؤكل إلا منصّفاً أو رطباً). . . ثم يمضي، في بيان أفضل ما له من الاستعمال (أن يكنز. . . بعضه أحمر. . . وبعضه أصفر. . . بعضه الرطب منه أقرب إلى الاحمرار، وبعضه إلى السواد. . . بعضه يكاد يكون أحلى من العسل. . . وبعضه حلاوته موزونة. . . بعضه حجمه كبير وبعضه حجمه صغير. . . بعضه نواته صغيرة، وآخر نواته كبيرة. . . بعضه نواته طويلة. وبعضه نواته قصيرة.

ثم عن النخلة، أنها كانت في الماضي رئيسة في حياة الناس. لأن غذاءهم الرئيسي فيها... الوجبة المؤكدة في اليوم هي وجبة التمر، وما قد يأتي بجانبها من ماء أو لبن وقد يصحبها (عند الموسرين) «خبز وزبد». تقدم في وقت الموسم رطباً جنياً طازجاً... وتقدم في غيره ممّا هو مخزون بطرق مختلفة.

وعن هذه الطرق المختلفة نجد معلومات، تدخل في باب العلم الذي لا يعرفه إلاّ المتخصصون وبهذه الأسماء لأوعية الكنز مثل (الجصّة) التي يصفها المؤلف، وصف خبير ببنائها ومواد هذا البناء. ولا يفرغ مخزون هذه المعلومات لدى الدكتور، فهو حين يذكر أنها «مباركة» أو أنها كلها «بركة» يأخذ في شرح خصائص تكوينها، إذ ليس فيها شيء لا يستفاد منه... فهنا الجذع الذي يستعمل لأغراض متعددة، منها الأبواب للبوابات الخارجية التي لا تحتاج إلى زبرقة وتجميل... ثم (الجذمار) أو (الرمح) ويزيدك غموضاً تكتشف به عمق جهلك (بالعمة) حين تجد أن هذا الجذمار هو «العسيب» والأدوار التي يلعبها ومنها أنه يستعمل «عصا» يساق بها الحيوان، وقد يساق بها الإنسان، إذ هي أداة المعلم في الكتّاب.

ويستطرف الدكتور، فيقص علينا قصة قريب يدرس عند معلّم في أحد هذه الكتاتيب. وقد ملأ هذا القريب سواعده (بالقداح).

وهذا القداح لم أسمع به قط، ولا وجود له في حواضر الحجاز على الأرجح. وللقارئ أن يرجع إلى الصفحات من «٣٢» إلى الصفحة «٣٧» إذ هو مما يكاد يكون مجهولاً، في أكثر أقاليم المملكة... ولم يقل لنا الدكتور، هل لا يزال موجوداً، يمارسه الصبية رغم ما فيه من ألم وإيلام.

وبعد.

فالكتاب بجزئيه، رحلة ممتعة، مع طبيعة هذه الأرض، وأهلها، وعاداتها، ونباتها وحيوانها، في الحواضر والمدن، وفي الصحراء، وفيه معلومات، قلت إنها تدخل في مفهوم العلم الذي لا يستغني عنه، حتى المتخصصون ولكنه أكثر من ضروري، لترسيخ الانتماء إلى هذه الأرض، وذلك فيما أعتقد من مسؤوليات التعليم في المراحل قبل الجامعة، ولولا أن الدكتور هو وزير المعارف، ويجد الحرج، والكلام الكثير لو أنه اقترح تقرير كتابه في مادة المطالعة، لولا ذلك، لرجوته، أن يفعل خدمة للجيل من أبنائنا في قضية انتمائهم إلى الأرض.

الدكتور عبد الجليل طاشكندي. . . مركز معلومات

ولا بد أن أبادر إلى الاعتراف بأني مدين له بمعلومات، زوّدني بها عن مواضيع يكتشف هو مما يقرأ من المقالات التي تنشر لي في هذه الجريدة، أو في غيرها، أني محتاج إليها. . . ولقد حدث ذلك أكثر من مرة، منها وجود ترجمة لرواية (جورج أورويل) تمّت منذ أكثر من عشرين عاماً في لبنان، وقد سبق بهذه المعلومة، ذلك الشاب الذي تكرّم بدوره بتزويدي بنسخة لترجمة لهذه الرواية أيضاً تمت في مصر في عام ١٩٥٦. ولم يكتف الدكتور عبد الجليل طاشكندي بالمعلومة، بل أرسل إليّ نسخة من الترجمة بدون أن يعلّق عليها بشيء، وكان يسعه ذلك لما كان في لغة الترجمة اللبنانية من ضعف وهزال. . . كأنَّ الذي اهتم به هو أن استدرك ترجمتي للرواية بالتنبيه إلى أنها قد سبق أن تُرجمت منذ سنين.

ومن هذه المعلومات التي يجود بها عليّ، آراء عن تعريف (الثقافة) طرحت في ندوة جمعت عدداً كبيراً من العلماء، وانتهت في تونس ـ على الأرجح ـ إلى اختلاف أولئك العلماء أو عدم إجماعهم على تعريف جامع مانع، أو حاسم، بحيث يمكن القول إن (الفكر) لن يصل إلى هذا التعريف الحاسم. ولعلّ (مجلة الثقافة) التي أصدرتها لجنة الترجمة

والتأليف والنشر في مصر وكان الأستاذ أحمد حسن الزيات ـ رحمه الله ـ صاحب امتيازها. . . لعل هذه المجلة تعطي المثقفين فكرة عن مضمون الثقافة، إذ كانت الوعاء الذي جمع بحوثاً ومقالات لأكابر رجال الفكر في تلك الأيام، ومنهم الدكتور طه حسين والعقاد، والمازني. . . فكأنها باجتماع هذه الأقلام فيها، قدمت «المضمون» لكلمة (الثقافة) دون تعريف أو تحديد.

ولأعهد إلى الدكتور عبد الجليل طاشكندي، الذي لا أجد ما يمنع أن أسميه (مركز معلومات) يتميز عن المراكز الكبيرة عندنا أو في العالم، بأنه يتطوّع لتزويدك بالمعلومة، بدافع حرصه وغيرته على المعلومة أن يطرأ عليها التشويش أو الخطأ أو الانحراف.

وآخر ما جاد به عليّ الدكتور عبد الجليل معلومات يمكن القول من جانبي إنها موسّعة عن مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية في الرياض وذلك بمناسبة ما كتبته عن المعلومات التي قرأتها في مقال نشرته هذه الجريدة، للدكتور عبد الله القدهي، وتساءلت فيه عن غياب التعريف به، مع أن المقال الذي أعجبت به يؤكد أنه واحد من علمائنا الذين لنا أن نعتزّ ونفخر بهم.

فعن الدكتور عبد الله القدهي قال الدكتور عبد الجليل طاشكندي إنه في الوقت الحالي نائب رئيس مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، وأخذ يذكر، مؤهلاته، بداية من البكالوريوس في علوم الجيولوجيا من جامعة القاهرة، ونهاية بالدكتوراه من جامعة تكساس ثم من جامعة بريستول. . . ثم هذه المراكز العلمية التي تولّى إدارتها، ومنها عمادة كلية العلوم في جامعة الملك سعود، إلى جانب عضويته في جمعيات منها

(الجمعية الجيولوجية العالمية)، ورياسة اللجنة الفنية للطاقة الذريّة الخ. . .

أما عن مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية فقد زوّدني بمعلومات اعترف بأني أحسست بخواء ذاكرتي أو رأسي كله،وحالة النوم أو البيات فيها، إذ كيف يمكن أن يعيش إنسان مثلي خالي الذهن عن كل هذا الذي ذكره (موثقاً) الدكتور عبد الجليل عن هذه المدينة التي تأسست منذ عام ١٣٩٧هـ. أي منذ ثلاثة عشر عاماً. لو سمّيت ذلك (فضيحة) لما تجاوزت الحقيقة التي ينبغي أن آسف لها، وأن أتقدم بالشكر الجزيل للدكتور عبد الجليل، الذي أجد في تعريفه بنفسه، أو بعمله أنه (أستاذ مشارك) بجامعة الملك عبد العزيز، ويدير مركزاً للمعلومات في جريدة عكاظ الغرّاء.

وإذا كان لي أن أضيف إلى الشكر والتقدير شيئاً، فهو أنّه (الأستاذ) الذي أتطلّع إلى أن يتولّى أفضل ما يستحقه علمه، وجهده،وحرصُه على أن يضيء الساحة الفكرية بما لديه من شموع، وأن أهنّىء جريدة عكاظ، بأن يكون الدكتور عبد الجليل مصدراً للإشعاع فيها.

غياب الاستراتيجية العربية

يصعب على أي مَعْنِيٍّ بالشؤون العامة من المفكرين والكتّاب أن يسلِّم، في مواجهة الكثير الجهير من التحديات التي تتلاحق وتكاد تنذر وتهدد هذه الأيام بأن الاستراتيجية العربية غائبة، أو لا وجود لها... وليس جديداً أن نقول إن أي استراتيجية لا تتواجد بين يوم وليلة، وإنما هي التخطيط المدروس على أساس من احتمالات يفرضها الوضع الجغرافي أولاً، ثم الاقتصادي والمتغيراتِ السياسية التي توضع في الحساب، وذلك في صميم وصلبِ كِيانِ الدولة، ومنذ فترة من الزمن قد ينبغي أن لا تقل عن خمس عشرة سنة... لا بد أن لكل دولة عربية تخطيطها الاستراتيجي الخاص دون شك، ولكن استراتيجية دولةٍ، لا يعني استراتيجية (مجموعة الدول العربية) التي ما زالت تعيش وتواجه قضاياها الساخنة منذ قدّر (عليها) أن تواجه عدوّها الكامن في قلب أراضيها وقد اعترف المجتمع الدولي به دولة ضمنت الولايات المتحدة لها البقاء والوجود، وتطور هذا الضمان، بتطور المتغيرات في المنطقة إلى أن بلغ مرحلة التحالف (الاستراتيجي)، بحيث أصبحت إسرائيلُ ذراعَ أميركا، التي تحمي مصالحها في المنطقة. وبطبيعة الحال، ليست المنطقة، فلسطين وما يجاورها أو يتاخم حدودها فقط، وإنما هي في الواقع الساحة العربية من المحيط وإلى الخليج. ولا حاجة بنا إلى تحديد هذه المصالح، إذ هي من الوضوح بحيث لا يجهلها أحد.

وحين نستبعد وجود استراتيجية (لمجموعة الدول العربية) فإننا نعلم يقيناً، أن إسرائيل تملك استراتيجيتها التي لا بد أن ندرك أنها موضوعة منذ ولدت أو وجدت، وإنها تعكف على مراجعة خطوطها وتقوم بما تفرضه المستجدات حولها من تعديل. وليس من المبالغة في شيء أن نقول إن هذه الاستراتيجية هي شغلها الشاغل، ربما في كل لحظة من ليل أو نهار. لأنها بهذه الاستراتيجية تستطيع أن تواجه عشرات الملايين من العرب، الذين لم يخفوا قط، أنهم متربصون بها، ويتلهفون على محوها من الوجود... وهي لا تأخذ ما يقال حتى على ألسنة عامة الشعوب في الشارع، مأخذ الاستهانة وعدم المبالاة، بل هو عندها الحقيقة المقررة، والمسلّم بها بل والمنتظرة في يوم ما قريب أو بعيد. بل هي الحقيقة التي يعيشها كل فرد إسرائيلي في الأرض العربية المحتلة أو في فلسطين كلّها، بحيث لا يغمض له جفن ويستسلم للنوم، إلا وفي حسبانه أن الصباح القادم قد لا يجده في مكانه بل قد لا يكون له وجود إطلاقاً، لأن ذلك اليوم القريب أو البعيد آت، ما دام يعيش وحوله مئة وعشرون مليوناً من العرب، يمكن أن ينقضّوا عليه في أية لحظة... إنها (استراتيجية التخوف والخوف)، رغم التحالف الاستراتيجي مع الولايات المتحدة بل رغم كل ما تمتلكه، وتصنعه من أسلحة تصنعها أو تستوردها... ولا ننسَ أن لهذه الاستراتيجية مواليدها من الحركة والتكتيك اللذين تفرضهما المتغيرات الساخنة حولها، ومن هذا التكتيك ما سبق أن مارسته وأعطتْنا دروسَه، وهو (الحرب الإجهاضيّة) أو العمليات المحدودة ولكنها الخطيرة، بنتائجها التي تضمن بها آخر سلاح تشعر أنه يعدّ للانقضاض عليها، أو قوات يحتمل أن تتحرك في اتجاهها.

قد يحسن بنا أن نبتعد عن التذكير اليوم، بانتصارات للعدو، قابلتها ـ

للأسف الساحق المرير ـ هزائمنا. . . ومن هنا لا بد أن نحسب كل ما وقع (على) العنصر الأساسي الغائب وهو استراتيجية الدول العربية (مجتمعةً). . . وأعني تلك الاستراتيجية التي تخطط لها مجموعة الدول العربية الواحدة والعشرين، والتي تغطي ساحة الشرق الأوسط من المحيط إلى الخليج.

ولا ينهض البحث، والطلب على هذه الاستراتيجية، كما ينهض في هذه الأيام، التي عاد فيها إسحاق شامير إلى سدّة الحكم في إسرائيل، ومن أهم عناصر وزارته، أولئك الذين يرفضون باستهتار صريح كل نداءات السلام، حتى تلك التي دعت إليها ـ ثم تراجعت عنها بتصريحات، لغمطت وجه جيمس بيكر بالكفاية من الهباب وبالسخرية الوقحة الصاخبة من حكاية أرقام تلفون البيت الأبيض التي أعلنها في انتظار أن يسمع تراجعاً عن معزوفة الحرب، التي أصبحت مفهومة وإن كانت تتستّر بشيء من التحايل على مفهومها الذي يستبعد الصخَب يتاح له التسلل إلى الأذان (العربية) بنعومة يمكن أن تخدع عن العزم المبيَّت، الذي لم يُخفه عدد من وزراء التشدّد الرافض صراحةً لكل عروض واقتراحاتِ السلام، أو الحوار مع الفلسطينيين، حتى مع أميركا، وليس ذلك إلاّ الإعلان الصريح، باقتلاع الضفة والقطاع وحتى الجولان، وامتداد ألسنة اللهب إلى الأردن، الذي تقرر، أن يكون هو الوطن البديل للفلسطينيين في الضفة الغربية والقطاع، ومنه إلى ما يليه ـ على المدى الطويل المنتظر ـ لقيام (إسرائيل الكبرى) في كل أرضٍ يمكن أن تصل إليه الاستراتيجية، ومواليدُها من التحرك والتكتيك.

وفي مؤتمر القمة الاستثنائي الذي عقد أخيراً في بغداد، كانت احتمالات الخطر على الأردن وصلت إلى حدٍ يشبه (اليقين)، إلى جانب

عدد من القضايا التي طُرحت للبحث والمناقشة، ثم اتخاذ القرارات التي يرجّح أنها كانت بمثابة (استراتيجية تجمع عليها الدول العربية) ربما لأول مرة وكان قرار خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز، بدعمِ ومساندةِ المملكة الأردنية الهاشمية، ليستمر صمودُها باعتبارها المستهدف الأول في المشروع الإسرائيلي، لمحةً تكشف عن الوصول إلى هذه الاستراتيجية، تدعمها أو يمكن أن يحققها تحذير العراق الصريح بأنه سوف يواجه أي اعتداء على أي دولة عربيةٍ بالضربة الرادعة.

ورغم ترجيح هذا الاحتمال يصاحبه إحساسنا بالتفاؤل وبشيء من الاطمئنان، فإن نجاح شامير في تأليف وزارته من هذه العناصر المتشدّدة، ثم تراجع الولايات المتحدة عن كل ما تورط في الإفضاء به وزير خارجيتها جيمس بيكر، إلى حد تجديد الوعود بالدعم والتأكيد على ضمان الوجود الإسرائيلي مع مقتضيات التحالف الاستراتيجي إيّاه، رغم ذلك، فإن الثغرة التي لم تُحجزْ أو تُسد أو تُردم، تظل مستسرةً، في أن الاستراتيجية العربية ـ التي نفترض أنها وجدت في القمة الاستثنائية في بغداد، تجنّبتْ أن تكون لها ضربةٌ إجهاضية كتلك التي جربناها من إسرائيل أكثر من مرة. وبمعنى آخر. . . إن استراتيجيتنا العربية المُجمع عليها في مؤتمر القمة الاستثنائية، اكتفتْ بتقرير الاتفاق على (الرَّد) وتجنّبتْ تماماً رغبة البدء بأي تحرُّك، إلاّ إذا وجدتْ نفسها في موقف الدفاع.

هل لي أن أقول إن الاستراتيجية المجمع عليها من الدول العربية لا تزال غائبة؟؟؟

سؤال أخشى أن لا تجيب عنه إلاّ إسرائيل.

ثالث الحرمين الشريفين

يتوافد المسلمون إلى قبلتهم لأداء فريضة الحج كل عام. وقبلتُهم «الأولى»... ثالث الحرمين الشريفين، لا يزال بين أنياب الصهيونية المتوحشة، ولا يزال أهله من العرب المسلمين الفلسطينيين يواجهون أبشع ممارسات القمع والإرهاب ومنها قتل الأبرياء من الشباب والصبايا والأطفال، واعتقال المئات وراء المئات، إلى حد اضطرهم إلى فتح معتقلات وسجون جديدة تستوعب الألوف والمسلمون، وهم يتوافدون على المسجد الحرام، لأداء فريضة الحج، لا ينسون أن المسجد الأقصى، سبق أن تلظَّى حريقاً، وأنه لا يزال يُنتهك استهتاراً واستهانةً، فهو يتلفّت في آفاق الأقطار الإسلامية التماساً لوثبةِ المسلمين، وبحثاً عن غيرتهم على مقدساتهم، وتطلعاً إلى جهادهم في الحق، واجتهادهم في أداء ما فرضه الله عليهم من الذود عن عقيدتهم بالاستشهاد والتضحية والفداء.

ويواجه العرب المسلمون في فلسطين هذه الأيام، أخطر ما تخطط له إسرائيل، منذ كتبت على مدخل الكنيست (إسرائيل الكبرى ـ من النيل إلى الفرات)... يواجهون تصميم رئيس وزراء هذا الكيان المسخ، على قيام هذه الإسرائيل الكبرى، بتوطين جميع المهجّرين السوفيت، بل وغير السوفيت من أوروبا الشرقية، في الأراضي العربية المحتلة ومنها القدس، وقطاع غزّة، بل ربّما منها ما لم يُكشف عنه الغطاء بعد من أراض، لا

يمنع شامير وعصابته أن يتطلع إليها من منطق إسرائيل الكبرى، ومن الإصرار على رفض كل مشاريع السلام المطروحة ثم من يقينه بأن اليهود في الولايات المتحدة الأمريكية، سوف يظلون يدعمون تخطيطه الخطير والرهيب، وهم ـ بدورهم ومن جانبهم ـ واثقون أن أميركا، سوف تظل على ما هي عليه من انحياز سافر بل وغاشم، لكل خطوة تخطوها إسرائيل، للتوسع والاستيطان على حساب الفلسطينيين، وعلى حساب أراضيهم المغتصبة، متجاهلة، ودون تحسّب أو احتراز، جميع ما يربطها بالدول العربية من مصالح وعلاقات لأن مصلحتها الأهم ـ في تقديرها السقيم ـ أن ترضي اليهود في أميركا، وأن تضمن بهم، تحقيق مصالح الهدف الاستراتيجي الكامن وراء غرس إسرائيل في قلب الشرق الأوسط «ولاية أمريكية»، ومنطلقَ ضغطٍ. تستطيع أن تخمد به أميركا كل انفجار محتمل على المدى البعيد.

وبعد:

ففي هذه الأيام المباركة، ومئات الألوف من المسلمين من جميع أقطارهم، يؤدون فريضة حجهم، ويزدحمون في المسجد الحرام... وفيه قبلتهم، ما أجمل، وما أروع أن يذكروا وهم في رحاب الله أن قبلتهم الأولى لن تتخلص من براثن الصهيونية ومخططاتها الشرسة ما لم يعملوا هم على تخليصها... وأن مسجدهم الأقصى، سوف يظل أسراً في أيدي اليهود، ومسرحاً لاستهتارهم وفجورهم ما داموا هم متقاعسين عن الوثنية لتخليصه وإنقاذه.

لقد استطاع الصبية وبحجر الأرض الفلسطينية، أن يزلزلوا إسرائيل، ولكن لا ننسَ أن القمع والإرهاب، وقتل الصبايا والشباب والأطفال لا

يزال يؤكد أن المخطط الصهيوني لابتلاع كل فلسطين، والانتشار بالمهاجرين السوفيت وغير السوفيت، لابتلاع ما لا بد أن يستوعب الملايين، من أراض سوف يبتكر الغرض، مسوّغات الاستيلاء عليه، ولا سبيل إلى صدّهم ما دامت الاستراتيجية الأمريكية تحقق أغراضها، وما دام المسلمون يتقاعسون عن أداء واجب الجهاد والاستشهاد والفداء.

معنى الإرهاب عند أميركا

جاء تصريح الرئيس (بوش) بتعليق أو وقف الحوار بين الفلسطينيين والولايات المتحدة وعلى التحديد، بين منظمة التحرير وأميركا، رداً بمعنى العقوبة على عملية الإنزال التي قامت بها عناصر فلسطينية بالقرب من مياه تل أبيب. لأن العملية ـ في تقدير الولايات المتحدة ـ عمليةٌ (إرهابية) نقضت أو تعارضت مع التزام منظمة التحرير بنبذ ورفض الإرهاب، إلى جانب التزامات أخرى، طمعت منظمة التحرير، ومعها الفلسطينيون كافة، أن تكون سبيلها، ليس إلى الحوار مع أميركا فحسب، بل إلى دعم جهود السلام، التي ظلّت أملاً، لهثت وراء تحقيقه جميع الدول العربية طوال الأعوام الثلاثة الأخيرة.

ومع أن السيد ياسر عرفات، ومعه بعض القيادات في المنظمة، قد نفى مسؤوليته عن العملية التي قام بتنفيذها ـ كما قيل ـ (أبو العبّاس) زعيم (جبهة) التحرير الفلسطينية فإن الولايات المتحدة، لم تكتف بهذا النفي، لأن (أبو العباس) محسوب على منظمة التحرير، ولذلك فإنَّ ما كان يرضي الولايات المتحدة، ويرفع عن منظمة التحرير مسؤوليتها عن العملية هو أن (تفصل) أبو العباس، أو تنزل به وبالعناصر التي قامت بعملية الإنزال نوعاً من العقوبة، التي تعبّر عن رفضِ ونبذ المنظمةِ للإرهاب.

ولا أجد في الأخبار التي نشرت أو أذيعت عن عملية (الإنزال) هذه، تفاصيل عن النتائج التي حققتْها. . . ولكني أميل إلى الاعتقاد أن إسرائيل قد واجهتها بالقوة الساحقة فاخترمتْ حياةَ أكثر هذه العناصر من جهة، وتكتّمتْ ـ كالعادة ـ على خسائرها مهما كان حجمها. ولكنها انتهزتها فرصة للتهويل، والإثارة، وتأكيد ادعائها التقليدي، بأن منظمة التحرير الفلسطينية لم تتخلَّ عن (الإرهاب)، ولم تلتزم بما تعهدت به، وبذلك قدّمت للولايات المتحدة، وهي الحليفة الاستراتيجية، المبرر المنتظر والمطلوب الذي يجري وراءه اللوبي اليهودي، لوقف الحوار بين الفلسطينيين وأميركا، مما لا يعني أقلَّ من (تبخير) جميع الآمال التي كانت معقودة للوصول بجهود السلام إلى غاية ما، أو إلى موقف يقرّب الساعين إلى هذا السلام من الهدف، الذي ـ أرى من وجهة نظري ـ أنه يبتعد كثيراً، ليس بتعنّت وتشدد حكومة شامير فقط، وإنما لأن الولايات المتحدة الأمريكية نفسها، لا تجد الثغرة التي تستطيع أن تنفذ منها إلى خطوة حاسمة. وهي مطوّقة بجدار فولاذي الصلابة من إصرار اليهود في أميركا، على تحقيق حلمهم الكبير، وهو ظهور (إسرائيل الكبرى) ومعها (هيكل سليمان)، الذي قد لا ننسى أن أكابر المصممين في أميركا، وفي غيرها، قد أعدّوا جميع التصاميم، (ومجسَّماتها)، مع تقدير ما سوف يتكلفه تشييده من أموال، عندما يتم لهم إزالة المسجد الأقصى من الوجود. ولا تقيم إسرائيل، والصهيونية العالمية،وزناً أو تضع حساباً للزمن، الذي يتم بعده هذا العمل الإجرامي، لأنها على يقين بأن القدس كلها أصبحت جزءاً من الأراضي العربية المحتلة، والتي تقرر أن تظل محتلة، إلى ما شاء الله.

فالإرهاب إذن هو الذي اتكأت عليه أميركا لوقف الحوار بينها وبين الفلسطينيين وهنا، ترتسم في أذهاننا، عشرات من إشارات الاستفهام،

والدهشة، عن معنى الإرهاب الذي استوجب وقف الحوار، وهذا من جهة، ومن جهة أخرى سؤال أرجو أن لا يفسّر بالتهوين من الجهود التي بذلت أو كانت تبذل طوال الفترة التي انقضت منذ بدأ الحوار حتى اليوم. وهو، ما الذي أسفر عنه هذا الحوار؟؟؟ ما هي النتائج الملموسة التي أفرزها هذا الحوار؟؟؟ هل هي تصريحات السيد جيمس بيكر التي نعترف أنها أبرقت بشيء من الجدّية، ولم تجد عند شامير غير المُضيِّ في التعنّت، مع المزيد من التصريحات المكشوفة، عن إصراره على استيطان اليهود المهجّرين من الاتحاد السوفيتي ومن أوروبا الشرقية، في الأرض المحتلة، لأن هذه الأرض في منطق إسرائيل اليوم هي الجزء الذي لن ينفصل عن (إسرائيل الكبرى).

ولنقل إن الحوار كان مطلوباً، وكان وراءه (وهم) احتمال الوصول إلى السلام، وإن ما اعتبرته أميركا إرهاباً، قد أدّى إلى وقفه... ولكن أليس من الطبيعي أن نسأل الرئيس بوش، عمّا تمارسه إسرائيل من أعمال القمع، ومنه القتل اليومي للصبية والنساء والشيوخ: هل له من معنى غير (الإرهاب) الذي تحرّمه أميركا على الفلسطينيين، وتبيحه، لقوات (جيش الدفاع الإسرائيلي)؟؟

بل لنفرض، أن أميركا تعتبر القمع والقتل، دفاعاً، عن قوات إسرائيل التي تهاجمها وتحصبها (بالحجارة) عناصر الانتفاضة، فماذا نسمّي، أو تسمّي أميركا قصف مخيمات الفلسطينيين وغير الفلسطينيين في جنوب لبنان بالقنابل، وقتل العشرات وراء العشرات، يوماً بعد يوم.

كل هذا ليس (إرهاباً) يستحق أن تراه أميركا... أو تحاسب عليه حليفتها إسرائيل. بينما تقوم أميركا ولا تقعد، لعملية إنزال، بالقرب من

سواحل تل أبيب، قامت بها عناصر فلسطينية، ضاقت ذرعاً بما ضاع من الوقت في الحوار وما سُفح من دماء صبايا وشباب الانتفاضة، في انتظار نتيجة الحوار، فأقدمت على عمليةٍ قالت: (فلنعد إلى النضال المسلّح). . . وليكن بعد ذلك ما يكون.

في أجواء العدوان

وأعني هذه الأجواء التي باتت تُبرق بنُذُر الحرب التي لا يستبعد أن تغامر بها إسرائيل لتحقق جملة أهداف، منها الخروج من مأزق السلام الذي لم يعد في مصلحتها أن يتم بينها وبين الفلسطينيين على أي أساس من الأسس التي طرحت، وكانت تساهم فيها أميركا، ثم انسحبت منها، بعد أن أوقفت الحوار بينها وبين منظمة التحرير الفلسطينية بمبرّر عدم التزام المنظمة بنبذ الإرهاب، لأن السلام اليوم، إذا تورّطت إسرائيل في مسايرة المطالبين به والداعين إليه، يفوّت عليها الفرصة الذهبية، التي تتيحها هجرة اليهود من الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، لترسيخ احتلالها للأرض المحتلة والقطاع والجولان، وهو رأس الحربة للانطلاق نحو ظهور إسرائيل الكبرى. ومنها القضاء على الانتفاضة عسكرياً، وهو الحل الذي تتوثّب للوصول إليه، ولا يتعذّر أن تلجأ إليه، رغم ما تعلم أنه يعرضها لاستنكار (مَظْهري) على المستوى الدولي... وهي قادرة على أن تستوعب وتواجه بالاستهتار والتجاهل كل صور الاستنكار... ما دام ذلك هو سبيلها إلى بلوغ الغرض.

ثم من هذه الأهداف ـ وربما كان أهمها ـ أن تكتشف (مصداقية) التهديدات التي ملأت الأجواء بالرَّد الرادع إذا ما أقدمت على الاعتداء على أي دولة عربية... ولا يعني ذلك أنها لا تخشى هذه التهديدات، وإنما

يعني في الدرجة الأولى، وضع هذه التهديدات أمام اختبار مكشوف. . . ولذلك فهي لن تغامر بحرب بعيدة الخطوط والمواقع. . . يكفيها لهذا الغرض أن (تناوش) جارتيها اللصيقتين، وهما الأردن وسوريا. . . وهي تلجأ إلى هذه المناوشة، بتكتيك فيه من الحذر بقدر ما فيه من التحدي، وبخطوات محسوبة، هدفها البعيد إلى جانب الاختبار الوصول إلى (الوطن البديل) للفلسطينيين الذين ستلجأ إلى فنون من الوسائل لإرغامهم على ترك أرضهم للمهجّرين السوفيت. . . وحجة العدو في حكاية (الوطن البديل) هذه أو مبرره هو أن المساحة المحدودة جداً في فلسطين، تقابلها في الأردن مساحات واسعة أمامها الامتداد إلى أعماق بعيدة، وخالية من السكان في نفس الوقت، في الأراضي العراقية وكذلك في الأراضي السعودية. . . وبالمناسبة أذكر حديثاً دار بيني وبين أمريكي في أميركا، قال فيه إنه لا يفهم، لماذا لا يحرص العرب على استقبال الفلسطينيين في الشتات وفي فلسطين نفسها، وهم ـ ويعني العرب ـ يشكون من ترامي مساحات الأراضي القفراء، وقلة عدد السكان. . .

بطبيعة الحال، يستحيل أن نظن أن الدول العربية غافلة عن كل هذه النذر والاحتمالات ولكن المشكلة المعقّدة التي يجب أن تُحل في مواجهة لاعتداء المحتمل، هي الاتّفاق على التصدي لهذا الاعتداء أو العدوان، وفي نفس الوقت صرفُ النظر تماماً عن حكاية الاستنكار أو التنديد، أو اللجوء إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة. . . والتوجّه الحازم والحاسم إلى (الذات العربية) وحدَها. . . وعلى الدولتين العظميين، أن تختار لنفسها ما يتفق مع مصالحها في العالم العربي. . . ولا شك إطلاقاً في أن هذه المصالح، سوف تفرض عليها الموقف المعقول والمطلوب.

ترى هل نجرّب؟؟؟ أم أننا سنفضل موقف التردد، وانتظار الضربة، لنتحرك في الاتجاه الصحيح؟؟؟

سنضربه كلنا

أذكر أني قلت في كلمة منذ فترة، إن ما يتطلبه موقف الدول العربية من دولة العدوان هو وجود (استراتيجية عربية). . . وعنيت على التحديد: (استراتيجية للدول العربية مجتمعة كلها). وذهبت إلى ترجيح أن قرارات القمة الاستثنائية التي عقدت في بغداد، كانت بمثابة هذه الاستراتيجية المنشودة، تدعمها أو يمكن أن يحققها تحذير العراق الصريح بأنه سوف يواجه أي اعتداء، على أي دولة عربية بالضربةِ الرادعة. وعقّبت في نفس الكلمة بأن (الاستراتيجية العربية المجمع عليها في مؤتمر القمة الاستثنائية اكتفت باستراتيجية (الرد). . . وتجنّبتْ تماماً قرار القيام بأي تحرك، إلاّ إذا وجدت نفسها في موقف الدفاع. وهذا، بغض النظر عمّا يلمح به من التزام الدول العربية بسياسة أو استراتيجية السلام فإنّه يحاول أن ينفي عنها مقولة أنها متربّصة بالعدو الإسرائيلي، وأن أملها على المدى البعيد أو القريب، أن تقذف به إلى البحر الذي قدم منه. وفي هذا، إضافة إلى ذلك رفض ما دأبت الولايات المتحدة الأمريكية، ومعها مجموعة الدول الدائرة في فلكها على اتهام الدول العربية به، وهو العنف الذي نفضت منظمة التحرير الفلسطينية يدها منه وهي الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني، مما جعل الدول العربية ـ من جانبها ـ تنتهج استراتيجيةً للسلام التزمت الاكتفاء بالرد الرادع، إذا وقع من إسرائيل عدوان ما على أي دولة عربية مجاورة أو بعيدة. . . فنحن العرب من هذه الزاوية والمنظور نقف في خط الدفاع

فقط، ومن هنا يتوارى (مبرر) دعم أميركا للعدوان الإسرائيلي الذي أصبحت حكومة شامير تستعد له لترسيخ احتلالها للأرض العربية المحتلة والقطاع ومرتفعات الجولان، إن لم يكن بضربة إجهاضية تأخذ شكل (المناوشة) على الدول المجاورة اللصيقة، فبالتحدي السافر الذي يتمثل في حركة الاستيطان الموسّعة، ببناء عشرات الألوف من الوحدات السكنية في ساحات اختارتها في القدس من جهة، وفي غيرها من الأرض المحتلة من جهة أخرى... وتلك خطوة، تليها خطوة قد تستغرق وقتاً، وهي تهجير الفلسطينيين عن أرضهم، إلى ما تسميه (الوطن البديل) في الأردن، وما وراءه من أراضي الدول العربية المتاخمة لحدود الأردن.

في كل هذه التصرفات، قد لا تحرك إسرائيل قوات (جيش الدفاع الإسرائيلي)، ولكنها رغم ذلك تصل إلى أهدافها... وهنا تواجه الدول العربية مأزقاً، يوقفها أمام سؤالين: الأول هل يلزمها ما اتفقت عليه في قمة بغداد بالتزام الاكتفاء بموقف الردع ما دام العدو لم يَضرب ليُضرب أم أنها تعتبر انطلاق إسرائيل في تنفيذ مخططها (دون تدخل قوات الجيش الإسرائيلي) اعتداءً أو «ضرباً»، يعطيها الحق في أن تضرب أو أن تردع؟؟؟

تلك مسألة، لا أشك في أن الدول العربية لا تغفل عن طرحها للمداولة ولا بد أن تصل فيها إلى قرار بخطة، ممكنة التنفيذ عند اللزوم.

ومسألة أخرى، يثيرها خطاب فخامة الرئيس صدام حسين رئيس الجمهورية العراقية الشقيقة في (المؤتمر الإسلامي الشعبي العالمي لمناصرة العراق)، وهي ما سبق أن أشرت إليه في كلمة سابقة وأعني (استراتيجية الدول العربية مجتمعة). فقد أفضى فخامته في خطاب طويل متعدد الاتجاهات، بتصريح أعلن فيه أن (أمن العرب غير قابل للتجزئة، فأمن دولة عربية، هو أمن جميع الدول العربية)... وكان أهم ما صرّح به

فخامته هو: (فهمنا كل المجتمعين في بغداد ـ ويعني مؤتمر القمة ـ أن الذي يضرب أي دولة عربية؟؟؟ سنضربه «كلُنا» كل ضمن إمكانياته). ثم أضاف فخامته (لا سبيل إلى فصل «الأمن المحلي» لدولة عربية عن الأمن الأعم. . . عن أمن الدول العربية كلها).

وقوله (سنضربه كلّنا. . . كل ضمن إمكانياته) يعني صورة أو مفهوماً للدفاع المشترك، الذي تلتزم به كل دولة عربية ضمن إمكانية كل منها. والرئيس صدام حسين أفضى بهذه التصريحات على رؤوس الإشهاد في المؤتمر الإسلامي الشعبي، مما استوعبته إسرائيل دون شك، ومعها الدول التي تدعمها، وهي ليست من الغباء، بحيث يبلغ بها الغرور، حد الاستهانة أو الغفلة عمّا تعنيه هذه التصريحات. . . ومن هنا، فإن استراتيجيتها ستأخذ اتجاهين: أحدهما حساب إمكانية كل دولة مجاورة أو لصيقة، أو حتى ملتزمة بمعاهدة الكامب، والآخر تحميل قوات (جيش الدفاع) مسؤولية التعامل، ليس مع جبهة عربية واحدة، بل مع عدة جبهات. . . وهنا يأتي دور الدعم الأمريكي، الذي التزم وتعهّد بالحفاظ على (وجود) إسرائيل. وفي الوقت نفسه حتمية رعاية مصالح أميركا وعلاقاتها بدول المنطقة وما يمكن أن يطرأ من اصطدام هذه المصالح والعلاقات بمصالح وعلاقات الاتحاد السوفيتي، الذي لن تحمله بريسترويكا جورباتشوف على خفض توازنه الاستراتيجي أو على الاستسلام الأيديولوجي للغرب، وهو ما صرّح به جورباتشوف نفسه في آخر مواجهة له مع اليمين العسكري المحافظ، الذي أعلن عما يصل إلى حد استنكار سحب قواته من المجر وتشيكوسلوفاكيا.

ما يواجه الدول العربية في هذه الفترة، كثير وخطير جداً، فلا يسعنا إزاءه إلا أن نرجو لقضية الشرق الأوسط أن تمر من عنق الزجاجة بسلام.

مقاومة إخماد الانتفاضة

ما استطاعت أن ترسّخه الانتفاضة، وبعمق بعيد، في وعي جماهير الأمة العربية، هو أن الإنسان الفلسطيني في الأرض التي احتلَّها العدو الإسرائيلي، منذ نكبة حرب الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، قد أخذ على عاتقه مسؤوليةَ رفضٍ ومقاومة هذا الاحتلال، بعد أن طال انتظاره للحلول الموعودة، التي ثبت عجزُ الواعدين بها، على الصعيد الدولي، وقبله ـ العربي ـ عن الوصول إلى أي حل. وكان أسمى وأروع ما سجَّله التاريخ ـ ولأول مرة ـ أن هذه الأرض المحتلة هي التي انتفضت... هي التي قدّمت السلاح وهي التي تفجّرت، ليس عن بارود وقنابل ومتفجرات... وإنما عن (الحجر)... عن الحصوة التي يلتقطها الطفل من الأرض، فتغدو سلاحاً، يحصِب به قوات (جيش الدفاع الإسرائيلي)... وقد لا تصل الحصوة إلى مرماها المنشود، ولكنها تصل إلى الأبعد والأعمق، وهو ضمير العالم... ووجدان الإنسان... تهزّهما... توقظه من غفوته ونسيانه ليعي ويدرك، أنها من هذه الأرض ومن يد الطفل، الذي اقتنصته رصاصة الجندي الإسرائيلي المدجّج بالسلاح، فأردته قتيلاً على الأرض، وفي يده حصوة أخرى تذهب معه إلى قبره، شهادة تضحية و استشهاد وفداء.

وها نحن نرى هذه الانتفاضة في شهرها الثلاثين، وهانحن نرى

الحجارة، لا تزال في أيدي الأطفال، والصبايا والشباب... نراها عبر شاشات التلفزيون، وكل منا على مقعده المريح أو فراشه الوثير ونرى معها الجنديَّ المدجّج بالسلاح، يقتنص ويصرع، الصبية على صدور الأمهات، أو على أرض الشارع، تشرب الدماء الذكية الطاهرة لتتفجر من جديد بالمزيد من الحجارة في انتظار المزيد من الضحايا والشهداء.

نتبادل كلمات الإعجاب، وقد نصعّد الآهات والزفرات، وقد نذرف الدموع، ونحوقل ونحسب، ونضرع إلى الله أن ينتقم من الظالم... ولكن ماذا بعد كل ذلك؟؟؟

في تصريحات لشامير، وعناصر وزارته، أن الحل أو التصرف العسكري كفيلٌ بإخماد هذه الانتفاضة. وهذا التصرف، يختلف عن أعمال القمع والإرهاب التي ظلت تمارسها قواته المسلحة طوال الثلاثين شهراً وحتى اليوم... ولكن لا شك في أن قوات الجيش، سوف تواجه هذه الانتفاضة كما تواجه أي معركة حربية. وهي تعلم أن الرأي العام العالمي، سوف يستنكر... ومن المحتمل أن الولايات المتحدة ـ الحليف الاستراتيجي ـ سوف تردد عبارتها المشهورة في مثل هذه المغامرات، وهي (القلق)!!! ولكن كل هذا ـ قَلَّ أو كثُر ـ لن يعطّل هذا التصرف العسكري، الذي يكفل القضاء على الانتفاضة... وما يلي ذلك، معروف وإن كان لا بد من ذكره فهو اعتبار الأرض المحتلة، ومنها قطاع غزة ومرتفعات الجولان، والقدس بكاملها جزء لا يتجزّأ من إسرائيل.

ويستحيل قطعاً أن نتوقّع أن الانتفاضة بالحجارة في أيدي الصبية والصبايا يمكن أن تصمد وأن تستمر في مواجهة هذا التصرف العسكري. سنشهد على شاشات التلفزيون، ـ وهذا إذا لم تطرد إسرائيل عدسات

التلفزيون الأمريكي ـ سنشهد سقوط الصرعى والقتلى، وسنشاهد الدماء تشربها الأرض، أو تحتضنها صدور الأمّهات... ولكننا سنكون ـ كما هو الواقع الآن ـ على المقاعد المريحة والفراش الوثير...

والسؤال الذي لا بد من طرحه، هو عن الخطة التي أعدتها الدول العربية، أو يمكن أن تعدّها لمقاومة عملية إخماد الانتفاضة التي تستعد لها إسرائيل؟؟؟

وسؤال آخر وهام ومنطقي ـ من وجهة نظري على الأقل ـ وهو: أليس التصرف العسكري الذي سوف تلجأ إليه إسرائيل لإخماد الانتفاضة، اعتداءً يشمله الإنذار بردع أي اعتداء يقع على أي دولة عربية؟؟؟ مفهوم أن الصبية والصبايا الذين سوف تحترم حياتهم إسرائيل إضافة إلى كل من قتلتهم، طوال الثلاثين شهراً... مفهوم أنهم ليسوا (دولةً عربية) ولكن ماذا هم؟؟؟ ما هي هويتهم؟؟؟ وكيف يمكن أن نصنّف وضعهم في مواجهة العدوان؟؟؟

ومرّ يوم عرفات العظيم

مرّ يوم عرفات العظيم، وتم للمسلمين ـ بفضل الله ـ أداء فريضتهم، وهم متمتعون ربما بما لم يسبق له مثيل في تاريخ الحج، وليس فقط بالأمن والأمان والاطمئنان والاستقرار، إذْ إن كل ذلك قد أصبح من الحقائق الثابتة الراسخة في أرض الطهر والإيمان، وإنما بالكثير من الرغد وما يُعتبر رفاهاً بكل معيار. فالألوف من الذين وقفوا بعرفات، كانوا يستظلون من حرارة الجو، ووهج الشمس، بخيام توافر في الكثير منها تكييف الهواء وكل ما تستلزمه إقامتهم على صعيد عرفات من وسائل الراحة... وهذا إلى جانب ما توافر لهم من عربات النقل المريحة تنطلق على طرق معبّدة ناعمة، وعبْر خطوط عُنيت الدولة بتخطيطها، تخطيطاً يحقق سيولة المرور، دون اختناقات أو توقف طويل، وذلك بما أنشأت من جسور وأنفاق تتوافر فيها الإضاءة القوية كما تتوافر الوسائل المستعدة دائماً لنجدةٍ وإسعاف في أي حادث طارئ على طول خطوط الاتّصال من مكة المكرمة، وإلى عرفات، ومنها إلى المزدلفة ومنى، مع الحرص على التوقيت الذي يستهدف أداء النسك، في وقته المحدود دون أي تعويق من أي نوع. وكل هذا تلاحقه الرعاية الصحية المتكاملة، وعلى أعلى المستويات، سواء في المراكز والمستوصفات المنتشرة على طول طريق المناسك، أو في المستشفيات المركزية، التي توافر فيها من الأطباء

الاستشاريين والمتخصصين، ما قد لا نبالغ إذا قلنا إنه قد بلغ والحمد لله المستوى الذي يقلُّ نظيره في كثير من بلدان العالم.

ولعلّ مما لا يشعر به الكثيرون من الحجاج والعمار، أن خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود، وولي عهده صاحب السمو الملكي، نائب رئيس مجلس الوزراء ورئيس الحرس الوطني، ومعهما وزير الدفاع والطيران والمفتش العام، ووزير الداخلية والقيادات العليا. . . كلّها تظل ساهرةً على متابعةِ مسيرة الحج، وتوالى التوجيه والتنبيه وتأكيد الحرص على أن يؤدي كلُّ حاج، نسكه في جميع المشاعر، محفوفاً برعاية الله سبحانه، ثم بالعيون الساهرة على أمنه وأمانة، وصحته، وراحته ورفاهية، مما يعطي العالم الإسلامي، بل والعالم المستوى الأرفع والأسمى لإحساس المملكة بواجبها في خدمة الحجيج، والهدف الأعظم هو أن يكتب الله لكل حاج أداء الفريضة، ثم العودة إلى وطنه وأهله سالماً معافى بإذن الله.

ومع كل ما تمتلئ به عيون الحجاج، من مشاهد التكامل في كل مرفق من مرافق خدمة الحجاج فإن الدولة بتوجيه خادم الحرمين الشريفين، تضع البرامجَ، تِلْو البرامج للتطوير والارتقاء بمستوى الخدمة، إلى ما يجعل الحج، أرقى نموذج عرفه التاريخ للوسائل التي تستوعب الهدف الأعظم وهو أداء هذا الركن من أركان الإسلام بالمستوى الذي يليق بجلال الركن في عقيدة المسلم، وبما يبعث في وجدانه مشاعر الحرص على المبادئ والمثل والقيم، التي سطع وشعّ بها جوهر العقيدة السمحة، كما أرادها الله سبحانه لعباده من المسلمين.

مرّ يوم عرفات العظيم، ويأخذ المسلمون طريقهم إلى المزدلفة ومنى،

وفي وجدانهم وقلوبهم صيغة النهج، الذي تحث عليه كلمات (لبيك اللهم لبيك)... لبيك للتضامن والآخاء وللمسيرة الواحدة جهاداً في سبيل الله، ووقوفاً في وجه أعداء الله. وتضحيةً وفداءً لتخليص أولى القبلتين وثالث الحرمين، من رجس البغي والطغيان... من رجس الصهيونية الحاقدة ومعها من يدعمونها من أنصار الظلم، والعدوان.

يوم عرفات

المسلمون من حجاج بيت الله الحرام، اليوم، في عرفات. وعلى ألسنتهم، وفي أعماق قلوبهم وضمائرهم ووجدانهم تلك الضراعة المخلصة ترتفع بها أصواتهم وأكفهم إلى الله سبحانه، أن يغفر لهم ذنوبهم وأن يشملهم بعفوه ورضاه... وبنفس مشاعر الإيمان والخشوع، يضرعون إليه سبحانه أن يلهم قادتَهم وأولي الأمر في بلدانهم، السبيل إلى اجتماع الكلمة، وأن يسدد خطاهم جميعاً في معالجة قضيتهم الكبرى، في هذه المرحلة من تاريخهم، وهي قضية أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين... قضية الأرض العربية الإسلامية التي لا تزال ترسف في إغلال البطش والقمع والإرهاب، ولا تزال أعمال القتل غير المسؤول تصرع الشهداء والضحايا، من الصبية والصبايا والشبان، في مواجهة السلاح الذي قدّمته الأرض،... في مواجهة الحجر أو الحصوة، تقذفها الأيدي الصغيرة الناعمة فيكون جزاؤها القتل أو تكسير عظامِ الأيدي والسيقان أمام عين الأم أو الأب أو الجد العجوز... ولا حيلة للجميع ولا سبيل للنجاة... ولذلك فالإصرار على الكفاح، والاستمرار، في رمي الجنود المدجّجين بالسلاح... وبالرصاص، وبالغازات القاتلة، بهذه الحجارة، التي تقدمها الأرض، وقد انتفضت وقالت لإنسانها العربي المسلم، لا...

لا... للاحتلال بعد اليوم. لا سبيل إلاّ الانتفاضة تستمر ويستمر معها الاستشهاد والتضحية والفداء.

المسلمون اليوم في عرفات، وفي تجمّعهم ووقفتهم الضارعة إلى الله، صورة نابضة بالحياة والحيوية لوحدة الصف واجتماع الكلمة، والمسيرة الواحدة، جهاداً في سبيل الله، ونصرةً لدين الله، وغوثاً لإخوانهم في الله... ثم في سبيل هذا الوطن العربي الذي استباحه العدوان، واغتصبه الطغيان... في سبيل تخليص أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين من مخالب البغي والعدوان.

المسلمون اليوم في عرفات، يرددون: (لبيك اللهم لبيك... لا شريك لك لبيك... إن الحمد والنعمة لك والملك... لا شريك لك)، وتلك هي (صيغة) النهْج الإسلامي كما أراده الله لأمة محمد بن عبد الله صلوات الله عليه... الصيغة التي يجدر بالمسلمين في جميع بقاع الأرض أن ينطلقوا من مضمونها، إلى ساحاتِ الجهاد... إلى الأرض المغتصبة... أرض ثالث الحرمين الشريفين، بل إلى كل أرض إسلاميةٍ وطأتها أقدام الغصب والعدوان... تلك هي الصيغة التي يجدر بالمسلمين أن يَعوها، وأن يرفعوها شعاراً رفعته جحافل الجهاد، في تاريخهم العريق، فكان لهم النصر... والفتح، ونشر كلمة التوحيد، تخرج الناس من الظالمات إلى النور، وتدحر طغيان طواغيت الشرك والضلال، في معاقلها، ليرى الإنسان أول وأعظم مبادئ العدل والحق والحرية والمساواة، فلا يعبد في الأرض إلاّ الله ولا طاعة أو خضوع، أو ركوع أو سجود إلا لله، ولا حكم إلاّ لشريعة الله في كتاب الله وسنة نبيه صلوات الله عليه.

المسلمون اليوم في عرفات، إذْ يطلبون من الله عزّ وجلّ المغفرةَ

والعفو والرضوان مطالبون بأن لا ينسوا أنهم الأحرار بأمرِ الله في شهادة أن (لا إله إلا الله). والأحرار، هم أنصار عقيدة التوحيد... أنصار العقيدة التي تأبى الذل، وترفض الهوان، فلن ترضى لإخوان لهم في ساحات المسجد الأقصى، يُقتلون، ويُعتقلون، ويُعذبون، ولا ذنب لهم إلاّ جهادهم في سبيل الله في سبيل استرداد الأرض، والدفاع عن القبلة الأولى... عن المسجد الأقصى، الذي لا يزال أسيراً في أغلال الاغتصاب، والقهر والغيان.

لا جمر في عظامنا . . . ولا رماد

والكلمة للشاعر الذي طالما استقر في ذهني، كرمز لأفريقيا كما يراها الشاعر العربي في شقاء إنسانها، وهو يكافح الاستعمار الأوروبي الذي خرج من القارة خلال العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن، ولكنّه الخروج الذي ترك في الإنسان والأرض معاً شِبَاكَه، وفِخَاخَه ومصايِدَه التي زوّدها بالقدرة الخفية على أن يظل الإنسان مشدوداً إليه، بحاجته وافتقاره إلى يد هذا الأوروبي الأبيض تمتد إليه من باريس أو بلجيكا، أو لندن، وأن تظل الأرض مزرعة يكابد الإفريقي، مشاقَّ خدمتها، في الحقل أو في المنجم، أو في بئر البترول، ثم لا يجد الأسواق إلاّ عند ذلك الأبيض، القادر على الشراء والتسويق بالسعر الذي يلائمه. وهو سعر يضمن للإنسان الإفريقي السَّكَن في العُشة من أغصان الأشجار، والغذاءَ من البقية التي بقيت له من طحين الذُرة وغيرِها من المحاصيل، التي تطحن في الأجران بعمليات (الهرْس) تقوم به المرأة، عند كل وجبة غذاء أو عشاء. فإذا جاء الليل، وغاب ضوء القمر وراء الغيوم السوداء، فالسَّمر الإفريقي المألوف، حولَ النار، وبدقات الطبول، والأبواق، والرقص، الذي سرقته أوروبا أيضاً ثم طوّرته لتسهر عليه مرابع الليل وعلب (الديسكو). . . حتى هذه الصورة لم يغفل الأوروبي عن سرقتها أو استعارتها والاستفادة منها، بحيث تزدحم اليوم جميع ملاهي أوروبا، وأمريكا، بل وحتى أميركا اللاتينية كلّها بأشباه

مايكل جاكسون، ومادونا، وفنهما معاً تشنّج الإفريقي، وانفعاله إلى حد التمزّق، وبذلك وعلى موسيقى التشنج والتمزيق بطبول وأصوات الإفريقيين يرقص الملايين في كل العام.

وتختلف رؤية الشاعر الأستاذ محمد الفيتوري، في تغنّيه بالإفريقي وبأفريقيا، في أنه كان ينطلق من لهب مشاعره أو عواطفه نحو هذا الإنسان الذي ناضل ليطرد الأبيض، وليصبح (السيد) على أرضه. . . وإذا لم تخني الذاكرة فإن إبداعَه، في أكثر من ديوان من دواوينه كان يُحلّق في أجواء القارة السوداء. . . وله اليوم أن يقول ـ أو أن نقول نحن ـ إن شعلة الثورة في شعره كان وَقودها من هناك. . . من العُش، ولهب النار أمامها، وحولها الصبية والرجال والنساء، يواصلون رقصاتهم على قرع الطبول بينما تغمر الساحة رائحة شواء الوعْل، ومعها رائحة عرق الراقصين.

وشعلة الثورة في شعر الأستاذ الفيتوري لم تخمد قط. . . بل هي لم تخمد أيضاً في معايشته للكثيرين الذين يحرصون على التحلُّق حوله، يذكِّرونَه بمطلع أو بيت من شعره يحفظ أحدهم، ليسمعوا منه ما يعيد إلى الأذهان صوراً من مواكب الثورة، إن لم تكن من أفريقيا، فمن العالم العربي الذي يعيش الشاعر الفيتوري مآسيه ونكباته وواقعه الذي يؤمن أنّ قضية الحرية فيه، هي (أم) القضايا، التي لا تزال عقيمة فإذا قدر لها أن تخصب فإن مواليدها، هنا وهناك من أرجاء الوطن العربي، لا تزال، إما «مُجْهَضة»، وإما من النوع الذي يسميه العلماء (موغولي) عاهته التخلّف الذي عجز العلم عن تغيير طبيعته، فاستسلم وتركه لحياته التي تنمو جسداً بينما هي غافية إدراكاً وقدرةً على التعامل مع الحياة.

والكلمة التي أخذتها عنواناً لكلمة اليوم، من قصيدة للفيتوري، نشرتها

مجلة اليمامة الغراء، بكثير من الحفاوة والترحيب، عبّر عنهما الإخراج الفني الذكي الذي استطاع أن يعشِّق بين (يوميات حاج إلى بيت الله الحرام)، وبين هذه الصواريخ النارية في قوله:

يا سيدي منذ ردْمنا البحر بالسدود وانتصبت ما بيننا وبينك الحدود
مِتنا وداست فوقَنا «ماشية» اليهود

* * *

يا سيدي، تعلم أنْ كان لنا مجدٌ وضيعناه
بنيتَه أنتَ وهدمناه
واليوم ها نحن
أجل يا سيدي... نرفل في سِقطَتنا العظيمة
كأننا شواهد قديمة
تعيش عمرَها لكي تؤرّخ الهزيمة

* * *

لا جمر في عظامنا... ولا رماد
لا ثلج... لا سواد
لا الكفر كلُّه ولا العبادة
الضعف والذلة عادة

وبعد:

فإذ أحيي الفيتوري، وأعايش مشاعره في يوميات (حاج إلى بيت الله)... لا يفوتني أن أتساءل أين الدكتور فهد العرابي الحارثي رئيس

تحرير هذه المجلة التي تتألق ولا تزال في طريقها إلى قمة تراها، ويراها فريق من هذا الشباب، الذي لن يتوقّف عن محاولة بلوغ القمة ولن يواصل التحليق أو التصعيد، دون أن يكون الدكتور فهد زميلهم معهم في موقع من الطريق الشاق الطويل.

ممارسة السلوكيات المرفوضة

ليس بيننا من يجهل أن الولايات المتحدة الأمريكية، قد دخلت تاريخ حضارة الإنسان بعدد من الرجال الذين لا تفخر بهم أميركا وحدها، بل يفخر بهم تاريخ الإنسان الذي قد تكون حرّيته، بمضمونها الإنساني الأسمى والأنصع والأكثر توهّجاً، قد تحققت ـ ولأول مرة ـ على أيدي هؤلاء الرجال، بما اقتحموه من عقبات، وما خاضوا غماره من معارك، في سبيل حقوق الإنسان الأمريكي والحرية أسمى وأقدس هذه الحقوق.

ومضمون الحرية كما خاض غمار معاركها أولئك الرجال في أميركا، قد يختلف كثيراً من مضامين لها في تاريخ وحياة أممٍ وشعوب أخرى. وقد يكون ما يعتبر تجاوزاً للحدود هنا، وإسرافاً في ترك الحبل على الغارب هناك، وربّما كان ما يُحكى عن الجنوح، والاستهتار السلوكي دليلاً على أن مضمون الحرية في أميركا ـ وفي إطار حقوق الإنسان فيها دليلاً على أن للحرية في المفهوم الأمريكي مساوئها التي لا ترتضيها سلوكيات مجتمعات بعينها، ولكنْ هناك فرق قلّما لوحظ وأخذ بعين الاعتبار. . . وهو الممارسة. . . ممارسة مضمون هذه الحرية في أميركا، وممارسة هذا المضمون في تلك المجتمعات بعينها. . . الأمريكي يمارس مضمون هذه الحرية تحت ضوء الشمس، وفي العلن، ووراءه أو أمامه أو من حوله عصا القانون التي يعرف الممسك بها في الشرطة أو في القضاء، كيف

ومتى يستعملها فيعيد إلى المنفلت أو الخارج على مضمون الحرية في الحدود التي قررها الدستور، صوابَه، أو يصلح انحرافه... بينما الواقع في كثير من المجتمعات، التي لا ترتضي مضمون الحرية في أميركا، أنها تمارس سلوكيات مرفوضة بل ومحرّمة، ولكن في الخفاء، وبعيداً عن عين الممسك بعصا الرفض والتحريم. وهذا بهذه الصورة، أو بهذا السلوك المتخفّي، يفسح المجال لانتشار الكثير من السلوكيات المرفوضة بل والمحرمة على نطاق واسع في هذه المجتمعات، ولأنها تمارس في الخفاء، يتعذّر وقف انتشارها. وهذا يلقي على عاتق الأسرة، قبل المدرسة، واجب التوجيه التربوي الحازم، الذي يرسّخ السلوكيات التي يرتضيها المجتمع، ويحث عليها الموروث من النواهي الدينية والأعراف والعادات. والمشكلة في أداء هذا الواجب، الملقى على عاتق الأسرة، هي وجود القُدوة، والتزام هذا، أو هذه القدوة بالسلوكيات التي يطالب بترسيخها وقد لا نجحف أو نتجاوز الحقيقة إذا قلنا إن هذه القدوة ـ أباً أو أماً ـ لا تعي من واجب هذا الالتزام ومن السلوكيات المرفوضة، إلاّ القشور أو التوافه، تعبّر عنها، بكلمة (لا) أو (عيب)... تتردد على إسماع الصغار، مئات المرات بين اليوم والليلة بينما يرى هؤلاء الصغار، القدوة نفسها، لا تلتزم بـ (لا)، أو (بالعيب)، فمن ذلك على سبيل المثال التدخين، وعلى الأخص «الشيشة» والتحلّق حول ورق اللعب، وما يتناثر من الشتائم القذرة بين اللاعبين، ومنهم (القدوة) وهو الأب، وما تمارسه (الأم) من التعلّق بالمظاهر، والاسترسال في البذخ والإسراف، أو ادعاء ما لا أصل له من المظاهر الكاذبة كإنفاق عشرة آلاف ريال على هدايا قدّمتْها في حفل زواج دعيت إليه، ومن هذه الهدايا (بوكيه) الأزهار الذي كلّفها وحده ألف ريال... وهذا إلى جانب النميمة، وقذف الغائبات عن

المجلس، وانتقاص صورهن الخ. والأطفال، يسمعون... ويرون، ويكتسبون مما يبدو لنا أنهم لا يفهمونه، مع أنه يترسّخ في تكوينهم، ومنه ينطلقون إلى الأكثر، أو الأقبح، وفي آذانهم تلك (اللا) وذلك (العيب) الذي كانت تمارسه القدوة ولا وجود له في الواقع المشهود.

السلوكيات المرفوضة التي تمارس في مجتمعات بعينها في الخفاء، وتعجز عن الوصول إليها عصا الرفض والتحريم، هي للأسف، العاهة التي لا ندري في الواقع كيف تقاوم بأكثر من كلمة (لا)... وكلمة (عيب)... بعصا الرفض والتحريم التي يجب أن تصل إلى مكامن الخفاء وأن تؤدي واجبها في الإصلاح والتقويم.